وضع الصحيفة على فخذيه ثم أسند رأسه الذي غمره الشّيب إلى ظهر المقعد الهزاز وجذب نفسا طويلا من سيجاره الفاخر تزامن مع انطباق جفنيه الذابلين... نفث دخانا أبيض حام حول رأسه في زفرة قوية كأنه يحاول أن يخرج ما اختزنه صدره من ألم ووجع مرير و نظر بعينين متعبتين تحبسان دمعا إلى السطور نظرات حزينة ضعيفة. كم كان الأمر سيتغير لو حل محل هذا المقال مقال آخر يتحدث عنها كما في السابق!، مقال يحمل الحنين والفرح، لكن هيهات .كيف لأمنيته هذه أن تتحقق وأين يمكن ان تكون الآن؟ هل مازالت على قيد الحياة؟ أم تراها ماتت؟أم تراها قتلت؟

أحس باختلاط في مابين الصور التي تعشش بذهنه وتلك التي يراها أمام عينيه الزائغتين.وكلها صور وأشباح تتحرك وتتكلم ،صور لأشخاص من سجل حياته، صور الغائبين أو صور لضحايا القدر، صور تختلج وتنتفض كما اختلج الأصل وانتفض في صراعه مع الذات ومع عذاب الكيان وجبرية المصير.

رأى طيفها يكبر و يتميز عن غيره من الأطياف المختلجة المنتفضة و قد حملت على عاتقها هم الحياة أو وقد حملها هم الحياة على المضي في نسج أسطورة الفعل الناقص. صرخت الأشباح كأنها أرواح حبيسة بجوف الأرض و أخذ حجمها يصغر تارة ويكبر تارة أخرى وتوالت أمام عينيه بسرعة خاطفة وملامح مشوهة لكن طيف سارة ظل ساكنا ثابتا ولم يتحرك مع المتحركين و لم يصرخ كأنه يعلم بيقين أن الحياة يمكن أن تتخذ مسارها دون أن نحمل همها. ظل يجابه الحركة من حوله في ثبات حكيم كما كانت هي تجابهها صمتا يتمخض عن فن جميل وتعبير كامل قبل أن تقتحم الذئاب حياتها وتمزق سكونها الرائق بمخالبها الملوثة بالدماء.

وفي كل ذلك الخضم استطاع أن يتعرف وجه الدكتور الشهير"حافظ عياش" يكلمه بصوت هادئ بينما واصلت

الأطياف الأخرى طنينها و لغطها غير عابئة بمن أظهر حكمة أو بمن تبنى نظرة شاذة للوجود كهذين الطيفين الشاردين عن القطيع ولن توقف الأطياف صراعها مع الحياة ولن تبدد وقتها الغالي الثمين من أجل شاذين، شاردين عن القافلة؟ ترى من كان أكثر حكمة ؟ سارة أم "حافظ العياشي"؟ من جابه الحياة بالانغماس مع ذاته يناجيها فيصنع فنا أم من جابه الحياة بفعل ناقص بقصد تغيير مسار القدر ؟ كانت شفتا الدكتور حافظ تتحركان وتصدران كلاما يذكره جيدا إنه نفس الكلام الذي وجهه له آخر مرة رآه فيها قبل وفاته بعد أن انفجر سره قنبلة زعزعت كيان أسر عديدة قال له:"لقد حاولتُ تقديم يد العون لبعض الأشخاص. وظننت أني أزرع بذور خير، لكن الأيام كشفت لي أن ما صنعته كان دمارا طال حياتي وحياة هؤلاء "

أعيت الصور المشوهة الكهل حتى كاد يصرخ ثم أرخى رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه فاختفت الأشباح المتخبطة وحلت محلها ذكريات هادئة من الماضي، ذكريات شاب توهجت في قلبه مشاعل الحياة وتمتع بالعز وقد وهبه القدر كل نعم الحياة السعيدة، النسب العريق و الثراء الفاحش . تحضره الآن ذكريات البيت الكبير بحي "مونفليري" بتونس العاصمة تسحب معها ذكريات طفولته السعيدة الثملة حبا والتي غرفت من معين الحياة. "توفيق المقدم" هو ذلك الطفل الذي تربع في مملكة والده "عبد المجيد المقدم" وحيدا بلا منافس فانصبت عليه أنواع الرعاية دوارق من الحنان والعطف الفياض وتنعم بدلال والديه وجديه لأبيه ولم يحرم من فضل جديه لأمه فآل إليه ميراث أمه وقد كانت وحيدتهما: متاجر ب"البلاد العربي" بالعاصمة ومزارع شاسعة قرب مدينة "زغوان".

شب الفتى في هذه الدوحة الوارفة ، دوحة طلعها المحبة الغامرة و ظلها اللّحمة والمودة زاول تعليمه الابتدائي والثانوي بالمدرسة "الصادقية" بشارع "القصبة" وهناك خالط نخبة من

الشبان كانوا يهتمون بشؤون السياسة التي اعتمدتها حكومة الاستقلال وكان لهم آراؤهم الخاصة في أوضاع السياسة العربية في تلك الفترة وأهم ما يدور بينهم من حوارات كان بشأن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وعلاقة السياسة الخارجية المصرية بحكومة الاحتلال الإسرائيلي وكان بعضهم يجاهر بمعارضته لنهج حكومة"بورقيبة" لكن توفيق ظل بعيدا عن تلك التيارات فقد حماه والده من الانجراف فيها بأن جعله يضطلع معه بأعمال التجارة وأشركه في قراراته العملية بشأن مصنع المعلبات الذي كان يمتلكه وفي المقابل كان الفتى مطيعا هادئا مستجيبا لرغبة والده غير أنه شهد معه فترة حرجة حين هبت على البلاد نسائم الاشتراكية متمثلة في تجربة الاشتراكية الملكية وهي ما سميت ب"التعاضدية" وهي أن يتعاضد مجموعة من التجار أو الصناع من ذوي الاختصاص الواحد في وحدات صغيرة أو كبيرة وكذلك الشأن بالنسبة لممتلكي الأراضي فيصبح التاجر أو الحرفي او الفلاح يعمل في تلك الوحدة لفائدة المجموعة وخاف عبد المجيد المقدم في أوائل السبعينات وقد كان ولده غرا أن تضيع حقوقه في زخم التعاضد الذي خلف الفتور وضعف الهمم إذ قل الحرص لدى العملة الذين باتوا يعملون كالأجراء بعد أن كانوا أرباب عمل في دكاكينهم أو ورشاتهم أو أراضيهم. وهب مذعورا يذود عن أملاكه وأملاك زوجته التي ستؤول لابنه تساعده في ذلك حنكته العملية ومعارفه الذين يتصدرون مناصب عليا في جهاز الجمهورية الناشئة ولم تدخل أملاكه تحت لواء التعاضد ومرت الأمور بسلام رغم المنافسة التي أضحت أقوى من طرف الوحدات التجارية الجديدة التي زاحمت محلاته في "البلاد العربي" لكن الوضع لم يستمر وصدرت الأوامر بإيقاف التجربة وتم فك الوحدات التجارية والصناعية والفلاحية و لم يخل الأمر من ضحايا ومن حقوق وأموال عامة مهدورة ومنهوبة وحسابات ملفقة ومزورة علقت كلها على التعاضد

الفاشل وانجلت الزوبعة التي خلفت تأثيرات سيئة على اقتصاد البلاد في فترة حساسة من تاريخها وهي تغادر مرحلة صعبة تمثلت في خمسة وسبعين سنة من الاستعمار البشع الذي كان على يدي أعتى القوى الاستعمارية التي شهدها التاريخ الإنساني وكان من بين تلك التأثيرات السيئة أن قل الإنتاج الفلاحي نتيجة لما أدخله التعاضد من فتور للعزائم وتثبيط للهمم وحيث أن اقتصاد البلاد التونسية قائم على الفلاحة بالأساس إذ كان قطاع الخدمات يشكو ضعفا مرده تأميم القطاعات غداة الاستقلال فقد تجلت مظاهر عديدة للتأزم داخل البلاد تواصلت حتى مطلع الثمانينات وكانت أحداث جانفي 1978 حيث عمت الإضرابات وتأزمت البلاد من أقصاها إلى أدناها وأُعلن إضراب عام في كامل البلاد وانفلت زمام الأمور وأعلنت حالة الطوارئ ونزل الجيش إلى الأنهج والشوارع وأُغلق مقر الاتحاد العام التونسي للشغل وتمسك الاتحاد برفض التراجع عن قرار الإضراب العام وتمسكت حكومة الهادي نويرة بدورها برفض رفع حصار الشرطة عن مقر الاتحاد ورفض الطرفان التفاوض فكانت الكارثة التي مات فيها العديد من الأبرياء إذ أطلق الجيش نيرانه على العديد منهم وزُج بالمسؤولين النقابيين في السجن وحوكموا وأثناء المحاكمة زار تونس مساعد الكاتب العام للجامعة العالمية للنقابات وقد نددت الصحف الحرة في ذلك الوقت ومنها جريدة "الرأي" وجريدة "الديمقراطية" باعتقال "حبيب عاشور" الكاتب العام للاتحاد التونسي للشغل ورفقائه ونددت رابطة حقوق الإنسان بذلك الاعتقال وبعد سنتين بالضبط من أحداث الإضراب العام في26 جانفي 1978 وقعت أحداث أخرى مؤلمة في "قفصة" في 26 جانفي من سنة 1980 أقيلت على إثرها حكومة الوزير الهادي نويرة ويمكن القول أن النُّهج الاقتصادية المتبعة كانت مؤثرا فعالا في الأحداث التي شملت البلاد في الثمانينات وبدورها هذه الأحداث وهذه الاضطرابات كان لها تأثير واضح على

الوضع العام وعلى علاقة المواطن بالدولة كمواطن من ناحية وكمستهلك من ناحية أخرى حيث أن الأسعار تتأثر بالوضع السياسي خاصة أن جل القطاعات الحيوية كانت مؤممة في تلك الفترة وكانت أسرة "المقدم" الصغيرة من حيث عدد الأفراد والكبيرة من حيث العراقة والثراء لا تهتم البتة لما يشغل الناس من أمور السياسة غير أنها تتأثر كما يتأثر الآخرون خاصة منهم أصحاب المصالح بالحالة العامة للبلاد وخاصة للشأن الاقتصادي .

ومنذ بداية السبعينات أخذ عبد المجيد المقدم يشرك ابنه في أعماله رغم حداثة سنه فقد كان من مواليد سنة 1947واستمات في تلك الفترة الحرجة من تاريخ البلاد في الذود عن المملكة التليدة في الوقت الذي كان فيه آخرون يخسرون حياتهم أمام رشاشات الجيش الفرنسي في معركة الجلاء عن بنزرت في شهر جويلية من سنة 1961تلك المعركة التي خلفت ضحايا كثيرة ورأى بعضهم فيها هفوة سياسية اقترفتها حكومة بورقيبة ضد شعب أعزل من السلاح أثخن الجيش الفرنسي بآلته الحربية المتطورة تقتيلا فيه وتقدمت تونس بعد معركة عنيفة وسقوط مئات الضحايا بشكوى إلى مجلس الأمن صوّت على إثرها وتحديدا في أوت من سنة1961 على قرار يلزم الجيش الفرنسي بالانسحاب من المناطق التي غزاها إثر المعركة كما دعا الحكومة الفرنسية إلى الدخول في مفاوضات مع الحكومة التونسية حول جلاء الجيش الفرنسي عن تونس.

لم تكن عائلة المقدم تهتم بالسياسة وقد كانت تتنعم بالأمن المادي و تتفيأ ظل الثروة لكنها مع ذلك آمنت بقيمة العلم فأرسل الوجيه ابنه إلى فرنسا لإتمام الدراسة إذ كان الوافدون من هناك بشهادات عليا تتيسر لهم أعلى المناصب وقد كان في عزم "المقدم" أن يكون له ابن في صفوف أعضاء الحكومة كان هذا الحلم يراوده وهو حلم مشروع إن لم يعقه عن ذلك نفوره التاريخي من الاهتمام بالسياسة.

ارتحل الفتى سليل العز إلى فرنسا ليعود منها بشهادة جامعية تليق بابن الوجيه " عبد المجيد المقدم" وانتسب هناك إلى جامعة السربون التي استقطبت في تلك الفترة العديد من الطلبة التونسيين والعرب وأثناء إقامته هناك أمكنه التمتع بسحر العيش في باريس عاصمة الأنوار في الوقت الذي كان فيه بلده يرزح تحت إرث ثقيل من مخلفات الاستعمار وقد مرت زهاء الثلاث سنوات على جلاء آخر جندي فرنسي من البلاد التونسية.

تفتق الشباب على عود الفتى الوسيم وراح يعب من نعم الحياة بقلب نظر واستنشق نسيم الحرية الكاملة بملء رئتيه فارتاد دور الأوبرا والمسارح والكازينوهات واتخذ الأصحاب والندّام وانتفض جسده الغض برغبة الشباب المحمومة فربط علاقات حميمة مع صديقات كثيرات وكادت إحداها أن تفضي إلى زواج غير أن الأمور جرت بغير ما تحسب له فلقد ساور والده شك في أمره بعد رسالة تلقاها منه تضمنت تحية من صديقته "ايميلي "نحو أمه السيدة "زُبيدة".

أدرك الوالد المحنك ببديهته اللماحة أن ابنه قد يقع بفخ زيجة مستهجنة هو في غنى عنها فسارع يرد عليه ويرجو حضوره السريع فما كان من توفيق إلا أن طار نحو أرض الوطن وقد خشي أن توافي المنية والده قبل أن يراه وأن يقبل وجهه وأكفه وعاد إلى تونس في شهر ماي من سنة 1967يحدوه شوق كبير إلى حضن الوالد وتعصر قلبه مخاوف ممضة من موت مفاجئ يفرق بينه وبين أبيه إلى الأبد.

التحق بالبيت الكبير بحي "مون فليري" بالعاصمة فوجد والده متوعكا فلازمه لوقت طويل وحين تنبه وجد أمرا آخر أثار استغرابه فقد لاحظ تلميحا لزواج لن يكون سوى زواجه هو وكاد يعود أدراجه نحو فرنسا لولا أن والده ألح في الرجاء وحاول أن يرقق قلبه وطلب منه أن يحقق له رغبته الأخيرة

والمتمثلة في أن يراه متزوجا ومستقرا وأن يرى له حفدة يكونون مشعل الأمل للعائلة وتؤول لهم الثروة الطائلة.
احتار توفيق وطال به التفكير هل يعصي أباه المتوعك أم يضحي بحبه؟
كانت أمه "آلاّ" زبيدة في تلك الأثناء تحدثه عن العروس المرشحة وهي كلثوم بنت "طاهر بن زكري" صديق الوالد الحميم وكان الشاب يعرفها حق المعرفة ولم يغب عنه أنها تحظى بجمال باهر تحليه أخلاق رفيعة وتدعمه أرستقراطية معتدلة اكتسبتها من انتمائها لعائلة ميسورة لم تؤثر الأزمات التي مرت بها البلاد في رأس مالها.
أرسل لصديقته "ايميلي" يخبرها بالمجريات ويحدثها عن حيرته فوصله الرد مفاجئا فقد نصحته بالرضوخ لرغبة والده ولعل الفتاة وزنت الأمور بعقلها الغربي فوجدت أن من العبث التمسك بفتى عربي يمثل أمل والديه وأنها ستكون الخاسرة في كل الأحوال فزواجه منها دون رضا ذويه يعني ضياع الثروة وحتى إن ذهبت هي إليه فسيكون الأمر أشد صعوبة وسيكون عليه أن يقحمها في عائلته العربية التي ترفضها من حيث المبدإ.
ذبلت أوراق الحب بقلب الشاب وأحس بمرارة الخذلان الذي صار بعينه ممثلا في الأخلاق الغربية وتكشفت له الحقيقة عن أنياب الغدر تغرسها بقلبه من كان يروم أن يجعلها زوجة له وشريكة في هذه الحياة وغلب الظن عنده أن ل"إيميلي" صديق قديم آوت إليه حال عودته إلى تونس فأيقن أن مثيلاتها لا يؤتمن لهن ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يمتلكن قلوبا عفيفة تصون الود وتحفظ العهد.
استسلم لرغبة والديه وتمت خطوبته لكلثوم بن زكري في حفل بهيج في بيت والديها بضاحية المرسى. بعد ذلك انكفأ في تلك الصائفة ببلده كارها العودة إلى فرنسا وظل يساعد والده في أعباء العمل وكان كثير الذهاب إلى الوطن القبلي حيث يتعامل

مع فلاحين كبار يزودونه بكميات كبيرة من الطماطم والفلفل والغلال التي تحول في مصنعهم إلى معلبات وكان في أحيان أخرى يتجه إلى "زغوان" ليقف على محصول الكروم وليتفقد أشجار الزيتون والمواشي وكل مختصات مزارعه هناك ومن حين لآخر كان يتصل بمن ينوبه في متاجر التحف والبضائع العتيقة في البلاد العربي بأسواق "البلاد العربي" فيتفقد أمور التجارة ويتفق مع بعضهم على تجديد الواجهة و يتفق مع البعض الآخر على تحسين الخدمة وتكثيف البضاعة وحسن عرضها حتى تجلب أعين السياح. ولم يغفل في أثناء ذلك كله عن أمر زواجه فأخذ يستعد له فصاحب خطيبته نحو محل صائغي معروف واقتنى لها "صياغة ديامونت" واتخذ من الطابق الأول في بيت والده مسكنا له فأدخل عليه بعض الإصلاحات ثم أحسن تأثيثه و فرشه بزرابي من الحرير وزين أسقفه بثريات من الكريستال. و حل موعد التحاقه بفرنسا في بداية شهر سبتمبر من سنة سبعة وستين وتسعمائة وألف لكنه لم يرتحل واكتفى بما حصله في سنته الوحيدة التى أمضاها هناك وخير الإقدام على خطوة أخرى شديدة الأهمية في حياته وخلال أيام كانت العروس الجميلة كلثوم بن زكري تتجول بأركان بيته فتزيده إشراقا.

لم يكن توفيق يهتم بأمور السياسة لا الداخلية منها ولا الخارجية وكانت بعض الأنباء تصله أحيانا من أصدقائه فلا تندى عنه سوى ردود سطحية تخرج من جنبات نفسه المتنعمة بالبذخ ولا تمثل سوى آراء مغرقة في الأنوية على أنه رغم كل ذلك لم يخل تماما من شعور بالوطنية فهو يحب تونس بالفطرة ويحب العرب بالانتماء ولم يسع يوما إلى تقوية تلك المشاعر بقلبه أو إلى شحذها وتوجيهها التوجيه الصحيح فظلت على سجيتها مخزنة بقلبه كما يخزن الطفل مشاعره دون أن يدركها حق الإدراك وقال له أحد أصدقائه المولعين ب"القومية العربية" مازحا عقب زفافه بأيام:

ـ كيف خيرت هذا الوقت بالذات لتتزوج ؟ ألا تعرف أن العرب يعانون نكسة بعد الهزيمة التي وقعت في شهر "جوان" المنقضي؟ أ لم تخش آثار النكسة؟ أم لعلك تتجنب أطفالا ينتمون إلى جيل جديد لا يعرف مثلنا النكسات والعثرات...
لم يخلف هذا التعليق أدنى تأثير على نفس الشاب الذي استقبل حياة جديدة تشاركه فيها زوجة جميلة يجري بعروقها دم عربي فاستطعم حلاوة العيش الهانئ وعرف قلبه الحب مجددا، حبا مضمخا بعطر الحلال وأريج الرضا الأسري وبادلته كلثوم حبا بحب ولو أمكن له أن يتصفح قلبها لعرف أنها كانت تحبه منذ زمن وكانت تخشى أن تخسره بارتحاله إلى فرنسا لكن الأقدار خدمتها وقدمت لها هدية ثمينة من حيث لم تدر وكانت هذه الهدية هي حب الطفولة وقد نضج وأذكته رياح الشباب ولم يكن شيء أحب إليها من أن تكون زوجة لتوفيق وكنة للسيدة زبيدة التي حبتها منذ صغرها بحب وحنان نادرين وكانت ترى فيها البنت التي لم تنجبها وتداعبها أحيانا بلفظ "كنتي"
كل هذه العناصر مثلت مجتمعة أسبابا قوية لتخيم المحبة على البيت الكبير الذي يضم بأحضانه زوجين شابين فتنفس أنسام الشباب بعد الكآبة التي لفته زمن غياب توفيق بفرنسا.
بعد الحدث السعيد أخذت الأيام تمر في وتيرة هادئة لكنها مشرقة بأنوار السعادة وانبرت العروس في بيت الزوجية تمارس حياتها في أمل وسعادة وحذت حذو حماتها في تسيير شؤون البيت وأخذت عنها أفكارها الحكيمة في تنظيمه والقيام على شؤونه بمساعدة الخدم وصاحبتها في أمسيات ذلك الخريف في زيارات أسرية في ضواحي العاصمة و أحوازها وأحيانا كانت أمها ترافقهما في الجولات المسائية التي لم تكن تقتصر على الزيارات بل كانت أيضا تشمل التسوق فقد كانت المرأة الشابة وأمها وحماتها مغرمات بالموضة وباقتناء ما يهل على البلاد من سلع غربية ومن آلات منزلية وكانت كلثوم شديدة الولع بجمالها وأناقتها يدفعها إلى ذلك يسرها المادي و

شبابها الغض وحبها الشديد لزوجها فسعت أن تبدو بعينيه بأحسن صورة وكان هو لا يبخل عليها بالمال ولا حتى بالوقت فكان يصطحبها للسهر خارج البيت بالنزل الفاخرة ب"سيدي بوسعيد" و"قمرت" و أحيانا كانا يقضيان بضعة أيام بمدينة"الحمامات" أو بجزيرة " جربة" للاستجمام والتمتع بمياه البحر ومرة فاجأها بتذكرتي سفر إلى فرنسا وقد غلف مرهم السعادة الزوجية جرحه القديم بل لعله طمسه إلى الأبد.
فطار برفيقة العمر إلى عاصمة الأنوار فأمضيا أياما لا تنسى من المرح والسعادة...لكن أيام الهناء قلما تدوم ومن سوء حظ الإنسان أن لا يطول به شعور السعادة وقد ظن انه أدركها إذ سرعان ما يأنس لها ويتعود عليها فتصبح أمرا مألوفا ويفقد شعور الشوق الذي دفعه في البداية لاستشعارها ويصبح ما كان يراه أماني وقد تحققت حقا مكتسبا وأمرا أمكنه تحصيله فتغادر بذلك سحابة الحلم والتشوف مخيلته وتَنْسَلّ السعادة من إدراكه ولعل ذلك يتأكد حينما تطرأ عوامل أخرى على الحياة أو هي في الحقيقة أحلاما أخرى تنتظر التحقيق وكان ذلك ما حصل بالضبط مع توفيق وكلثوم فقد تعودا على حياة الفرح والرغد وعلى هناء الزواج ونعيم المرافقة الحسنة وفي غمرة التعود والاستئناس أخذا ينتظران حلول مكملات أخرى لهنائهما الحاصل كقدوم مولود وقد كان حلم عبد المجيد المقدم أن يرى لمملكته وريثا وحتى والدا البنت الشابة طمحا بدورهما في رؤية نسل لها وهي وحيدتهما.
وهكذا تحولت السعادة بفعل عناصر مختلفة منها النفسي ومنها العائلي ومنها الظرفي إلى حالة انتظار لما قد يحمله الغيب.
لكن الغيب كان ظنينا على الجميع بما قد يدخل الفرح على القلوب ويدعم السعادة الأولى أو على الأقل يحقق وجها ثانيا من أوجه السعادة بل لعله يعوض السعادة المفقودة بسعادة مكتسبة...

طال الانتظار فأخذ الشوق يختفي وراء غيوم سوداء من القلق والخوف من غد مجهول...هل سيعيش توفيق المقدم ولا يرى نسلا له؟ وهل يموت والده دون أن يرى له حفيدا؟ وحين يحل القلق والضيق يصبح ما كان بالأمس مظهرا من مظاهر العز والكمال سببا من أسباب التعاسة فبدا للشاب أن كل ما يملكه لا يعوض ضحكة طفل يرنو إليه بعينين بريئتين ويناديه ب"بابا" فنظر إلى ثروة والده بفكر حزين وقلب واجف، ماذا سيحل بهم في حال لم يأت الطفل المنتظر؟ وكان من الطبيعي أن يلجأ إلى الطب في محاولة لاستعطاف الغيب أو هو في الحقيقة استعطاف للعلم...وانخرط مع زوجته في سلسلة من التحاليل والفحوصات الدقيقة كالكشف بالصدى وتحليل العينات واتبعا نظما علاجية مضبوطة على أيدي أطباء تونسيين وأجانب لكن النتائج كانت سلبية ولم يمنن العلم بلحظة شفوقة وظلت القلوب معلقة والنفوس حزينة والعقول مجهدة واختفى الحب وراء برقع من الكآبة الرمادية وتجلت الأيام لتوفيق كوحش فاغر فاه بأنياب حادة مقززة تقتر أذى ورغبة في افتراس سكينة حياته ولعله قد بدأ فعليا في اقتناص كل حلم جميل بخياله، كل ابتسامة جميلة يعن لنفسه المكلومة أن ترسلها في حاضر متأزم...

كان الرجل ميالا بطبعه إلى العزلة فلم يكن له في دائرة معارفه حوارات تذكر لا على الصعيد الشخصي ولا على الصعيد السياسي الداخلي أو الخارجي إذ لم يكن يهتم بما اهتم به معاصروه من قضايا كالسياسة التي انتهجتها الحكومة عقب الخروج من تجربة التعاضد رغم أن ذلك كان يعنيه فأعماله تتأثر بالأوضاع الاقتصادية للبلاد وقد كانت جل القطاعات في ذلك الوقت مؤممة وهو ما صعّب أوضاع التجار وأصحاب الشركات فلم ترس بعد دعائم الاقتصاد الحر و"الخوصصة" كم كان على أمثاله في الواقع أن يهتموا بأوضاع السياسة الوطنية على الأقل لتشخيص القدرات الشرائية للمستهلك التي تتأثر لا محالة بالوضع العام للبلاد. لكن توفيق كان يعاني من

تأثيرات تربية أرستقراطية متحفظة جعلته ينشأ وحيدا محبا للانعزال، راغبا عن كثرة الحديث والحوارات التي لم ير فيها إضافة له بقدر ما اعتبرها خسرانا لوقته وكذلك لم يستهوه الحديث في الشؤون الخاصة وقد اعتبره ضعف وهوان وهو الثري المترف المختال بجاهه وماله فظل السر الذي نغص نسمات فرحه طي الكتمان حتى أفلت منه في لحظة ترد على الإنسان فتفقده زمام نفسه..فأسر لأحد معارفه بالنتائج السيئة التي أسفرت عنها التحاليل وكان للرفيق قريب يعمل طبيبا مختصا بالعقم بفرنسا فأشار عليه بالاتصال به ولم يتخاذل توفيق في هذا الأمر وسافر مع زوجته إلى فرنسا وهناك اتصل ب"حافظ عياش" الطبيب المباشر في المستشفى الجامعي "سان أنطوان" بباريس. فقدم له ملفا يحوي كل الإيضاحات حول صحتهما الإنجابية لكن هيئة الأطباء بذلك المستشفى لم تقنع بتلك التحاليل القديمة وأوحت لهما بإجراء تحاليل أخرى أكدت الضعف الفادح الذي كان يعانيه توفيق ولم تقف الأمور عند ذلك الحد فقد أكد لهما الإطار الطبي المختص أن الأمل موجود والحلول متوفرة ولا يلزمها سوى بعض الصبر والثقة وبعد مدة جاوزت الثلاثة أشهر عاد الزوجان من فرنسا والتزما التكتم وفي يوم، أحست كلثوم بأعراض غريبة تعتريها فسارعت تستشير طبيبا مختصا يعمل بعيادة "سانت اوغيستان" بالعاصمة التونسية فأجرى لها بعض التحاليل ثم زف إليها أجمل خبر سمعته في حياتها ،خبر حملها بعد ثلاثة عشر سنة من الصبر، وكانت البشرى التي أثلجت صدر توفيق وصدر عبد المجيد وحوّلت الأجواء بالبيت الكبير إلى فرح عارم وتوافدت على الزوجين أسراب من الأصدقاء والمعارف تهنئهما بالخبر السعيد و صرف الرجلان ما يعادل أجرة شهر هبة لكل موظفيهما وعملتهما بالمصنع والمحلات وحتى عملة المزارع غنموا حظهم من الهبات.

وبعد فترة اتضح أن الجنين أنثى فاختارا لها من الأسماء سارة وانتظرت كلثوم بلهفة انقضاء أشهر الحمل لتفرح بأمومتها.

فتحت كلثوم عينين متعبتين تجلت في بياضهما الشعيرات الدموية بوضوح شديد..أغمضتهما لحظة وقد غمرها نور ساطع نافذ من زجاج النافذة الكبيرة المطلة على حديقة "البلفدار" الخضراء. نظرت حولها ابتسمت لما رأت وجه توفيق. كان ينظر إليها هادئا وفي عينيه الزرقاوين ارتسمت سكينة مُطَمْئِنَة...رد على ابتسامتها الكبيرة بابتسامة لطيفة انبثقت في خفر من ثغره الصغير...شاهدت ممرضة ملتفة بمئزر أبيض أنيق وقد انكبت على مهد صغير...عصر قلبها شوقٌ لاحتضان المولودة حتى غلبها فرفعت عينيها نحو زوجها ثم حولتهما نحو المهد ..توجه الرجل نحو الممرضة وتمتم لها ببضع كلمات فانحنت وحملت وردة المهد. كانت شيئا صغيرا ملفوفا بالأبيض والوردي ...ما أجمل المنظر ! لم تصدق أنها أخيرا في هذا المقام ! يحملون إليها صغيرتها وهي على فراش الولادة ...ما أسعد هذه اللحظات ! لعل توفيق قد أذهلته السعادة وأنعشته وأسكرته فتسمر في مكانه يتابع الأحداث من وسط الغرفة ...نور الشمس لم يكن عاديا هذا اليوم ...الخضرة البادية من النافذة كانت كمشعل فرح بقلبها الندي. ما أحلى الحياة بحضن الأمل ! ما أحلى أن تأتي سارة إلى الوجود ! أ لهذه الدرجة يمكن أن تسعد؟ لن يتحمل قلبها كل هذه السعادة بعد سنوات من الكآبة... أحست بالزمن يتوقف باللحظات تتجمع كلها في لحظة واحدة ثابتة ...لماذا وجدت الغرفة شاسعة جدا؟ لماذا قضت الممرضة دهرا لتصل إلى سريرها؟ لتحمل لها القادمة الجميلة؟ لتحمل لها نورا سيشرق بحياتها؟ الآن ستلمس الفرح بيديها ستحضن الأمل بقلبها ...ستشرق لياليها الباردة بضياء الطفولة...سيتفتح الورد بغرفتها...هي الآن أم...أخيرا صارت أما...كم أنت كريم يا الله !! تبعث النور من الظلام وتخلق البسمة على الشفاه اليابسة...

توقف الفرح فجأة... شخصت النظرات... انطفأ الضياء... نظرت إلى المخلوق الصغير..كان يتخبط باكيا...يكور قبضتيه

الصغيرتين...يتأوه...لكن ماذا؟ هل هذه وليدتها؟ سمرت ناظرين شاخصين...كتمت صرخة...اقشعر جلدها... ما هذا السواد؟ ما هذه البشرة؟ هل هي وليدتها؟ غير معقول ! لم تمد يدها لتحمل الفتاة...انفرجت الشفاه أخيرا لتنطق لكن توفيق ابتعد ذهب إلى النافذة رحل ببصره يتابع مسار الضياء المنبثق من الشمس عله ينتشله من ظلمة الموقف...لكن الضياء صار سهاما تخرق قلبها...هل هذه ابنتي؟

خرج صوتها متسائلا حائرا مقفرا كأنه رجع آت من بئر عميق...

بحثت في وجه الممرضة لكنها لم تجد ما يطفئ لهفتها...

طأطأت الممرضة رأسها فانهالت صخور عملاقة على قلب الأم الراقدة...اقترب توفيق.أخذ الوليدة بين يديه، نظر إليها بحنان ثم قربها منها وقال لها بصوت ضعيف متقطع:

- احضنيها !... احضنيها !...هي ابنتنا !

قال ذلك فتجمعت قطرات دمع حذو القزحية الزرقاء وانهمرت لتقع على ثوب المولودة... ارتسم الهلع في عيني كلثوم وامتثلت لطلب زوجها فمدت يديها لتمسك البنت لكنها كانت ترفض التسليم بالحقيقة...عقلها كان يرفض ذلك لكن قلبها وقف كسيرا بين مفترق طرق ... ألا يمكن للطريقين أن يتحدا وأن تتجدد السعادة بقلبها؟ لماذا تنسل السعادة من بين يديها؟ لم تنشطر ؟ يتحقق نصف ويبقى النصف الآخر؟ لم لا تكتمل الصورة؟ لكن مهلا، هل هذه هي الحقيقة؟ ألا يكون مخطئا في قوله؟

تخبط قلبها الحزين داخل صدرها واعتصره ألم الشوق، إنها تود أن تحضن المولودة، أن تقربها إلى صدرها الناضح حنانا، أن تلقمها ثديها أن تتحسس تلكما الشفتان الصغيرتان وهما تمتصان منها عصارة الأمومة، أن تمسك اليدين الصغيرتين... يدان صغيرتان وجميلتان لكنهما سوداوان...

فُتح الباب اندفع منه رجل بهيأة طبيب مشى إلى السيدة المستندة إلى ظهر السرير وقد أمسكت برضيعتها تتأملها وقال لها:

ـ ما أخبار سارة؟
نظرت إليه المرأة بعينين جاحظتين وبهما ألف سؤال:
أ هذه ابنتي؟
هذه ابنتي؟

استلقى آدم العياشي على مقعد بشرفة بيته بضاحية المرسى وقد كانت تطل على حديقة تذكر ملامحها بالازدهار الذي شهدته في أيامها الخوالي أثناء حياة والده الدكتور"حافظ" وقد كان قبل وفاته المأساوية منذ سنوات يعتني بها و يقضي فيها جانبا كبيرا من وقته .
كانت ساعة متأخرة من ليل صيفي وقد هجر النعاس مقلتي الكهل فالتجأ إلى الشرفة طالبا للسلوى. استلقى على المقعد فنثر القمر المكتمل عليه شعاعا غامرا صبغ سواد شعره الذي وشحته شعيرات بيضاء بزرقة داكنة تناغمت مع النور الفضي.وداعبه نسيم ندي قادم من الشاطئ فأهاج شعورا بداخله ظل يكابده منذ يوم اختفائها من حياته، شعورا ظل يتأجج نارا في صدره ، نارا تحرقه حين يشتد به الشوق لها وتدفئه حين يحمله نفس ذلك الشوق إليها .
أسكرت النسائم الجذلة روحه فخال نفسه بين يديها يناجيها وينهل من فيض حبها كما تنهل حواسه من نسائم الليل المسكرة فنطق صوت بداخله كأنه همس الوجود وقد أثمله سكون الليل أو كأنه صدى الكائنات الخفية وقد داعبتها نسائم السحر:

إله الخلود !
خذني إلى حدائق المجد
وباركني ببركة العاشقين والمحبين
واسقني كأسا مزاجها حنين
معشوقتي السمراء !
ضمّيني حتى تنطفئ نار العطش بداخلي
أو حتى تشتعل فيّ مشاعل الرغبة والحنين
ضميني حتى يشرق البدر
وتغرّد بقلبي أسراب الحساسين
امرأتي إلهتي !

المسيني، طهّري جسدي
بطهرك القدسي
أو دعيني ألمسك لأصنع فيك حياة
هي بوجداني حدائق وبساتين
حبيبتي اغرقي في كياني أغنية

وعلى مزمار الحب هدهديني
معشوقتي قديستي !
أُنثري ترانيم العشق فوق جسدي
تسَابيح حب أزلي
يعانق الوجود ويتوحد معنا
في سماء إلهية
ويخلدني مع الخالدين
حب عمري !
ازرعي فوق صدري
دفئا متوهجا
واغمريني بلمساتك
شدوا مُسَبِّحا بعدد آهات العشق
والأنين
قداسة روحي !
حين أتوحد معك
يغيب الوجود
بل يحل محل الوجود وجود
هو أنغام من الأحلام و اليقين
هو سكرة حب في حدائق الرياحين
يا أنا !
جسمك هو شهادة ميلادي
فدعيني أسجل

أول أيام حياتي
في دفاتر حبك
والثميني

أغمض توفيق عينيه محاولا إبعاد الصور المؤلمة عن خياله فتراءى له وجه المحقق ينصت إليه بكل انتباه وهو يقول :

"تواترت عليّ أيام أقضيها بقلب متعب ورغبة فاترة و أصبحت كثير الانشغال والصمت وصرت قليل الاكتراث لشغلي. ورغم أن وجود الطفلة قد أضفى بعض الحياة على البيت إلا أنها كانت حياة تخالطها الكآبة. و كنت أعرف بيقين أن الناس لن يؤمنوا ببراءة زوجتي وعفتها. وكان السؤال الدائم في نفسي هو كيف أرجح أن تكون الطفلة ابنة شرعية لي وفي الآن نفسه لا أملك تفسيرا للونها الغامق ؟ هل هو تشويه في الوراثة؟ هل يحدث مثل هذا التشويه دون أن يتمكن العلماء من فهمه و يصير البيض يلدون سودا والسود يلدون بيضا ؟ لقد اعتقدنا في البداية أن طفلتنا استبدلت على وجه الخطإ أو ربما عمدا بمولودة أخرى سوداء البشرة وأذكر ما تأكد لنا في تلك الليلة في مصحة "سانت أوغيستان" من أن كل الوالدات بذلك الأسبوع قد أنجبن مواليد ذكور وأنهن كنا جميعا عربيات من ذوات بشرة فاتحة ولم يكن أزواجهن من الزنوج. وقد حقق مدير المصحة بنفسه في الأمر وثبت لديه ان الطبيب المشرف على الولادة قد لاحظ منذ الثواني الأولى لبزوغ رأس البنت سواد لونها ودون ذلك مع المعطيات الأولية التي تسجل عن كل مولود."

سكت الرجل ثم واصل الحديث:

" لم يكن من السهل علي أن أتقبل كلام مدير المصحة وهو يطلب مني التثبت في أصولي وأصول زوجتي... كانت عيناه تشيان بعدم الاقتناع لكنه كان يتصنع الجد وكله رغبة في غلق ذلك الملف إلى الأبد... أنت تعرف أن أمورا من ذلك القبيل يمكن أن تسيء لسمعة المصحة ...عدت بكلثوم إلى البيت وكانت تحمل بين يديها أعجوبة قلما يجود الدهر بمثلها فالتناقض القائم فيما بيننا وبينها كان محل استغراب الناس. بعد ذلك سألت بعض أقاربنا المسنين عن تسلسلنا العرقي وأكد لنا

الجميع أننا -أقصد أنا وكلثوم - من عرق أبيض صاف لا تشوبه شائبة. ثم بعد ذلك وصلتني أخبار عن أحد الباحثين بمستشفى"شارل نيكول"وكان يعمل بقسم صغير حديث الإنشاء يسمى قسم الوراثة. اتصلت به وطرحت عليه الأمر فطمأنني وأكد لي أن هناك طفرات تحدث في التسلسل العرقي إذ تطرأ بعض التحولات على بعض الجينات ويمكن أن تنتج عن مؤثرات خارجية كالتعرض للإشعاع أو تناول بعض الأدوية الفعالة...وكان ظن الطبيب الباحث في ذلك الوقت أن كلثوم يمكن أن تكون قد تعرضت لإشعاع منبثق من مصدر ما مما أحدث بعض التغييرات في جينات سارة فحدثت الطفرة النوعية وهلت على الدنيا بذلك اللون الغامق وذكر لي مثالا لذلك وهو ما حصل بعد انفجار هيروشيما حيث توصل أحد العلماء في الوراثة ويدعى "مولير" وهو تلميذ عالم آخر مشهور في ذلك المجال ويدعى "مورغان" - توصل مولير في سنة 1946 إلى إثبات الطفرات التي تحصل نتيجة التعرض للإشعاع وكان الرجل يجري بحوثه على ذباب الخل فلاحظ بين ذوات العيون الحمر طبيعيا ذبابة طافرة ذات عينين بيضاوين...

طلب مني الباحث أن أحضر سارة إلى مخبره وفعلت فأخذ عينات من دمها...ثم بعد أيام وجدته يدعوني ويأخذ عينات من دمي ...عرفت ببديهتي أنه يريد التأكد من أبوَّتي فلم أبد تعليقا ومضيت ولم أعد إليه. كنت كمن يخشى اللحظة الحاسمة، لحظة قد تكون خيطا فاصلا بين حيرة ممضة ويقين قاتل. وبدوره الباحث كف عن الاتصال بي وظلت لذلك المخاوف تتقاذفني ويجنح بي الشك فأجزم انه انقطع عني لما عرف أن سارة ليست بنتا لي و أنه لم يشأ أن يدمر كيان أسرتي. أما علاقتي بكلثوم فقد استمرت على وتيرة هادئة فأجزم حين أكون معها أنها امرأة شريفة ولم تطعنني في ظهري لكن ذلك لم يمنع أننا كنا نتحاور بالأمر خفية عن سارة خشية أن تولد بداخلها عقدة. لكن العقدة عرفت طريقها إليها و لم يكن رغد العيش

الذي تنعم به ليبعد عنها الهواجس خاصة حين تسدد لها الأعين تلك النظرات الغريبة.
كانت أحيانا تجلس حذونا و تجري مقارنة بين يديها ويدي أمها من حيث وتنظر إلى صورتها المنعكسة على المرآة وتشرع في تلمس شعرها وفي نقل نظرها بين صورتها ووجهينا. "

المكان...كلمة في لغة الضاد تتكون من أربعة أحرف تضغط عليها وهي الفتاة العربية المجهولة الجذور أو المبتورة الأصول...المكان يضيق عليها...يطبق على أنفاسها يكاد يفترسها...كل الأماكن هنا في هذا البلد تطبق عليها وقد يكون المكان بريئا مما تنسبه له، قد يكون ساكنو المكان هم المذنبون : العرب...العروبة تطبق عليها..تخنق أنفاسها وتقيد حريتها...إنها وحش بمخالب حادة غارقة في الأدران...ما أبشعك يا موطن العرب ! لكأنك الغول الأسطوري ذلك الذي يعشش بأذهان أطفالك وهؤلاء الناس هم أظافرك الفاتكة التي تجرح دون شفقة...

المكان هو الحي وبه الجيران، هو شوارع هذه المدينة ومقاهيها وحدائقها وبها الناس والمارة، هو كلية واسمها كلية الفنون الجميلة وبها الطلبة والأساتذة والإطار وحتى هؤلاء تنكروا للعلم وتنكروا للفن وتنكروا للتنوير وأظلم الجهل في عقولهم الشرقية القاصرة، ينظرون لها نظرة تحقير كأنها لا تنتمي لبني البشر، يستهجنون لونها الغريب عن والديها كأنها خلقت نفسها. لا يحسدونها لأنها من عائلة ثرية لأنها لم تر يوما في ثرائها امتيازا ولم تعترف به يوما كسبب من أسباب النعيم... لم تحسد وإن تك قد حسدت فحسادها لا شك يشمتون بها لأنها تتعذب وهي لا تأبه لشماتتهم ولا لشفقة قد تأتي من آخرين ولكنها تتعذب، تتعذب مع نفسها ومع لونها المكفهر كفضاء هذه الكلية الخانقة...حتى دارسي الفن ومدرسيه لم يمكن لهم أن يغوصوا في أعماق الحقائق، أن يروا النفس البشرية عارية من زيف التمدن وغطرسة الأعراف والتقاليد والعادي والممكن... هل يجب على البنت أن تشابه أمها لتكون ابنتها؟ وإن لم تشابه أمها فما ضر لو شابهت أباها؟ لكن ما حدث هو أنها لم تشابه الاثنين، هما الثلج والبَرَد وهي التراب... ما أبعد التراب عن الثلج والبرَد ! وحتى وإن التقت هذه العناصر يوما فذلك لا يعني أنها من لدن واحد...

فقدت اسمها، تاه في زخم العقول المريضة..كنيتها صارت اسما معرفا " الوصيفة": كلمة عامية ترادف الزنجية في الفصحى. هذه الكلمة اختصرت اسما كاملا يحوي اللقب العائلي...حينما يسأل أستاذ النحت عن المتغيبين يذكرها الطلبة فيعمد بعضهم مشكورا إلى التعريف بها "إنها الوصيفة التي تقطن بحي النصر" أما فيما بينهم فلا يذكر لها اسم البتة " جاءت الوصيفة، راحت الوصيفة لنتصل ب"الوصيفة" لتطلعنا على بحثها."

ويوم أرادت أن تؤجر بيتا يؤُمُّها لوحدها...صارت حديث جل الطلاب:" هل تعرفون أن الوصيفة هجرت والديها لأنها اكتشفت حقيقة كونها لقيطة"

تسوغت بيتا في "باب الجديد"، تجولت في الأحياء العتيقة وفي الأسواق الشعبية، احتكت بالعامة وأملت أن ترى نظرة مختلفة توجه إليها لكنها لم تر غير الآلام... ظنها البعض سائحة سوداء واستمعت إلى عبارات نابية تقال عنها وغازلها بعض الشبان دون أن يغفلوا الإشارة إلى لونها الغامق "كم أحب أن تكون حبيبتي سمراء...السمراء أكثر حرارة في الحب"...

لم تطل مدة إقامتها بعيدا عن البيت الكبير في حي النصر، ليس لأنها احتاجت إلى والديها فلا تبالي إن عاشت العمر بمفردها لكنهما لم يطيقا فراقها...الثلج والبرد يودان أن يلتصقا بالتراب...مفارقات أتى بها الزمن المقلوب...عادت إلى معقل جراحها تتلمظ أحزانها في صمت القبور...تلوك هواجسها في عزلة داخلية...استسلمت لواقع يحاصرها كالموت ولا يدع لها فرصة للهرب... الهرب لم يتسن لها سوى في سويعات مخطوفة تقضيها في ذلك المرسم الذي شيده لها رجل تثبت الوثائق الرسمية انه والدها...شيده فوق سطح البيت الجديد بحي النصر. المرسم يطل على شوارع الحي الراقي...شارع يحلم جل التونسيون بسكناه وهو من أجمل الأحياء بالمدينة...حي لا

تطؤه الحافلات ولا الأرتال لأنه حي البورجوازيين الذين عبروا عن رفضهم لوسائل النقل العامة، لم يكن بهم حاجة إليها وهم الأغنياء الذين يمتلكون سياراتهم الفخمة...إنه حي لا تطؤه أقدام الرعاع لأنه حي النخبة وهي مع ذلك تتنعم بالسكن فيه بل أنها تسكن أجمل شارع به. كأنها نغمة نشاز في سنفونية النبلاء...سوداء فطساء الأنف، بارزة الجبين، غليظة الشفتين، مجعدة الشعر، تعيش في حي النصر ...لا تتذوق البؤس مع البؤساء ولا تغالب الشقاء مع الأشقياء لأن لها دعامتان قويتان تدعمان وجودها بين الطبقة المحظوظة: المال والأصل الرفيع...وإنها لتعجب كيف يكون لها أصل رفيع وهي السوداء التي يظن الجميع بأنها لقيطة، إنها مفارقة عجيبة وهي لتعجب أيضا كيف تتأسى من أجل فقراء هذا البلد وهي التي لم يرحمها أحد لا الفقير ولا الغني وحتى عندما التحمت بالعامة في أحياء "باب الجديد" و"باب سويقة" و"الحلفاوين" و"الحفصية" وفي الأسواق العتيقة: "الدباغين" و"الشواشين" وسوق النحاس وسوق "البركة" لم تجن غير مزيد من الجراح...لا أحد فهمها أو أحس بمعاناتها ولا أحد عاملها كانسان سوي كامل وإن منع الأغنياءَ قناعُ الأخلاق الذي يلبسونه من إبداء ملاحظاتهم جهرة فإن العامة لا يتورعون من قول كل ما يخطر ببالهم علنا خاصة تلك الفئة من الشبان العاطلة التي تكاد تسكن بالمقاهي و تتلذذ بإيذاء المارة. وهي حين تتجول بالأحياء العتيقة والشعبية تتحول إلى نكرة فلا يشفع لها أصلها الرفيع ولا يمنع عنها التعليقات المُهينة. لكم تود أن تعيش نكرة مع عامة الناس بالأحياء الشعبية حتى وإن تلقت ما يعادل مجلدات من الإهانات لكنها حالما حلت بالمسكن الذي أجرته وجدت الجميع يبحثون عن أصلها وفصلها وظنها بعضهم فتاة هوى فتعرضت لعدة مضايقات أدت بها في عديد الأحيان إلى الالتجاء إلى الشرطة التي لم تدخر جهدا هي الأخرى في المبالغة في التحقيق والتثبت وربما باتت في موضع اتهام وهي التي بدأت

بالشكوى خاصة حين يدعي الخصم أنها راودته عن نفسه او أنها متعودة على منح نفسها لطلاب اللذة في مقابل. وفي أقسام الشرطة كان أصلها الرفيع الارستقراطي هو الذي يشفع لها فتعود إلى مسكنها مرفوقة بنصيحة ذهبية من الشرطي المحقق يدعوها فيها إلى مصالحة والديها والعودة إليهم حتى لا تتعرض لأي مكروه وهي الفتاة الضعيفة ومرة عرض عليها أحد المحققين وقد كانت عيناه تتجولان في أنحاء جسمها الأسمر الممتلئ أن يبحث لها عن مسكن يكون تحت حمايته حتى لا تتعرض لمكروه.

تنهد توفيق ثم أجال نظره في فضاء المكتب ورده حتى وقع على ملف من الورق الوردي يمسك به المحقق وقد كتب عليه بأحرف سوداء غليظة: "ملف جريمة قتل الدكتور حافظ عياش". أحس بوخز في قلبه لما قرأ الكلمات لكنه واصل الحديث. كان يريد ان يتخلص من عبء ثقيل أرهقه لسنين طويلة:

اجتازت البنت العقد الأول من حياتها وتقدمت بضع سنين في العقد الثاني وتوقفت عن السؤال الذي كنا متيقنين من أنه ظل يتردد داخلها فاستقبلت سن المراهقة بقلب مرهق تعوزه الرغبة في الحياة. وكانت سنوات دراستها الثانوية ثقيلة شعرنا خلالها أن الزمن توقف عند لحظات ألمها. كان الروتين جاثما على صدري وصدر والدتها لكننا مع ذلك أملنا أن تتغير الأمور وأن يجود المستقبل ببشائر الفرح.

لم تظهر على سارة بوادر التفوق عدى أنها أحرزت معدلات جيدة في المواد الفنية في المرحلة الأولى من تعليمها الثانوي وأظهرت ولعا بالرسم والموسيقى واقتنت اسطوانات الأغاني الغربية تسمعها حين تختلي بنفسها في الغرفة العلوية بمنزلنا بحي النصر. لم تكن تلك الأغاني الغربية تروق لي ولا لأمها وكنا نصاب بالهلع حين نرى الفتاة تنزوي بتلك الغرفة وتغرق في صخب أغاني الراب والبوب وهي تلطخ الألوان على قطع الورق. أدركنا أنها اكتسبت مزاجا غريبا انطوائيا باعثا على الخوف ولم نستطع ان نفعل شيئا لنغيرها، كانت عنيدة ولو كنا منعناها من العزلة والجنوح لعرضت نفسها للأذى...كأن بداخلها قنبلة ناسفة توشك ان تنفجر فتحطمها وتحطم الآخرين... وعلقنا آمالنا على الأيام القادمة علها تحمل بين صفحاتها جديدا...

انتظرنا أن تحرز على شهادة الباكالوريا وظننا أنها قد تقبل على الحياة حينما تلتحق بإحدى الكليات فتنفتح على عالم الطلبة المفعم بالحوية وحب الحياة...لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد

تحصلت على الباكالوريا آداب وبعد ذلك التحقت بكلية الفنون الجميلة هنا بالعاصمة ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى وجدنا الفتاة تزداد جنوحا في أفكارها وشذوذا فيها وأخذت تردد كلاما غريبا مثل انها "وصيفة" ولا يجوز لها أن تسكن مع البورجوازيين في نفس الحي ثم فاجأتنا بعد فترة من الجنوح والاضطراب بأنها ترغب في الهجرة إلى أمريكا لتدرس الفنون هناك. "

أومأ المحقق برأسه وهو يستمع بانتباه إلى توفيق لعلمه بأن سارة قد هاجرت فعلا إلى الولايات المتحدة فيما واصل الآخر حديثه:

لقد قالت أنها تكره تقديس الأب والأجداد والانتماء و أن هذه المقدسات تعني العصبية القبلية التي تكبت الإنسان وتطمس شخصيته المتفردة وقالت أيضا أن التعلق بالأهل و الوطن يقتل الطموح ويقلص مجال الحرية ويصيّر الفرد رهن رغبات ذويه وميولهم و مقيدا بهذه الرقعة التي تسمى وطنا ومرة أخرى قالت أنها لا تعتبر نفسها تونسية وأنها لا ترى لنفسها جذورا بهذه البلاد وأن إحساس الانتماء عندها مفقود."

نيويورك، قلب أمريكا النابض، مركزها التجاري والمالي والصناعي و الثقافي، حلم كل شبان العالم وشيوخه وكهوله، مدينة قدت من نور وأضواء، رمزها امرأة شامخة برأسها تعانق السماء،تحمل مشعلا كإشارة للحرية والتمسك بالحياة. في هذه المدينة القاهرة المبهرة اختارت سارة الاستقرار، حصل ذلك في أكتوبر من سنة 1999. انتسبت إلى جامعة الفنون واختارت اختصاص الرسم واندست في المجتمع الجديد متخفية وراء قناع الفتاة السوداء الأصل. انكبت على الدراسة محاولة أن تنسى هواجسها النفسية وجذبتها الحياة الثقافية الصاخبة هناك فانطلقت تتعرف المتاحف و المواقع الفنية فزارت المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي الذي يضم تشكيلة كبيرة من هياكل الديناصورات وبه أروقة تعرض الحفريات وتجسد تطور الثدييات عبر التاريخ. و زارت متحف "ويتني" للفنون الأمريكية ومتحف"متروبوليتان"الفني و"أوبرا" "متروبوليتان" وهي الأوبرا الرئيسية بنيويورك و تمثل مركزا ثقافيا يهتم بالمسرح و الرقص والموسيقى. و ارتادت متحف "غوجنهايم" بجزيرة "منهاتن" عدة مرات فأشبعت نهمها بما حواه من نفائس الأعمال و اللوحات التي تمثل الفن الحديث والمعاصر و شاهدت أعمال الرسام الأمريكي "جاكسون بولوك" الذي طالما قرأت عنه وحلمت بأن ترى أعماله عن قرب فشدتها واستهوتها و تناغمت مع أصداء نفسها الثائرة وخاصة لوحته الشهيرة "الشعلة" التي امتزجت فيها الألوان الحارة والداكنة وتماوجت مع بعضها البعض حتى بدت كأنها شياطين تنتفض بين ألسنة اللهب الحمراء.

كما شاهدت أعمالا خلدها التاريخ لرسامين آخرين أمثال"فان غوغ" و"دي كونيغ ماذرولت" لكن لوحات "بولوك"هي التي تركت بنفسها أثرا عميقا وكانت تعرف طريقته الغريبة في الرسم، طريقة "الدريبنغ" التي تتمثل في تقطير الألوان على قطع "التوال" المبسوطة على الأرض.

ترك هذا الرسام أعمالا فنية غاية في الروعة و مغرقة في السريالية.ولم تكن أعماله وحدها ما سلب إعجاب الفتاة السوداء ولكن شدتها أيضا حياته وطباعه فقد عرف بغرابة أطواره و بميله إلى العزلة وبتركيبة نفسية معقدة أدت به إلى الهروب من حياة المدينة بصخبها إلى هدوء المزارع و الحقول حيث سكن ببيت ريفي منعزل أنجز فيه أغلب أعماله وابتكر أسلوبه الشخصي في الرسم وكانت الطبيعة الجميلة بمناظرها الخلابة ملهمته وراعيته في إبداعه المتفرد.

تنفست البنت هواء الحرية فهدأت خواطرها المهتاجة ولعلها في الحقيقة عرفت غفوة مردها الإعجاب بحياة الحرية والإختلاط بين الأجناس والألوان والاعتراف بقوة العلم والفن وتسرب إليها الإيمان بقدسية الفن فراحت تشغل أوقات فراغها بالرسم واتخذت في البيت الذي تسوغته بمنهاتن مرسما صغيرا وقضت فيه الأوقات الطويلة منكبة على رسومها تبثها لواعج نفسها وقد تخلصت أخيرا من أعين الفضوليين ومن تعليقاتهم الجارحة واستحضرت ملكتها التي أخذت تتهذب وتتطور شيئا فشيئا من أثر التكوين الأكاديمي الذي تتلقاه. وبدأ بعض المحيطين بها في الجامعة يستحسنون ما ترسمه فشحذ ذلك من عزمها وازداد اهتمامها بالرسم فقضت الليالي والساعات الطويلة تناجي قطع "التوال" توشح بياضها بالألوان المتضاربة المتضادة وقامت بعرض أولى لوحاتها برواق مخصص لأعمال الطلبة وظهر بجلاء في هذه الأعمال تأثر صاحبتها ب"جاكسون بولوك" في اختيار الألوان وفي تمازجها مع بعضها البعض وفي الطابع السريالي الذي خيم عليها. كانت تلك اللوحات تأخذ المتأمل فيها إلى عالم مفارق تحث عناصره على التجرد والإنعتاق والاغتسال بماء الحقيقة ،فتتعالى النفس الشفافة المتبرمة من صلابة واقعها عن المحسوس وتنأى إلى آفاق الخيال، حيث تنتشي وتجد أخيرا راحتها غير أنها لا تفتأ تبحث عن مكملات لتلك الراحة كأن

صاحبة الأعمال قد قصدت إلى تحريك وجدان المتقبل ودفعه إلى تعرية الواقع وهي التي طالما تألمت من قصور فكر بني البشر.
كان العرض ناجحا و لاقت أعمالها من الإقبال ما جعل زوار المعرض يقبلون على شراء جلها. وكتب عنها أحد الصحفيين المهتمين بأخبار الهواة مقالا صحفيا بعنوان "حين يلتقي سحر الشرق بجنون الغرب تحدث المفاجأة "
شعرت سارة بالإرتياح على إثر هذا النجاح لكنها لم تدرك السعادة التي يلهث وراءها كل البشر فقد حرمت نفسها من ذلك الشعور منذ كبرت وعرفت أنها بنت سوداء لأبوين من البيض ولم ينسها النجاح الذي لاقته لوحاتها حبها للغناء فظلت تغني في كل مكان. غنت لزملائها في الجامعة وغنت في البيت وغنت أثناء الرسم وأثناء قيادتها لسيارتها. ورددت أغاني "الراب" و"البوب" الأمريكية خاصة التي أصحابها سودٌ. وكان صوتها قويا صادحا يشبه إلى حد بعيد أصوات زنجيات إفريقيا. ومثلما استحسن الجميع رسمها فقد سحرهم غناؤها ودعاها زملاؤها للغناء في حفلاتهم وسهراتهم التي تقام بالبيوت فأخذت تفجر طاقاتها المخزنة بصوتها الآسر كما بريشتها الساحرة. ولم يكن الإبداع عندها مقتصرا على هذين المجالين فلقد كانت تنطلق في رقص مجنون وهستيري وتأتي حركات بارعة فيها اقتباس من رقصات أفراد القبائل الإفريقية.
كانت أثناء وقوفها للغناء أمام جمع من الطلاب تغادر صمتها وسكونها وتتقمص شخصية أخرى ثائرة وجريئة و صاخبة ومختلفة كل الاختلاف عن شخصيتها الانطوائية. و جعلها ذلك تكتسب عددا كبيرا من المعجبين بغنائها ورقصها في وقت قصير. و صارت تغني في الحفلات التي تنظمها الجامعة فتلألأ نجمها وأضحت الرسامة الموهوبة والمغنية البارعة التي يتودد لها جل الطلاب.

تسلل ضوء النهار خافتا من خلال الستائر إلى الغرفة الفسيحة وتناثر على مكتبة خشبية تراصت الكتب والمجلدات على رفوفها. جلس الدكتور حافظ على مقعد متحرك قبالة مكتبه يطالع ما خطت يداه وبعينيه الصغيرتين شعاع ماكر اخترق زجاج نظاراته الطبية الرقيقة وانصبَّ على مجموعة الأوراق بين يديه:

" أوّاهُ يا قلبي الباحث عن الخير المنشد للحب والإخاء !
أنشد ترانيم الحياة !
وغرد بشدو ندي ينثر العطر في الأرجاء !
ضاق صدري بتلك الأعباء !
هلُمّي يا روحي ! أخرجي كل مكنونك من الخفاء !
وبوئي به لينطلق إلى عالم النور والضياء !

ها أنا ذا متعب النفس مذبذب الهوى ملتاع الخواطر قد قررت أن أصغي إلى صوت نفسي،صوت صادح بداخلي، قادم من قرار يرتج بصليل الأسرار، ينذر بالانفجار في شوق مجهد إلى البوح. صوت يحتدم، ينشد الإصغاء. عطش النفس الباحثة عن الرضا، عن الاكتفاء، لواعج في الصدر، بروق في الفكر، كلها تبحث عن التجلي. لحظة البوح تاقت لصرخة الميلاد. حديث الروح تناهى إلى مسامع الواقع. همس الوجدان ينبئ بذوبان آهاتي.
الآلام المتلثمة في حنايا نفسي - تحرق سريرتي وتبطش براحتي - قررت أن تغادر، أن تخرج إلى أفق رحب، أن تسرق بعض الاهتمام، أن تنطلق إلى حيث تسمع وتقرأ و إلى حيث تُرى. آن للصمت أن يشهد انتحاره بعد أن صدع شغاف القلب المرهق، آن له أن ينتحر على مصقلة الصراحة و يبوح بالخبء المكنون.

الروح التي طالما تقلبت و تأودت تحت سياط الكتمان تتوق لعتق قريب. المعاني الجاثمة على صدري صارت تابوتا يحبس أنفاسي. قد حان الوقت لتطرح النفس الثائرة هواجسها. و أزفت اللحظة لتنطلق الروح الملائكية معبرة عن حبها للوجود وعشقها للذة الخلق، لتغني منشدة حقيقة ظلت لسنين تصرخ في حبس الكتمان.

دفق من المعاني المتأججة بداخلي تتحول إلى لحظات تاريخية. كل معنى كان حادثة يوما ما ستبرز وستمتاز وستتفرد حتى تتحدى العوائد البالية المهترئة و تعانق الكمال.

كم من الأيام سكتُّ أصارع أفكاري، أنشد الصمت حافظا لسري وكاتما لحديث نفسي؟ والآن آن لك أيها السيل العتيُّ أن تتدفق بكل قواك وتجتثَّ ضعفي ثم صمتي. ما عدت أرتاح لعزلك يا صوت نفسي. ما عدت أركن إليك يا وهني .

الآن اجمعي أيتها النفس كل بواعث قوتك !

بأُسم حبك للحياة ! بأُسم حبك للوجود ! بوحي برؤية تباعدت في خزائن الذاكرة والكتمان.لكنها أبدا لن تتآكل ولن يلوكها النسيان.

بوَحْي من شوقك يا نفسي ! غادري رقعة ضعفك وأُنزعي ثوب صمتك. قد آن لك أن تتحرري من عبودية الضعف والجبن والخوف.

الآن سأهتك ضعفك أيتها النفس وسأبوح بما خبأت في أغوار صدري وإن كنت لا أعلم ألحظة تيه وضعف قد جعلتني أفعل ما فعلت؟ أكيد أنها ليست لحظة انزلاق وتقهقر ولا زلة نفس وجنون ولا انفلات زمام. إنها لحظة مجد ورفعة دفعت بي إلى محاربة غياهب العدم و الاندثار، لحظة سعي إلى الكمال وإلى معانقة السرمد وإلى اختراق حدود الآدمية نحو التشبه بذات أزلية فيها كل صفات الكمال. ذات هي الإبداع في أكمل صوره. هي الجمال في أسمى معانيه. هي الخلق في أكمل وجوهه ذات تقادمت في أبعاد الزمان وتجلت آياتها في حدود

المكان والـ "لا مكان". إنها ذات المطلق والتفرد، أبدعت الذات الإنسانية في أكمل صورة وميزتها عن كل المخلوقات بالفكر. أفلا يحق لهذه الذات البشرية المتميزة أن تخرج يوما من دائرة ضعفها كمتقبل دائم لحكم الأقدار؟ وهل يحق لهذه الذات أن تصنع يوما تاريخها بملء إرادتها بأن تتشارك مع الذات العليا في رغبة الخلق؟

ألا أيتها الذات المتحكمة في مصائر البشر ! هل يمكن يوما أن نشاركك في الإيذان بالخلق وأن نستمع إلى الصوت القادم من أعماق ذاتنا؟ صوت كترانيم أغاني الأزل وكعزف تأودات الوتر، صوت هزة الشوق تنبعث من قرار حالم، غور نفس يحلم بالكمال والسعادة والمجد لأبناء البشر، هؤلاء الذين يستسلمون لحسم القدر. هل يحق لهم يوما أن يحيدوا عن مساره وجبروته المستتر؟ وهل جريمة أن نحاول رسم البسمة على شفاه المحتضر؟ وهل إثم أن ندخل ضوء الحياة إلى قلب بظلمة الموت قد غمر؟

استمرت سارة في تجاهل والديها وبعد نجاحها الفني ساعدتها العائدات المترتبة عن بيع لوحاتها وعن حفلاتها في تكريس هذه النزعة بيد أنها في سنواتها الأولى عولت كثيرا على ما كانا يرسلانه لها من حوالات ضخمة في تأمين مصاريفها وتنعمت بحياة مرفهة وقد بدا ذلك جليا في الجامعة التي انتسبت إليها والإقامة الجيدة التي حظيت بها.

ظل الوالدان بأرض الوطن يجتران مرارة فقدان السند مع أفول شبابهما وواصل توفيق إدارة أعماله وتجارته بمفرده مؤملا أن تعود البنت المغتربة يوما إلى أرضها وتستلم عنه إدارة ممتلكاته وواظب على زيارتها مع زوجته بأمريكا للاطمئنان عليها وتفقدها وكانت هي في المقابل تكره هذه الزيارات كمن يريد بتر نفسه عن ماض مؤلم وحزين.

كانت شهرتها في الغناء والرسم تشهد ازديادا مطردا. وأقامت الحفلات بحضور جموع كبيرة من المتفرجين وكانت أمتع لحظات الحياة عندها لحظات تقضيها فوق المسرح تمارس جنونها وتمردها فيهتز جسمها ويضطرب على وقع الموسيقى الصاخبة المرافقة لغنائها وأحيانا تمارس شطحاتها الغريبة على قطع "التوال" فتبدع لوحات جميلة لكنها مبهمة تطغى بها الألوان الحارة والغامقة وتندر بها الألوان الباردة فتبدو للناظر كحمم نارية تناثرت من فوهة بركان ثائر لتعلن في شموخ وتحد ثورة صاحبتها وجنوح نفسها ولتدركها العين كلحظة من لحظات هيج الوجدان وانفعاله باءت بما تجيش به سريرتها من اهتزازات النشوة وسكرة الروح وبالمثل بلغ الآذان المُشَنّفة لروائع الفن عند الاستماع لأغانيها المترعة سحرا وإبداعا صدى الغليان الذي يحتدم بداخلها.

أكتوبر 2001، سنتان مرّتا على استقرار البنت العربية السمراء بأمريكا ومن غريب أن هذه الفتاة التي عانت الاضطهاد ببلدها قد وجدت الأبواب مفتوحة على مصراعيها أمام ناظريها هنا ببلد الحريات فكلما ساهمت في أحد معارض الرسم كلما وجدت لوحاتها إقبالا تحسد عليه بل أكثر من ذلك فقد وجدت بين الصحفيين المهتمين بالمواهب من يرعى موهبتها، كأنها في حلم تخشى أن تصحو منه وقد جرت الأحداث معها مجرى النجاح ووجدت لها مكانا في المجتمع الفني بعد أن نشرت صورها بالعديد من الصحف الفنية الأمريكية. الآن فقط آن لها أن تتأكد أنها فعلت خيرا بنفسها المعذبة حينما قدمت إلى هذا البلد الذي احتضنها بحب وقدم لها الرعاية وتبنى موهبتها. هاهنا يمكن لها أن تكون ويمكن لذاتها التي طالما تعذبت بموطنها العربي أن تتجسد وان تتنسم هواء الحرية المحمل بعبير النجاح الذي لا ينسيها مشكلتها الجوهرية لكنه يظل ذا طعم جميل وله نكهة مسكرة تنقص من مرارة الخيبة.

في خلال سنتين صارت البنت اللاجئة نجمة لها اسم بين صفوف الفنانين بأرض أمريكا في حين أنها هناك في تونس لم تكن سوى لقيطة في بلد ينتمي إلى العالم الشرقي حيث تعشش الأفكار الرجعية المتزمتة، عشرة مليون تونسي يعتبرونها لقيطة، حكموا عليها بالفشل قبل أن تخطو خطواتها الأولى في الحياة، بل هي في نظرهم مشروع فاشل منذ برزت من رحم أمها بهذا اللون الأسود... هناك ما كان لها أن تفكر بذاتها أو بحياتها الشخصية أو المهنية...ما كان لها أن تحلم. خنقوا حلمها من قبل أن يتشكل أما هنا فأحلامها تتحقق من قبل أن تراودها...ترسم فتتجسد الألوان أمام ناظريها لوحات فنية تعبر عن شطحات وجدانها وهمسات روحها الشاذة...جل الصحفيين

الذين كتبوا عنها أثنوا على مواهبها. وفي الغناء لم تحسب يوما أن ترانيمها الشاذة ستتحول إلى شيء ذي بال يقبل على سماعها الشبان وحتى الكهول وكأنها تأتي سحرا.
لم تحلم يوما بالحرية المطلقة... ولعل حلمها بالحرية كان له معنى خاص مغاير لكل المعاني التي تحملها عقول الشابات من مثل سنها...أن تحلم بالخروج والسهر والفسح والرحلات والعلاقات الحرة لم يكن في جدول تفكيرها ربما لأن أحدا لم يمنعها من ذلك فلقد كانت حرة التصرف...حرة في الخروج وفي السهر وفي الغياب، لكن بأي وجدان كان لها أن تمارس تلك الحرية؟ كان عليها أن تحتسي حريتها كدواء مقيت لوجدان معذب وجريح ومحطم، وراءه ألف قيل وقال...كان عليها أن تزدرد حريتها وعقلها يختلج كعقل معتوه أو مجنون أطلق حرا لأن لا فائدة ترجى من أسره...تاهت مع حريتها كمن يهرب من مخالب دهر بغيض يتعقبه ولم يكن الدهر سوى أولئك الناس...أهلها وذويها وسكان حي النصر وسكان العاصمة والتونسيون بأسرهم فما من شك أن حكايتها كانت ستتعقبها حتى لو قررت الاستقرار بالساحل أو بالوطن القبلي أو بالشمال الغربي أو بالجنوب... بأية رقعة من وطنها، فالعقل الشرقي المتحجر كان يعجز عن إيجاد معنى للونها الغامق المناقض للون والديها...الحقيقة الواضحة هي أنها لقيطة...المرأة الشريفة، "البلدية الحرة" كلثوم بن زكري تحولت حال بزوغ هذا الرأس الأسود إلى إمراة ساقطة...لعلها طفرة أراد بها القدر سخرية من حمق البشر ومن ضعف تبصرهم ومن هشاشة إيمانهم... ذات مرة عبدت اليهود العجل الذهبي لان الهواء يحدث صفيرا حين يمر ببطنه المقعرة ولم يدركوا انه صفير الخواء وعبد الفراعنة الشمس لأنها تشرق فتتجلى في كبد السماء كبيرة ساطعة فتزيغ الأبصار...لقد احتاج الشرقيون دوما إلى أدلة ملموسة لصياغة حقائقهم ففكرهم غير قادر على التجريد...يشكو عوزا وفقرا في تمثل المجرد فينزاح إلى

تصديق الملموس والمحسوس في كل شيء لذلك فالضحك على ذقون الشرقيين والكذب عليهم أمر سهل جدا وهي اللعبة التي بدأت منذ آلاف السنين: حفنة من الدقيق وبضعة أغطية وبضع علب من البسكويت كفيلة بأن تجلب التصفيق الحار والهتافات الرنانة...اللعبة القديمة تستمر وقد مارسها الفراعنة ومن قبلهم الآشوريين والسومارببين...إنه الشرق العليل حيث تتكاثر الأفكار البالية وتنخر كيانه كالغرغرينا وإذا أردت أن تقنع فئة من أفراده برؤية جديدة أو بمفهوم علمي فهيهات أن يسمع لك أو أن يكون لرأيك قيمة طالما أنك لا تملك دليلا دامغا يثبت ذلك وطالما أن الأدلة المحسوسة تبرهن على عكسه.

أخذت الفتاة تتلمس طريقها نحو نجاح محقق وبدأت بعض الجهات تدعوها للغناء رسميا خارج أسوار الجامعة والحفلات الطلابية في ذلك الوقت اصطدمت سارة بشيء لم يكن في حسبانها ولا في حسبان غيرها لا من المهاجرين أمثالها ولا من أبناء البلد. لقد اهتزت نيويورك على وقعه بل إن أمريكا والعالم بأسره قد فوجئ بهذا الحدث ! 11سبتمبر2001لم يكن يوما عاديا في حياة سكان نيويورك !...شخص ما أو بضعة أشخاص تجرؤوا على الأسد فهاجموه في عرينه... ومن زاوية رؤية سارة شخص ما حارب أمريكا لأنها البلد الأكثر عدلا ونظاما في العالم.

لم يجر بتصورها أن تواكب الأحداث في ذلك اليوم من شقتها الواقعة بمنهاتن. لم تكن مولعة بالأخبار ولم تسع لتتبعها عبر القنوات التلفزية والصحف لكن الخبر غزاها دون استئذان. كان الأمر مرعبا في نظرها وحمل إلى وجدانها أحاسيس متضاربة لم تتمكن في ذلك الوقت من تحليلها. تابعت الخبر وعرفت حيثيات وقوعه فبلغ بها الاستياء أشده وهالها أن يفرز الشرق مثل تلك الفقاقيع التي تتصاعد إلى صفحته ثم تتفجر في أثير العالم لتنشر رذاذا ساما.

تسعة عشر قرصان من قراصنة الجو اختطفوا أربع طائرات، اختطفوها تباعا وأخرجوها عن وجهاتها المضبوطة ثم حطموا اثنتين منها على مبنى مركز التجارة العالمي "وورد ترد سنتر" في جزيرة منهاتن على بعد بضعة كيلومترات من مقر سكن سارة.

تم كل ذلك خلال ثمانية عشر دقيقة وما هي إلا ساعتين حتى تحول البرجان العالميان إلى كومة من الشظايا أما الطائرة الثالثة فقد تهشمت على مقر وزارة الدفاع الأمريكي وحطمت جزءا منه والرابعة كانت متجهة نحو البيت الأبيض "الكابتول" لكنها انتهت بالتحطم في حقل في" سومارست" في" بنسلفانيا" وقد نجم عن انهيار البرجين عدد كبير من الضحايا قدر بألفين

وتسعمائة وستة وثمانون ضحية بما في ذلك القائمون بهذه العمليات.
تردد أن الحركة الإسلامية "القاعدة" والتي يقودها الشيخ أسامة بن لادن قد تبنت هذه الأحداث العنيفة التي أدرجت ضمن الأحداث التاريخية الأكثر أهمية ودلالة منذ منتصف القرن التاسع عشر وقد أثرت في الولايات المتحدة على المستوى السياسي و الاقتصادي وعلى المستوى الاجتماعي والسلوكي كما أثرت بأطراف أخرى من العالم وأدت إلى وقوع تفاعلات كبيرة به فشكلت مادة ملهمة للمفكرين والفلاسفة وللفنانين والرسامين ولرجال اليسار واليمين وفكّر آخرون بأنه لو كان أولئك الضحايا الذين لا يتجاوزون الثلاث آلاف يستحقون البقاء بالذاكرة فإن ذلك يدعو إلى استنكار السكوت الإعلامي تجاه عشرات الآلاف من ضحايا الحروب كما هو الشأن في الحرب الأهلية بـ "رواندا" حيث المليون قتيل فقد كان عدد القتلى هناك يصل إلى العشرة آلاف يوميا وفي المقابل لم يحدث ذلك زوبعة إعلامية ولم تجر مظاهرات مماثلة لتلك التي حدثت عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر في السنة الواحدة والألفين.
وهناك بلدان شهدت اجتياحا من قبل قوّات الجيش الأمريكي فاستغلت هذه الأحداث لتستشعر نخوة انتصار معنوي على الامبريالية الأمريكية أما بالنسبة للولايات المتحدة فقد شكلت هذه الأحداث حافزا لشن حرب على الإرهاب في العالم فاندلعت حركة "باتريوت آكت" وجُنّدت القوى لمقاومة الجريمة المنظمة وتم العزم على الحد من الحريات الشخصية وعلى تكثيف التفتيش والمراقبة في المطارات ومثل هذه الإجراءات اتبعت في بلدان أخرى من العالم فكان مخطط "فيجي بيرات" بفرنسا.
مست أحداث ذلك اليوم اقتصاد الولايات المتحدة فوجد مئات الآلاف من "النيويوركيين" أنفسهم فريسة للفراغ والبطالة واختفت المئات من الشركات من الخريطة الاقتصادية

الأمريكية وعرف مردود الوكالات الجوية في ميدان البحث العلمي تراجعا هاما مرده الخوف من السماء التي عرفت تهويلا إعلاميا.

لقد اهتز العملاق الغير قابل للخدش بفعل فاعل وكان للإرهابيين كما أطلق عليهم العالم الغربي كلمتهم وصوتهم المسموع الذي يستطيعون أن يسمعوه لأي كان وفي أي مكان.

لم تكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر سوى تداعيات غير متوقعة من قبل امريكا لما كان قد نشب بين الأمريكيين والأفغان قبل خمس سنوات من أحداث انهيار البرجين، فقد طرحت مسألة الشيخ بن لادن مع بداية ظهور الموقف الدولي من حكومة "طالبان" الأفغانية وطرح "الملاّ" محمد عمر الموضوع على مجلس الشورى فقررت حماية بن لادن وجماعته واعتبارهم من المجاهدين وقرر المجتمع الدولي حصار أفغانستان من أجل تشكيل حكومة موسعة ومنح الحرية للأقليات وتشريكهم في الحكم وضمان حق المعتقد لهم وتمكين المرأة من التعلم بعد أن حرمتها حكومة طالبان من ذلك ومنحها قدرا من الحرية وحقا في الوظيفة والمساواة وتطبيق القوانين الدولية التي تضمن حقوق الإنسان والتي نادت بها الأمم المتحدة بما فيها فرع اليونسكو ورأت حكومة طالبان أن هذه المطالب ليست سوى غطاء للغاية الحقيقية لأمريكا وهي أن يتنازل الأفغان عن دينهم وان يتبعوا شرعتها مكتفين ببعض الشكليات من الدين الإسلامي فقرروا تبعا لذلك أن يرفضوا التحاور مع كل الأطراف التي رأوا أنها تريد رسم دين جديد لهم. ونشبت الحرب بين هؤلاء وأمريكا وكانت حربا غير معلنة ومن طرف واحد وهو أمريكا وكانت أطوارها قد بدأت قبل ثلاث سنوات من أحداث البرجين حيث حاصرت الولايات المتحدة أفغانستان حصارا كاملا مات على إثره عشرات الآلاف من الافغان كان أغلبهم من الفقراء والضعفاء والمرضى وخسرت الحكومة الأفغانية المليارات التي كانت كفيلة بالنهوض بالبلاد وإعادة الإنتعاشة لاقتصادها. ووقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي روجت أمريكا أنها من أعمال القاعدة بالاشتراك مع حكومة طالبان ونفت الأخيرة أن يكون لها ضلوع في الموضوع وظل موقف بن لادن يكتنفه الغموض واستنكر الطرفان المتهمان الانتفاضة الحاصلة من

قبل أمريكا جراء فقدان ثلاثة آلاف شخص في مواجهة لا مبالاتها أمام موت عشرات الآلاف من الأفغان نتيجة للحصار ونتيجة التفجيرات بصواريخ "كروز" واستهجن آخرون من صحفيين وإعلاميين عرب سياسة أمريكا بعد انهيار البرجين خاصة أولئك الذين تضرروا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من نتائجها كالفلسطينيين الذين عانوا من انحياز الأمريكيين الواضح لإسرائيل والعراقيين الذين كانوا وقتها يرزحون تحت وطأة حصار اقتصادي شديد دام عشر سنوات وظن كثيرون أن تفجير البرجين كان مدبرا من قبل أعلى نقطة في السياسة الأمريكية لتبرير الحروب المدبرة ضد بلدان الشرق ذاكرين ما حصل قبل أن تدخل أمريكا الحرب مع قوات حلف الأطلسي ضد المحور في الحرب العالمية الثانية وتحديدا اليابان فقد ذكر أحدهم أن أمريكا استدرجت اليابان لمهاجمة قواعدها العسكرية وكانت المخابرات الأمريكية على علم بتفاصيل الهجوم غير أنها تكتمت حتى يثبت الرئيس الأمريكي آنذاك صحة وجهة نظره أمام معارضيه من مجلس الشيوخ فتصير الحرب على اليابان قضية وطنية ومسألة دفاع عن الحرمات .

لقد أثبتت أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن الدم الأمريكي أغلى بكثير من الدم الأفغاني والفلسطيني و العراقي ونظرت أمريكا إلى الشرق نظرات وحش لا يرى سوى ما يشبع نهمه والنفط هو ما يشبع نهم أمريكا فتهون من اجله دماء العرب والمسلمين...

النفط هو الذي يخول لها السيطرة على العالم ويضمن لها القوة الاقتصادية التي تمكنها من فرض هيمنتها على العالم. وكان يتوجب عليها أن تنشئ قاعدة عسكرية في قلب الشرق تساعدها في تحقيق آمالها ولم تكن هذه القاعدة سوى إسرائيل التي زرعتها بالشرق الأوسط ومن الناحية الدينية كان بعزم أمريكا أن تحارب الدين الإسلامي خاصة بعد أحداث البرجين فقد رأت فيه دينا يشجع على الإرهاب بل جزمت أنه يدفع إليه

دفعا فبدأت حملتها الشعواء على هذه العقيدة وأسمتها بأسماء مختلفة هي حرب على الإرهاب وهي حرب على الاستبداد وهي حرب في سبيل الديمقراطية وهي حرب على أسلحة الدمار الشامل وأحيانا كانت زلات اللسان تكشف عن حقيقة تلك الحرب وهي "حرب المسيحية الجديدة على الإسلام".
رفضت أن تصرح بحقيقة هذه الحرب حتى لا تقوض ما بنته في عدة قرون، حتى لا تقوض الديمقراطية القائمة على الدستور العلماني الذي يفصل بين الدين والدولة فهي ترفض أن تبدو أمام العالم متناقضة مع نفسها فتكون من ناحية متنصرة للمسيحية تقوم بحروب صليبية جديدة وتغنم من ورائها الثروات ومن ناحية أخرى تتغنى بلائكية دستورها غير أن العالم الخارجي اكتشف كل الحقائق الخفية في حرب أمريكا على عدة أقطار وظلت هي تموه حتى تتفادى المعارضة من قبل مواطنيها...
فبعد 11سبتمبر 2001أصدر الرئيس الأمريكي "جورج بوش" أمرا عسكريا رئاسيا يعلن فيه انه ستتم محاكمة الأسرى من "ارهابيي" تنظيم القاعدة من قبل لجان عسكرية خاصة متحررة من القيود المفروضة على المحاكم المدنية وأعلن أنه لن يتم التعامل مع هؤلاء كأسرى حرب بل كمقاتلين خارجين عن القانون وقد تم استجوابهم بوسائل متعددة من التعذيب والتنكيل الجسدي و زعم الجنرال "بوكين" أن أسرى "غوانتانامو" يستحقون أن يعاملوا كالهمجيين والوحوش البرية.
لم يخلد بذهن بوش حين سمى هؤلاء بالمعتقلين الخارجين عن القانون أنه بذلك يسجل تراجع أمريكا عن المعايير الدستورية الأمريكية وعن قيم حركة التنوير لأن الديمقراطية لا تتجزأ والحرية أيضا لا تتجزأ...
وبدأت أمريكا حملتها المعلنة على أفغانستان إثر قرار من مجلس الأمن بعد أن طالبتها بتسليم بن لادن وأنزلت أعدادا

كبيرة من جيشها على أراض متاخمة للتراب الأفغاني تساندها في ذلك الحكومة الباكستانية التي أظهرت ولاء كبيرا لها فنكلت بالمدنيين الأبرياء في تفجيرات مريعة بواسطة صواريخ متطورة ومحرمة دوليا وقنابل يبلغ وزنها النصف طن وأحيانا يتجاوزه وطائرات B52التي كانت تنطلق من بريطانيا لتسقط قنابلها على الأهالي الأفغانيين الذين كانوا عزلا وكان بعضهم يعتمد أسلحة بسيطة هي عبارة عن بنادق وفي أحسن الأحوال رشاشات.

كل هذه الأحداث كانت تدور بينما سارة غارقة في جنونها أو هي تتعقب خطى جنوحها في هلوستها التي اعتبرها من حولها فنا ساميا ونتيجة لذلك لم تتأثر بالموجة التي اكتسحت أمريكا بعد أحداث سبتمبر 2001. لقد كانت موجة عارمة من العنصرية تجاه العرب والمسلمين وظلت سارة منغلقة في شرنقتها لا تغادرها، تلك الشرنقة التي أحاطت بها كسراب يظلل عينيها عن رؤية الحقائق ولم يكن من العجيب أن لا تلقي سارة بالا إلى العنصرية والتعصب الذي يعاني منه المسلمون والعرب في أمريكا فهي قد حاولت قدر الإمكان التنصل من أصلها الشرقي والعربي أما الدين فلم يتخط يوما عتبة أفكارها أو وجدانها ولم تسأل نفسها يوما : هل تعتبر نفسها مسلمة أم مسيحية أم شيوعية؟

لم يجل بخاطرها يوما أن تنساق في عبادة أو صلاة أو تذرع فالخوف على المصالح والنفس أمور لم تراودها ولم تسأل نفسها هل تكفر بالله أم هل أن وجوده ملغى من قلبها وفكرها. كل ما يبلغ وعيها هو بصيص من نور ينصب على آثارها فيصوغ لها فلسفة غير واعية وقوامها الفعل. الفعل وحده تدرك من خلاله وجود ذاتها. ولعله وإن لم تدر ليس سوى الفعل الغير واع. لعلها تصحو من سكراتها فتلقي نظرا زائغا على ما خلفته بصوتها وأناملها فتنتشي نشوة ثملة تتحسس بها روحها الشاردة ثم تعود لشطحات خيالها و تَصَوّف روحها بمعبد الفن

والألم ولعل بعضهم ينعتها بالوجودية لكنها تنكر ذلك لأنها ببساطة لم تختر لنفسها نهجا فكريا ولا نهجا دينيا ولا حتى نهجا سياسيا هي الراهبة دون وعي منها وهي الملحدة وهي المؤمنة وهي الوجودية وهي المتصوفة وهي المناهضة للعنصرية هي كل ذلك وهي غير ذلك لان فكرها أبدا يستعبده الشرود ويطوحه الهذيان...ولم تدر بكل ما يدور حولها من أحداث سياسية هامة حيث أصدر مجلس الأمن بعد سنة من حرب أمريكا المعلنة على أفغانستان قراره الثاني باجتياح بلد آخر من بلدان الشرق ودارت الدائرة على العراق التي اتهمت بحيازتها لأسلحة الدمار الشامل وحشدت أمريكا جيوشا (القوات المتعددة الجنسيات) وكانت متألفة أساسا من "المارينز"الامريكان وآلاف من جند بريطانيا وأستراليا وايطاليا وأسبانيا وبولونيا وبدأت الجيوش تتوغل في الأراضي العراقية من ناحية الجنوب عابرة من الكويت التي كانت تساند هذا الاكتساح ومن بحر العرب عبر ميناء "أم قصر"وكان ذلك في 20 مارس من سنة2003وبعد ثلاثة أسابيع من المقاومة انهار النظام في العراق ودخلت قوات الاحتلال بغداد دون أن تعترضها أية مقاومة تذكر وكانت تلك نهاية مفاجئة لحرب توقع لها الكثيرون أن تطول على مشارف بغداد وكان الاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق وتم هدم تماثيل "صدام حسين" من الحدائق العامة ومن مراكز المدن وعمت الفوضى بشوارع العراق وتعالى الصياح والهرج ونهبت المتاحف والقصور وكثرت عمليات السطو والشغب و تصاعدت الأصوات من صفوف الشعب بين مندد بالاحتلال وبين مساند له وقد استغلت أمريكا رغبة الأقليات المضطهدة في عهد صدام حسين في الاستقلال أو المشاركة في الحكم لصالحها من ذلك الأكراد وتم تعيين حكومة موالية للاحتلال كما هو الشأن في أفغانستان كما تم تقديم الرئيس المسقط ليحاكم من قبل محكمة تحت إشراف حكومة الاحتلال.

حرصت فرنسا وروسيا وألمانيا في قمة "سان بيطرسبورغ" على أن يكون للأمم المتحدة دور هام في إعادة إعمار العراق وفي إدارته فيما بعد سقوط النظام وكانت هذه الدول قد عارضت بشدة قيام أمريكا باجتياح العراق وخاصة فرنسا.

كرس هذا العدوان ضعف "جهاز الأمم المتحدة وهامشية دوره وأكد فشل الجامعة العربية كليا خاصة أن العديد من الدول العربية قامت بتوفير الأرض والأجواء والممرات للجيوش التي احتلت العراق وفي المقابل اهتز الشارع العربي الذي عاش هول الصدمة وتأثر لموت المدنيين من أطفال وشيوخ وشبان ونساء بقنابل عنقودية وأسلحة محرمة دوليا وعبر عن غضبه فخرج الآلاف يوميا في مظاهرات كبيرة تندد بالعدوان وتطالب بفتح الحدود المفضية إلى العراق للجهاد وتمكن خمسة آلاف عربي من ولوج العراق للمقاومة وكانت شعوب المغرب العربي في مقدمة الشعوب المناهضة للاحتلال واندفع العديد من رجالها إلى أرض بابل للمقاومة.

جلس توفيق يرشف قهوة" كابوسان" ساخنة بمقهى باريس المطل على شارع الحبيب بورقيبة بتونس العاصمة وكانت عيناه سابحتان في حشود المارة المتدفقة بالشارع الواسع الأنيق...... الذي بللته الأمطار وقد توقفت لتوها عن الهطول مخلفة رذاذا خفيفا لا يكاد يرى وقد اختلط ببرودة الهواء .... السيارات تسري سريان الدم في العروق و العمارات الجميلة والكنيسة ونزل "أفريكا" الفخم قابعة كلها على جانبي الطريق في هدوء لا تبالي رذاذ المطر... الضوء الخافت الشفاف يسبغ جلالا على المكان وعلى الوجوه بما فيها وجهه الذي كان قريبا من جدار المقهى البلوري الذي عتمه بخارالماء ...غاصت عيناه في المشهد تلتهمان عناصره في حين حفرت الشكوك القديمة برأسه بؤرا سوداء. على المنضدة المجاورة جلس شاب يرشف قهوة"ديراكت" ويطالع صحيفة الشروق المحلية. وضع الصحيفة على الطاولة فقرأت العينان السماويتان عنوانا لمقال:" الأمانة العامة للأمم المتحدة تحث جميع الدول على المصادقة على اتفاقية حظر الأسلحة الكيميائية".

أشاح بوجهه عن الصحيفة وعاد يتطلع إلى الشارع الفسيح الجميل بأشجاره الجديدة المستجلبة من الخارج... المسلة التي تحمل الساعة الكبيرة منتصبة قبالته في صلابة فجة تتحدى شكوكه وتتحدى يقينه...تتحدى الحقيقة وكل الحقائق بحياته...الأقدام والأجسام والوجوه تتحرك على الأرصفة المبللة مسرعة أو تعبر الشارع دون أن تلتفت إلى الخلف تمضي كأنما تلاحق مستقبلا مرسوما بريشة من ذهب... أتسعد الحياة بزخمها هؤلاء؟ أم أنها في الحقيقة تشقيهم وقد شقوا طريقهم يمتطون متنها الذي يشبه ظهر عجوز تضمر الغدر في ابتسامها... يسيرون يعيشون لحظة حاضرة ويركضون وراء أمل باد في أفقهم، أطفال و شبان وكهول وحتى المسنين، كلهم صاغوا لسفينتهم العتيقة ـ هذه الغادرةـ

معنى ورسموا لها صورة تناسب أهواءهم فيهم من رآها حكاية تروى وفيهم من تجسدت له امرأة جميلة تستحق عناء الركض وراءها ومنهم من تراءت له جبلا وعرا و شاهقا منتصبا بطريقه وقد توجب عليه صعوده لبلوغ قمته ولرؤية آفاق رحبة قد حجبها بضخامته. وفئة أخرى تستعذبها وتعتبرها لحنا يُعزف فيطرب الأسماع ويونق القلوب .

يتوهم هؤلاء أنهم عرفوا هذه العجوز التي تتلون وتتنكر وتخدع عشاقها فيعتقد من نظر إليها أنه قد استطاع أن يكشف حقيقتها أو ربما أبهرته أشعتها البراقة فاعتقد واهما أنه أدرك جوهرها غير انه لم يطالع سوى الزيف و القشور أما جوهرها الفعلي القابع في أعماقها وهي اللعوب فلا يدركه سوى أصحاب الأرواح الشفافة النفيسة المعدن ذات الإدراك النافذ الذي لا ينخدع بالمظاهر و يستطيع تعرية الحقائق وهي هبة من الطبيعة ظننت بها على أكثر الخلق. سأل نفسه: " هل أنا من ضمن هؤلاء المخدوعين أم أن آلامي قد سمت بي فرفعتني إلى صفوف أصحاب الجوهر الماسي المشع القادر على كشف حقيقة هذه الحياة وهل أظنني قادرا على تفهم معانيها؟ ولعل باطني يكون عاتما فتبتلعني هذه الحياة وتجرني في قلب رحاها التي لا تهدأ. إنها تتراءى لي إعصارا قويا يقتلع كل شيء يعترض طريقه فيدخله في دوامته حينا من الزمن الكفيل بأن يحيي النسيان في قلب بشري ثم يلقي به في نهاية المطاف ليتكسر ويتهشم وليعيش الاغتراب بقلبه الذي انطفأت به شعلة الأمل ونفسه التي شوهها النسيان، نسيان واجبها المقدس في البحث عن الجوهر. ما أقسى هذه الحياة الإعصار، يلهينا عنه به ثم يشوهنا ويسخر منا !

مد يده إلى الطاولة فتناول شك المفاتيح وهاتفه الجوال، التفت حوله ثم نادى النادل فنقده أجرة القهوة وهب واقفا ثم اتجه نحو باب المقهى يتعثر بين المناضد الكثيرة وخرج إلى الشارع الرحب تسبقه هواجسه وأفكاره. مشى لبرهة من الزمن ثم

انعطف عبر ممر واسع بين عمارتين إلى شارع مواز للـ"آفيني" فوجد سيارته "الباسات" رابضة فاستقلها و عاد يقودها في شارع ال"آفيني" واندس في شرايين المدينة الكبيرة قاصدا حي النصر.

وضعت كلثوم فنجان القهوة الساخن على منضدة صغيرة قريبة منها ثم بادرت بتصفح صحيفة أمريكية تلقتها للتو بلهفة شديدة. توقفت عند صورة حبيبة إلى قلبها. إنها الحلم الشارد، الطائر الذي غرد بعيدا عن السرب، العيون الحالمة بالحرية والسعادة والناضحة شعاعا شرقيا يخلب الألباب، إنها سارة. دققت المرأة في الصورة جيدا، كانت تمسك مصدحا وقد اُنفرج ثغرها وأرسلت عيناها نظرة ناعسة بينما أظهرت حركة جسمها ما ينتابها من تفاعل مع الأنغام الموسيقية.

كان جليا أن سارة تعشق الغناء فلقد حدثّت عيناها بذلك، حدثت أن النغم يصدر عنها إبداعا جميلا ثم يعود ليخترقها حتى النخاع ولتشربه حتى الثمالة.

تسارعت نبضات قلب المرأة حينما رأت ما كتب بجانب الصورة:

"سارة يمامة سمراء قدمت من بلد عربي لتعزف على أوتار الإبداع. جاءت لتدرس الرسم فإذا بها تحلق في آفاق من الجمال وتثري المخزون العالمي بلوحات تشكلت من أساطير الشرق ونسائم الغرب الجانحة. إنها طيف سابح في عالم الألوان وهي أيضا تغريد من دنيا السحر والهذيان فلقد أشجت النفوس وأطربت الأسماع بصوتها المتفرد وخلبت الأنظار وأمتعت عشاق الفن برقصاتها النارية على الركح وقد أضحت بحق رمزا دالا على صلابة الإرادة، إرادة جبارة لسوداء ستتشكل على المدى البعيد مصدر إلهام لأمثالها من السود "

قرأت كلثوم الكلمات المكتوبة عدة مرات بعيون دامعة وقلب خافق، يرفرف بين جنبيها، يكاد يمزق ضلوعها وجدا وتأثرا. في تلك اللحظة دخل توفيق غرفة الجلوس فجلب انتباهه منظر

زوجته وقد أمسكت بالصحيفة الأجنبية. خلع معطفه وعلقه في حمالة الثياب بمدخل القاعة وسار نحو كلثوم بخطى سريعة وقال في الأثناء: ـ عاد المطر للهطول

فقالت كلثوم وعينيها مسمرتين على الصحيفة:

ـ في كل سنة يكون شهر ديسمبر ممطرا وباردا جدا وعسى أن تقبل علينا سنة 2005 ببعض الدفء.

قال وهو يفرك يديه ببعضهما البعض:

ـ الدفء في شهر جانفي أمر بعيد الاحتمال

اقترب منها في مجلسها على الأريكة في الصالة الفسيحة الأرجاء وأردف:

ـ هل هو مقال عن سارة؟

رفعت كلثوم رأسها وأومأت إليه محركة حاجبيها لتؤيد كلامه. فأضاف على الفور:

ـ ناوليني الصحيفة لأطّلّع عليه !

جلس حذوها فأدنت له ما بيديها وجالت عيناه بسرعة بين السطور. نطقت كلثوم بلسان فرح غامر:

ـ أليس هذا رائعا ؟

رد توفيق:

ـ هذا رائع فعلا.

أعقب قوله ببرهة من الصمت ثم قال بصوت قلق:

ـ المشكلة أن الجميع هناك يعتبرونها من السود !

ردت كلثوم:

ـ لا غرابة في ذلك فلون بشرة المرء يحدد عرقه. و لا أعتقد أن ذلك يزعجها.

توقفت المرأة عن الكلام لترسل نظرة زائغة ثم أضافت:

ـ أتفهم شعورها.

وفاضت عيناها دمعا حالما أنهت العبارتين في حين سكت توفيق وقد ضيق عينيه وقطب جبينه كأنما تجرع دواء بطعم الحنضل.

أضافت كلثوم محاولة تغيير مسار الحديث:

- سيّان الآن إن كانت من البيض أم من السود. المهم أنها قهرت ضعفها وأثبتت وجودها فلا أحد كان يتصور أن الفتاة التي عاشت طفولة استثنائية ستحقق شهرة في بلد كأمريكا.

قال توفيق وهو يغتصب ابتسامة من سحنة وجهه الحزينة:

- لقد حققت نجاحا فنيا باهرا ولعلها الآن أهدأ بالا.

أطلقت كلثوم صوتا كالمناجاة بينما تجلت بعينيها معاني الشكر:

- إنها العدالة الإلهية يا توفيق. لقد عوضها الله عن كل ذلك العذاب الذي رأته في طفولتها.

قال توفيق:

- مؤكد أنها الحكمة الالهية. لكن مسألة اعتبارها نائبة عن السود؟؟

وكعادتها حاولت كلثوم أن تخفف عن زوجها وطأة ما يحس به:

- لا تجعل ذلك الأمر ينغص فرحتنا. يجب أن نتقبل أنها سوداء.

وقد كانت كلثوم محقة فيما ذهبت إليه فسارة أحبت أن يسود ظن عند الناس وعند عشاق فنها بأنها ذات أصول سوداء وأحبت السود ونفرت من البيض خاصة منهم التونسيون والعرب وتعاطفت مع زنوج نيويورك وحاولت أن تقترب منهم رغم كرهها للحياة الاجتماعية فارتادت بعض الأحياء التي عرفت بغالبية سوداء مثل حي "هارلام" الفقير بشمال جزيرة "منهاتن" واعتقدت دوما أن قيمة الإنسان الحقيقية لا تتحدد بلون بشرته وأن الجمال لا ينحصر في الجلدة البيضاء التي قد تخفي وراءها وحشا يستمتع بإيذاء غيره.

كان ذلك ما تردده سارة في نفسها وفي حالات وعيها أما ما تعتمده دون وعي منها فهو نظرية أخرى عن الجمال. نظرية حدسية تنفي الجمال عن المادة التي تغلف روح الإنسان لتنفرد به النفس حين تتمرد على الواقع وفي رحلة تمردها عليه تكون معه علاقة تبادلية فتُحْدث طريقتها الخاصة في تمثله وفي الآن

ذاته تنصهر بداخله فتتحول من عنصر شاذ ومختلف عنه إلى عنصر ملتحم به يمتص تفاصيله وملامحه ليفرغها في مرحلة لاحقة في صورة جديدة وتشكيل مبدع كنفحات من الألم الباطني للذات، هذه النفحات التي تفتن الآخر لأنها مستمدة من الأعماق.

الغرابة كانت السمة المميزة لحياة سارة والعزلة حالة غالبة عليها في جل أوقاتها وحين تلتقي بالناس كانت تلجأ إلى الصمت الذي كان ملاذها من صخب تزدريه وحديث تغلب عليه التفاهة يدور بين الحاضرين بـ "استوديوهات تسجيل الأغاني أوحين تصوير لقطات الفيديو. ورغم صمتها الظاهر إلا أنها لم تهدأ على حال أو وتيرة في كل أمورها اليومية ولم يعرف الروتين طريقا إلى سلوكها ولا إلى مظهرها الذي دأبت على تغييره حتى تجلت به أهواؤها الشاذة فلم تعمد كغيرها إلى إتباع الموضة ولم تسع إلى إظهار جمالها فحافظت على شكل متغير يعبر على تشويش صاحبته وجنونها والغريب أن ذلك كان يزيد من عدد محبيها بيد أنه لم يستطع أحد من المحيطين بها أن يثير اهتمامها أو أن يجعلها تغادر شرنقتها لتقيم معه علاقة غرامية فكانت بحق راهبة رغم كل التمرد الذي لف حياتها، راهبة لم ترغب يوما في الاستقامة والورع بل تلك كانت رغبة القدر، قدر جعلها تنقم على كل علاقة بين أنثى وذكر ورسخ بذهنها عقدة مرسومة بمداد أسود نشر حجابا مظلما على رغباتها وقتل حاجتها الطبيعية إلى الرجل كمكمل لكيان الأنثى،إنه حجاب مظلم لم يكشف لها شيئا غير عقدة الألوان التي ما فتأت تسيطر عليها وتعميها عن أن تتخذ صديقا أو أن تتزوج خشية أن تنجب مولودا تتكرر فيه المأساة ويرث عقدتها التي رجح عقلها الباطن أن يطمرها في غياهب كبته فظلت علاقتها بالجنس الخشن محدودة ولم تتخطَّ عتبة المصالح الخاصة بفنها. وازدادت الهوة بأعماقها سوادا وازداد تباعا خوفها من ولوج ذلك السواد المفزع. ولم تكن كل تلك التفاعلات بنفسها بادية للعيان فحاول بعض الرجال تخطي الخط الأحمر الذي رسمته حول نفسها وحاولوا هتك عزلتها والوصول إلى كسر الجدار المقام بينها وبين عالم الحب والرغبة لكن الفشل كان النتيجة المتكررة في كل مرة واستغرب الجميع ذلك الصد وكان السؤال الذي يطرح نفسه

في كل مرة هل ما تزال هذه المرأة المغتربة والفنانة المتحررة عذراء تقدس العفة؟ نعتها بعضهم بالتعصب وبأنها لا تزال أسيرة لمبادئ الشرق المتزمت الذي تنحدر منه. لكن أحدا لم يكن يعلم بأن السبب وراء ذلك هو الظلال الكئيبة التي خلفتها بداخلها جروح غائرة لسياط الدهر. وأحد ما كان يعلم بما عانته في طفولتها من آلام وأحزان. عانت في الماضي وتعاني اليوم من استفحال عقدتها وتلاعبها بمصير حياتها لكنها تقف عاجزة وهي في أوج قوتها وشهرتها كما وقفت ذات يوم موقف فريسة مستكينة تجاه شكوكها وهواجسها ووصل بها الأمر أن نقمت على زواج والديها وكرهته كرها شديدا لأنه أثمر ثمرة غريبة حامضة لا أحد استساغها أما الآن وهي تعيش بأمريكا فقد أسدلت ستائر غامقة كلونها على ماضيها المؤلم لتخفي حقيقتها عن كل من حولها وادعت أنها سوداء الأصل وأن توفيق وكلثوم هما صديقا والديها العجوزين الأسودين يتوليان زيارتها من حين لآخر عوضا عنهما.

كان كل هذا الغموض يلف حياتها المتقلبة حتى أنها لم تفكر في استثمار المال الذي تجمع لديها من عائدات لوحاتها وغنائها في كسب العقارات مثل جل الفنانين والمغنين بل ظلت لسنوات تقطن تلك الشقة الصغيرة الواقعة في شارع "برودواي" بين "تايمز سكوير" و"سنترال بارك" وقد تسوغتها عند استقرارها ب"نيويورك".

نصحها أحد المحيطين بها ذات مرة باقتناء منزل يليق بوضعها الجديد. ولم يكن من عادتها الامتثال لنصح الآخرين لكنها استحسنت الفكرة وبعد فترة من البحث تم العثور على منزل جميل بـ"منهاتن" غير بعيد عن شقتها القديمة يستجيب لذوقها الشاذ من حيث طرافة هندسته فأقدمت على شرائه في صيف سنة 2005دون تردد حين لمست الغرابة الطاغية على شكله.

كان هذا المنزل من تصميم مهندس معماري تميزت رسومه الهندسية بالطرافة والتجديد فشذ عن المألوف متحديا المفاهيم والمقاييس التقليدية للبناء مما جعله يعجب سارة ويصادف هوى بنفسها بل وجدت في طرافته تناغما مع أصداء نفسها المتمردة.

كان بالمنزل نوافذ غريبة الشكل وواجهة متميزة وهو يتكون من ثلاثة طوابق ينقسم سقف كل واحد منها في المنتصف فيرتفع أحد الأجزاء عن الآخر ليشكل ما يشبه انكسار طبقات أرضية بفعل زلزال وقامت سارة بإحداث إضافات عديدة على ذلك المنزل فأسبغت عليه نفحات من روحها وبثت فيه البعض من اختلاجات عقلها وإرهاصاته فغيرت طلاءه من الأبيض والزهري إلى طلاء فاقع بلونين متضاربين هما البني والبرتقالي اللذان أبرزا أجزاء المنزل المتباينة بفعل الانكسار المقصود في سقوف الطوابق. وزادت سارة من إغراق منزلها في السحر والغموض حين استضاءت بأهواء جنونها في تأثيثه فعمدت إلى بث عدد كبير من الأصص و بها نباتات زينة غريبة المنظر وشجيرات شوكية تذكر بصحاري "أريزونا" الأمريكية وفرشت أرضيته بجلود النمور والحمير الوحشية وملأت مطبخه بالأواني النحاسية والجرار الفخارية المستقدمة من الهند ومن بلدان افريقية وغطت درابزين السلالم الحلزونية المفضية إلى طابقيه العلويين بنباتات متسلقة حتى بدت كعريش أخضر أما قطع الأثاث التي استخدمتها في تأثيثه فتكمن غرابتها في بساطتها الشديدة إلى حد التقشف. فقد وضعت ببهو الطابق الأرضي الواسع والذي يمثل مدخل البيت قطعا من الأثاث الخشبي الذي يعبر عن موضة السبعينات ووضعت طاولة قديمة من خشب "البلنز" بالمطبخ الواقع خلف السلالم الحلزونية والذي يفضي إلى "فيراندا" طريفة الشكل تفضي بدورها إلى البهو المجاور. ومن البهو يمتد رواق قصير ضيق غطت جدرانه بمرايا غريبة تغير شكل الإنسان الواقف أمامها

ليصير أشبه بوحش أو بكائن مضحك، ويؤدي هذا الرواق إلى غرفة جميلة بها نافذتين قللت سارة من شأنها بأن وضعت بها سريرا متواضعا لشخصين وخزانة خشبية صغيرة وقديمة وطاولة زينة حقيرة الشكل. أما البهو الواقع بالطابق الأول فقد وضعت به صالونا من الخيزران يتكون من ثلاث أرائك كبيرة تتوسطها منضدة صغيرة هي عبارة عن جزء من جذع شجرة كبيرة وزينت القاعة بمنحوتات خشبية حافظ ناحتوها على آثار الطبيعة فيها من قشور وأغصان ناتئة. وغير بعيد عن هذه الصالة وضعت طاولة كبيرة من الخيزران محاطة بكراسي خشبية قديمة لتستعمل كسفرة وأحيانا كانت تضع عليها حامل الرسم. ويفضي البهو إلى غرفة كبيرة ترتفع قليلا عنه بفعل تفاوت ارتفاع السقف وبها نافذة تطل على "الفيراندا" الخلفية وأخرى تطل على الحديقة الصغيرة الأمامية. بدت الغرفة جميلة وحسنة الإضاءة والتهوئة والأصلح بين الغرف لتكون مخدعا لسارة لكنها فضلت أن تجعل منها غرفة مكتب فوضعت بها مكتبا فولاذيا كبيرا وهجين الشكل ومجموعة من الكراسي والأرائك المبعثرة هنا وهناك بغير عناية ولا تنظيم. وبالطابق الثاني كان هناك ثلاث غرف يفضي إليها رواق واقع على يمينها ويوصل إلى السلم بالجهة الغربية. كان الرواق يرتفع بدرجتين من الناحية الشرقية ويؤدي إلى أعلى غرفة بالبيت وأكثرها انعزالا عن الأخريات خيرت سارة أن تجعلها غرفة نومها لأنها تعشق الأماكن المنزوية فأثثتها بسرير كبير ومتواضع من الخيزران وخزانة متوسطة الحجم من الخشب القديم المغلف وطاولة تسريح بسيطة عليها مرآة مستطيلة منفصلة عنها يقابلها مقعد بسيط يتكون من ثلاث ألواح خشبية ثبتت إلى بعضها البعض لتبدو على شكل حرف " u"مقلوب. أما القاعة الوسطى فقد جعلت منها مرسما أثثته بمقاعد خشبية وبحامل الرسم وبمناضد وخزائن صغيرة خصصتها لوضع لوازم الرسم. وكانت الغرفة الواقعة من الناحية الغربية الأكثر

حظا بين غرف المنزل من حيث العناية وفخامة الأثاث الموضوع بها فقد جعلتها لإقامة والديها حين زيارتهما لها فوضعت بها سريرا فاخرا وخزانة كبيرة ممتدة على عرض الحائط من خشب الأبنوس المنقوش. وجهزتها بثريا كبيرة من الكريستال تدلت من سقفها في شكل بديع أضفى رونقا على الغرفة ذات الستائر الحريرية المختلفة عن كل ستائر البيت إذ كانت الأخرى من قماش خشن داكن اللون.

كان الداخل إلى المنزل يلمس غرابة ذوق صاحبته وشذوذه عن المألوف كما يلاحظ دون عناء بساطة أثاثه التي تصل إلى حد الوضاعة أحيانا.

لم تكتف سارة بكل هذه الغرابة في منزلها بل ظلت طوال السنين الأولى التي مضت على شرائه تبدل فيه وتغير من بعض تفاصيله كما يحلو لها وكما يعن لفكرها الغريب أن يملي عليها فجنحت بها أفكارها و أوحت لها بصور خرافية لأجزاء منزلها سعت إلى تنفيذها بكل جدية وحزم دون أن تخشى عواقبها على جماله أو على سلامة بنائه.

دعت مرة مهندس ديكور أُشتهر بمهارته وطلبت منه أن يحدث حديقة ببهو الطابق الأرضي المسقوف وكان مطلبها عسيرا إلى حد الاستحالة لأن البهو واقع تحت الطابق الأول والثاني إضافة إلى أنها لم تطلب حديقة عادية متكونة من نباتات زينة و ورود بل طمحت إلى حديقة بها أشجار عملاقة وأخرى شوكية ولم تتراجع عن فكرتها حتى بعد أن نبهها المهندس إلى استحالة الأمر نظرا لأن المكان مغلق ولا ينفذ إليه نور الشمس، كما أن الأشجار ستتجاوز الطابق الأرضي بطولها الفارع وقد تبلغ السطح.

و كان لسارة رأيها المختلف فقد قالت أنها لا ترى مانعا في فتح ثقوب متوازية في السقوف. عند ذلك استجاب المهندس لمطلبها وشرع مع عماله في تنفيذ تلك الفكرة المجنونة واستقدم آلة حديثة استعملها في ثقب الإسمنت المسلح. بعد ذلك تتطلب

الأمر وقتا طويلا لترميم الشروخ الحاصلة جراء عملية الثقب.التي كانت على شكل غيمة لتستجيب لرغبة صاحبة المنزل. ثم جيئ بالشجر العملاق واستغرقت غراسته والعناية به وقتا طويلا حتى مد جذوره في الأرض وبدت عليه علامات الحياة مخترقا سقف البهوين في الطابق الأرضي والطابق الأول وسقف الرواق في الطابق الثاني وتم تسييج هذه الثقوب الثلاثة بدرابزين خشبية ذات تفاريج جميلة وصار الجالس بأحد القاعات الثلاث التي تخترقها الحديقة يشرف على تلك الأشجار الجميلة والغريبة فيكتنفه إحساس من الانشراح كأنما يتواجد بنزل طريف البناء أو بمقهى سياحي ظريف التعاريج والشرف. ويزداد إحساسه بالانتشاء حين يتأمل اللوحات التي أبدعتها ريشة صاحبة البيت والمنتشرة هنا وهناك في أنحاء المنزل.

كلف هذا العمل الفنانة المسكونة بهوس الغموض مبلغا هاما قارب المليون دولار و أضفى على المنزل مسحة أسطورية فبدا مع كل التفاصيل الطريفة والغريبة التي يتضمنها كأنه قد شيد على كوكب آخر غير الكرة الأرضية. وظلت سارة أسيرة لأفكارها الجامحة تدفع الأموال الطائلة في سبيل تحقيقها وسكنها الجنون وتعودت عليه وتعود عليها حتى صار هواؤها الذي تتنفسه وألحانها التي تتغنى بها بل أكثر من ذلك صار هويتها ووطنها وعشقته حتى تماهى مع ذاتها فما عادت تطيب لها الحياة دون ممارسة طقوسه فهو ملجؤها وحاميها وهو الذي تستمد منه طاقة لهذيانها ولرقصها المحموم كلما أحست بدبيب الهدوء يتسلل إليها وهو الذي يحرك ريشتها حين ترسم فيرسلها لتسبح حرة فوق الفضاء الأبيض لتغمره بلمسات الإبداع وبنفحات النفس المتمردة.

سكنت سارة بمنزلها المتفرد والمختلف عن كل المنازل المجاورة له. لكن هواجسها وشياطينها الثائرة لم تسكن بل ظلت تتقاذفها وتشطح بها كلما رسمت أو غنت أو رقصت وكلما سارت وراء فكرة من أفكارها أو جنحت إلى سلوك تكسر به السائد والمألوف وتتعالى به فوق القيم و الأعراف والأخلاق والوطنية وفوق الرغبة والشهوة وحب التملك ذلك الشعور الذي لم يعرف طريقا إلى نفسها وظلت تستغرب الخوف الذي يبديه أكثر الأثرياء والمشاهير على ممتلكاتهم من السرقة و الاعتداء فيعتمدون حراسا شخصيين لحمايتهم. وكان أبعد شيء عن تفكيرها أن تحرص على سلامتها الشخصية أو على حراسة بيتها وما حاجتها إلى ذلك؟ وهي التي لم تخش السطو والاعتداء بل أنها لم تخش الموت نفسه لقناعتها بأن قيمة حياة المرء تكمن في اللحظة التي يحياها وليس في لحظته الآتية وخشية الموت هي خشية على لحظات من المتوقع أن نحياها.

كان هذا رأي سارة حول الحرص والخوف من المجهول لكن توفيق وكلثوم كان لهما رأي آخر فأُنتدبا زوجين من ثقاتهما للقيام على شؤونها وإتيان ما تغفل عنه من أعمال الحرص.

كان "أنطون ماكسي مليانو" رجلا مكسيكيا يناهز الأربعين من العمر و متزوجا من "مارتا" وهي مكسيكية أيضا وتصغره ببعض السنوات. كان الزوجان يقطنان ب"ماكسيكو" لما انتدبتهما شركة تنقيب عن النفط تعمل بالمغرب العربي للعمل ضمن أسطول موظفيها بالجزائر فانتقلا للعيش هناك وذات مرة قدما إلى مدينة "الحمامات" التونسية للاصطياف فالتقيا هناك بتوفيق وكلثوم ونشأت بينهما علاقة صداقة عن طريق المصادفة فصاروا أصدقاء ثم توطدت الصداقة فدعاهم توفيق إلى بيته بحي النصر وقضوا أياما بتونس العاصمة فتجولوا بأحيائها وتعرفوا على معالمها.

ظل "أنطون" ومارتا يشتغلان بالمقر المؤقت لإدارة شركة التنقيب الأجنبية في الجزائر لبضع سنوات ولما قاربت أشغال الشركة على الانتهاء استغنت عن العديد من موظفيها ومنحتهم مكافأة نهاية الخدمة وكان الزوجان المكسيكيان من بين هؤلاء فأُستعدا للعودة إلى بلدهما. فكر توفيق أن يشغلهما بمصنعه لكن فكرة أخرى خالجته وهو أن يرسلهما لمصاحبة سارة بأمريكا مقابل راتب شهري كبير فوافقا الزوجان مسرورين وانتقلا للعيش بنيويورك مع سارة فقاما على خدمتها والعناية بها وقد رفضت البنت الغريبة في البدء فكرة وجود مرافقين لها لكنها أذعنت تحت إلحاح شديد من أمها فتقبلتهما معها على مضض وأفرطت في جفائها معهما وتجاهل وجودهما ببيتها لكن الزوجين لم يكترثا بل بالعكس أبديا حلما وصبرا كبيرين معها لعلمهما بوضعها النفسي والعائلي الخاص.

وجدت سارة نفسها بعد مدة من دخولهما حياتها تمدهما ببطاقتها البنكية ليعتمداها في تزويد البيت بحاجياته وحتى لا يعولا على مال والديها أما هي فكان المال وطرق صرفه آخر الأشياء التي تفكر بها وحتى ملابسها لم تكن من النوع الثمين إذ تكفي بضع دولارات لتكسوها من قدميها حتى رأسها وقد قامت شركة مختصة في إدارة أعمال الفنانين بتنظيم شؤونها الفنية كما شؤونها المالية وكانت ترسل لها محاسبا ماليا ليقدم لها تفصيلا عن عائداتها المالية وترسل لها مندوبا ليتدارس معها كل ما يتعلق بالأمور الفنية من حفلات مباشرة أو تسجيل أغاني أو التعامل مع شركات إنتاج أو إقامة معارض للوحاتها الجديدة.

الحياة بأمريكا نسق سريع، رقي حضاري مذهل، حياة عصرية شعارها الرأسمالية والتطور التكنولوجي والحرية، مناخ ملائم لكل أنواع الإبداعات والفنون وحتى التيارات السياسية المتضاربة، وسط غني بالمذاهب الفكرية المختلفة والإفرازات الاجتماعية المبتدعة والانتماءات الدينية المتعددة تحيى به سارة دون أن تلقي بالا إلى جميع عناصره في تفاعلها مع بعضها البعض و رغم أن حقدها على الشرق لا يزال في اطراد إلا أنها لا تهتم بما كان يدبر في أمريكا من مخططات للاستيلاء على ثرواته والتحكم في دفة العالم بعد الحرب الباردة التي انتهت بسقوط الاتحاد السوفياتي وقد وضعت استراتيجية عسكرية واضحة منذ عام 2000لشن حروب ضد عدة دول من الشرق الأوسط على مدى خمس سنين منها بالتأكيد كانت العراق كخطوة أولى في تلك الاستراتيجية الحربية التي كانت من توقيع المحافظين بعد سيطرتهم على مراكز صنع القرار في البنتاجون وفي مجلس الأمن القومي بالبيت الأبيض والخطوتين التاليتين ستكونان سوريا وإيران وتوقع البعض أن الدول الأخرى ستتمثل في لبنان والصومال والسودان وليبيا.

لم تكن أصداء السياسة الأمريكية تبلغ مسامع سارة فقط كان كل ما يأسر اهتمامها في هذا البلد ـ أبلغ رمز للعالم الغربي ـ هو التنوع العرقي الذي يضمه والذي يجعلها تأنس بعض الراحة التي لم ترق لديها إلى إحساس بالسعادة، السعادة المنشودة التي حرمت منها أول عهدها بالحياة حين بلغت سن الإدراك. و كم أشقتها الحياة وهي هناك بموطن جرحها تتأذى من تناقض خلقته الطبيعة التي طمست جسمها بأثر لا يمحى !، أثر هو الإعجاز، أو هو إفلات لموازين الطبيعة من سلطة المنطق. هي الآن بعيدة وقد كسرت حلقات السلسلة الهجينة التي كونتها تلك الطبيعة الساخرة في عائلتها. هي هنا الآن سوداء تشق طريقها بين السود ترسم وتغني وتقيم الحفلات

وهما هناك أبوان من البيض أشقتهما الحياة بخلف أسود والحل الأفضل كان في استئصاله وبتره عنها وقد قررت أن لا تستجيب للدعوة التي تلقتها للغناء في بلدها وقد علمت بمدى شوق التونسيين لرؤيتها والاستمتاع بأغانيها لكنها لن تفعل لقناعتها الكاملة بأن ما من بلد في هذا العالم يمكن أن تحضره على نفسها كما تفعل مع موطنها ففيه ألمها وهاجسها المقيت يتجسد، يكبر، حتى يصير وحشا متربعا على عرش الحقيقة ينهشها يحاصر نفسها في قمقم العقدة العميقة السوداء. فلتترك الوحش نائما بأعماقها ولتخدر نفسها بعيش الوهم و الزيف وبلِبْس القناع، قناع الفتاة السوداء ذات الأصول الزنجية.

لن تعود إلى هناك الآن و لن تحدث رجة في أعماقها المستكينة، رجة قد تهد كل ما بنته في سنين من استقرار نفسي واهم. لن ترخي لقلبها العنان ليستسلم للحظة حنين هدامة. وإلام الحنين؟ لو كانت ككل الناس لحنت إلى مرتع الصبا حيث ضَحكَتْ الطفولة بعبثها الملائكي وإلى حيث الحي والمدرسة وكل الأماكن التي حوت أجمل لحظات العمر، لحظات متشبعة من طهر البراءة ونقاء الأحلام. أما وقد ولدت من رحم المأساة وعاشت طفولة ملفوفة بالسواد كوجهها القاتم فمن العبث أن ترنو بخيالها إلى معقل احتدام عقدتها وإن شاء القدر يوما لشخصين أن يكونا والديها فقد هجرها الإحساس بتمام أهليتهما لها أو بأنهما أصلان تولد عنهما انبثاقها فالعادة تقتضي تشابها بين الأصل وصورته وإن كان طفيفا. فكيف تعبأ الآن بمجتمع شهد ميلاد مأساتها ودونها اسما ثابتا بسجلاته هو اسمها مقترنا بلقب عائلي لرجل اعتقد أن له امتداد غير أن الحقيقة هي العكس فهي الآن في نظر كل المحيطين بها "سارة" اسم وحيد له مدلول واحد هو ذاتها منفردة ومتجردة من كل أصل أو انتماء عائلي فما حاجتها إلى انتماء عائلي مشوه أو إلى اسم عائلة تنكره قبل أن ينكرها؟

فلتقنع بالعيش في أمريكا كسوداء تحاول تحقيق كيان لها بالفن وهو ملجأ الكثير من السود هنا بهذا البلد الغني بالتناقضات. وقد يغطي نجاحها الفني ما يراه الآخرون نقيصة فيها خاصة هؤلاء البيض في هذا البلد لكنها تستمتع بذلك. إنها تستمتع برؤية سواد بشرتها يتحول إلى سلاح تخوض به معركتها مع الوجود...هؤلاء بيض أمريكا يعتقدون أنها فتاة من عرق أسود تركض وراء الشهرة والنجاح لتحقق الثراء والمجد اللذين تستعيض بهما عن نقص عنصرها لكنها لم تفكر أبدا في ذلك فهي تغني وترسم لأنها لا تتعرف على ذاتها إلا حينما تكون بحالة عطاء، حينها فقط تتمكن من رؤيتها عارية بلا أقنعة الأصل والنسب والجلدة والعرق والانتماء...

حينما تمسك الريشة لتلون يصدها الفضاء الأبيض وتتصارع معه صراعا نبيلا و لا يذكرها بتناقضها مع والديها ولا يمارس معها ميزا عنصريا لكونه بخلافها أبيض ناصع البياض وحين تغني لا تنكرها الجمل الموسيقية ولا تستنكر حنجرتها الهجينة فقط تتصاعد النغمات من فيها ذي الشفتين المكتنزتين فتنبعث في الأثير بريئة حالمة نقية طاهرة مجردة من صلف الاستنكار والظنون الذين عانتهما في بلادها ومن عنجهية العنصرية التي يمارسها بيض أمريكا على سودها وعلى العناصر الأخرى الملونة كالهنود. لذلك يتاح لها الآن بعد أن طاوعتها الأنغام والألوان وصادقتها والتحمت معها ـ يتاح لها أن تسخر من استعلاء الآخرين بل يتاح لها أن تتعالى على تلك الممارسات المشينة والظنون المؤذية لأنها اتحدت مع المطلق ولأنها جابت عوالم جميلة مكوناتها عناصر صادقة شفافة تكشف جوهر الحقيقة الماسي.

كل أولئك الذين يستخدمون ألسنتهم وأسلحتهم في تعذيب الناس واستنقاصهم لم يتمكنوا يوما من الاتحاد مع الحقيقة العارية في عالمها السرمدي ولو أمكن لهم ذلك، لو أمكن لهم أن يغوصوا في عالم الجمال وأن يغرقوا في لج الإبداع وأن يعبوا من

شهقات الروح حين تنتشي بسحر الفن لأمكن لهم أن يحترموا الذات البشرية وأن يُقدّروا موضع الجمال في كل نفس مهما علا شأنها الدنيوي أو تواضع...

في عالم الانعتاق حيث السحر والشفافية، حيث السكينة سكينة الروح، حيث يخفق القلب ويغرد، حيث تنتشي الروح وتنعم، حيث رضا النفس وسعادتها، هناك لا يمكن التمييز بين روح أبيض وأسود أو بين روح غني وروح فقير، هناك تتوزع معطيات الرضا والسعادة بطريقة تبادلية فيما بين النفس البشرية وعناصر الجمال فتنأى الذات عن العنصرية الرخيصة والكبرياء البغيضة وتعود بعد رحلة في أثير الجمال صافية بريئة فتنظر إلى الوجود من حولها بسذاجة الفطرة وبعينين همهما الوحيد هو اكتناه معان الجمال في كل ما تلمحانه من هذا الكون بتفاصيله وجزئياته.

نزل آدم السلالم المفضية إلى الطابق الأرضي ببيت والده بوثبات رشيقة، وقد مضى على وصوله من المطار زهاء النصف ساعة قضى جزءا منها في ترتيب أغراضه بينما قضى الباقي تحت مياه "الدوش" الحارّة، كان يأمل أن يجد الطقس دافئا وقد تركه باردا ومثلجا في نيويورك...إنه شهر ديسمبر،شهر الثلوج. ترك الاستعدادات هناك حثيثة للاحتفال بسنة 2006 ميلادية ولم يتوقع أن يجد تونس غارقة في الأمطار.

وجد والده جالسا بالصالة يرشف قهوة ويتابع برنامجا طبيا يبث على محطة تلفزية فرنسية.

التقت الأعين فندت عن الشاب ابتسامة شوق سرعان ما انتقلت إلى وجه والده المتحرق للُقياه.

خف آدم إلى المطبخ وسكب من الإبريق الكهربائي قهوة ساخنة وعاد ليجلس قرب أبيه ثم قال:

ـ والآن يا دكتور حافظ حدثني عن أخبارك وعن كل ما قمت به أثناء غيابي.

تبسم حافظ على إثر سماع التسمية التي ألفها من ابنه وقال:

ـ إني بخير، خبرني أنت عن أخبارك

ـ أنا في منتهى العافية...حصلت على التقاعد أخيرا؟

ـ نعم و ازدادت ساعات فراغي فشغلت نفسي بالكتابة إذ أحببت أن ألخص مجمل أحداث مسيرتي المهنية في كتاب.

علق آدم مبتسما:

ـ دكتور في التحاليل المجهرية يصدر كتابا ! وماذا ستكتب فيه؟

فقال حافظ بعد أن أرسل نظرة ثابتة أذهلت آدم :

ـ عندما أفرغ من تأليفه ستتسنى لك قراءته لتعرف بنفسك ما يحتويه.

صمت الكهل لحظة ثم أردف:

ـ دعنا من هذا الآن وأخبرني عن أحوالك.

رد الشاب:

ـ أنا أيضا بخير وأشغل نفسي بالعمل.
قال ذلك ثم انفرج ثغره عن ابتسامة كبيرة عقبتها ابتسامة أخرى من الأب الذي استلطف مزاح ابنه ثم استعادت ملامحه سريعا جديتها المعهودة و قال:
ـ ما أخبار عملك هل هو مريح؟
قطب آدم حاجبيه وقال:
ـ عملي مريح فهو كما تعلم يتضمن جانبا من الأعمال المكتبية وجانبا آخر متمثل في أعمال ميدانية وهو يتيح لي السلوى والاستمتاع بل إنه يوفر ذلك لكل عناصر الفريق الذي يشاركني هذا العمل فنحن ننتقل إلى أماكن عامة كثيرة مثل الفنادق وقاعات الاحتفالات والأفضية الخاصة بالمنتديات واللقاءات العامة، فأغادر مع أعضاء فريقي مقر الشركة وغالبا ما نقيم بأحد النزل لفترات متفاوتة حسب حجم العمل المناط بعهدتنا و الذي يتمثل في تجهيز الإضاءة اللازمة لتظاهرة معينة قد تكون حفلة أو ندوة أو لقاء عاما، وفي تلك الأثناء تفعل الزمالة مع الإقامة الجماعية ـ أقصد قرب أعضاء الفريق من بعضهم البعض ـ فعلها السحري في خلق أجواء من المرح والمتعة.
كان حافظ يصغي إلى ولده وقد عم السكون محياه الصغير الذي بدأت آثار السنين تتشكل عليه فخطت ثلاثة خطوط متوازية على جبينه ووشحت الشعر الأسود برأسه بشعر أبيض معتدل التوزيع حتى صار رماديا واصطبغت شفتاه بلون داكن بعد أن ظلتا طويلا تبتسمان للحياة بلون قرمزي.
انبعث صوت آدم حنونا جميلا مرفوقا بشوقه الكبير لممارسة اللغة، لغته ولغة ذويه ولغة بلده ولغة كل العرب :
ـ عملي يوفر لي مبالغ مالية هامة لأن الشركة تولي اهتماما كبيرا للإطارات التي تعمل معها فهي تمنحنا زيادة على الأجر الشهري المحترم نسبة من الأرباح الحاصلة بعد كل مهمة ميدانية نقوم بها وذلك حتى تنمي المردود وتحفز إطاراتها

على ابتكار طرق جديدة ومبهرة في عالم الإضاءة وحتى تنافس مثيلاتها من الشركات ومع حلول سنة 2006سيكون أمامنا أعمال كثيرة وسنسافر في مهمات ميدانية في مناطق سياحية بأمريكا منها فلوريدا في شهر مارس أو أفريل من السنة المقبلة.

واصل الشاب حديثه بينما والده ينصت إليه دون أن يقاطعه فهو أدرى الناس بابنه ويعرف أن به حاجة نفسية قصوى للكلام بعد صمت عن اللغة دام أشهر:

ـ لكن رغم تلك المغريات فإني لن أصمد كثيرا فما زلت أؤمن أن لا حياة للإنسان بعيدا عن موطنه. وفي ذلك البلد الغربي ينعدم إحساس الفرد بالعمل كقيمة اجتماعية.

تدخل حافظ ليقول معارضا فكرة ابنه:

ـ لكن العمل شرف ولا يِؤثر المكان على قيمته، المهم أن يخدم الإنسانية.

قال آدم:

ـ أدرك ذلك لكني أشعر أني غير معني برُقيِّ أمريكا أو انحطاطها وبالعكس تماما كثيرا ما ينتابني شعور بأنني أزداد كل يوم نقمة على التطور الذي تشهده، ذلك أنها بقدر ما تحرز رقيا علميا واقتصاديا في الداخل بقدر ما تكرس هيمنة ونفوذا غير محدودين على بلدان أخرى مستضعفة باسم الديمقراطية والحرية المزعومة.

قال حافظ بهدوء وقد طأطأ رأسه:

ـ لأنهم رواد التنوير فقد أرادوا أن يصدروا نتاجه.

فقال آدم:

ـ و متى كانت الديمقراطية بضاعة تصدر أو تستورد؟

فقال حافظ بنفس الهدوء وهو ينظر لولده:

ـ لكن المجتمعات العربية لا تزال تفتقر إلى الوعي لذلك فهي غير قادرة على صنع الديمقراطية.

تابع آدم كلامه:

ـ يواصل هؤلاء الإدعاء أنهم يقومون بغرس مبادئ الديمقراطية عند شعوب سلبوها الإرادة وحرية المصير، الحرية التي تعني المسؤولية والتي تعني بدورها في وجه من وجوهها الديمقراطية. وهذا مفاده أن الديمقراطية سهلة وبسيطة في معناها ويمكن أن تنبع من الشعب ذاته إذا تمثَّل حريته وأدركها وأدرك أنها تكمن في مسؤوليته في اختيار مصيره وفي وعيه بأن الخضوع لسلطة دولة أقوى منه أضعاف المرات لا يمثل ديمقراطية وفي أنه لن يجد الديمقراطية على طبق تقدمه له هذه الأخيرة مغسولا بكرامته.

ـ لا يمكن أن تحدث الجياع عن الكرامة لأنهم لن يسمعوك.

ـ كرامة الجائع في أرضه ومقدساته و يخسرها حين تنتهك.

سكت آدم ليسترد أنفاسه وليرشف قهوته التي أوشكت أن تبرد بينما ظل حافظ ينظر إليه صامتا وقد أخفت نظاراته الطبية القلق المرتسم بعينيه ثم قام إلى المدفأة الموضوعة بوسط الصالة وزاد من حرارتها بتحريك أحد الأزرار فيما واصل آدم حديثه:

ـ أمريكا تمارس شتى أنواع التسلط حتى الإعلامي منها وحين تصادف في ضحاياها من الشعوب المقهورة من يرد الفعل تنعته بالعنجهية والتعجرف وتلصق به نعوتا من قبيل شعوب إرهابية متدينة بدين متطرف.

ـ هناك شريحة كبيرة من الناس تقدم على الإرهاب باسم الدين.

ـ وهناك شعوب بأسرها تمارس دينها دون أن تضر بأحد فأن تسيء فئة من الناس فهم الإسلام أو أن تستغله لمآربها فذلك لا يدينه كدين سماوي ذي أسس تنويرية. صحيح أنه يدعو في حالات إلى الجهاد من أجل حفظ كرامة الإنسان لكن منطق القوة لا يقبل ذلك و يصدق ذلك المثل التونسي القائل: "ضربني وبكى وسبقني و شكا".

صمت آدم وقد عاد عليه من كلامه الأخير بعض الراحة وظل حافظ يزم شفتيه كأنه يبتلع حيرته في أمر ابنه الذي حاول دون

جدوى إقناعه بالكف عن النبش في مثل هذه المواضيع وكان يذكره باستمرار أن الإنسان بمفرده عاجز عن تغيير الواقع فهو لا يملك عصا سحرية تمكنه من قلب الأوضاع لكنه هو أيضا حاول ذات مرة أن يغير الواقع ونجح في ذلك وتحدى القدر وتحدى المصير ولم تكن له عصا سحرية ولكن كان له قلبا يخفق بحب الحياة وحب الخير للإنسانية ولولاه لظلت حياة العديد من الأسر التونسية كئيبة تعاني من قيود القدر.

أوقف حديثه الداخلي و سأله:

ـ هل تأتي على ذكر آرائك هناك؟

ضحك آدم ضحكة صغيرة بدت كضحكة سخرية و أطرق رأسه يفكر فزاغ بصره ولم يعد يرى والده ولا يسمعه.

أمسك رجل رأسه وغطسه في ماء ساخن. كان الماء شديد الحرارة، أحس بجلد رأسه يفارق جمجمته وكادت عيناه أن تفقآ داخل المياه الساخنة، أطبقت اليدان الغليظتان على رقبته لترفعا رأسه في حين كانت يداه مكبلتين.

ـ تكلم ما هي علاقتك بتنظيم القاعدة؟

نطق الشاب وهو يحاول فتح عينيه المتورمتين من الماء الساخن.

ـ ليس لي أية علاقة بها.

فتح عينيه فرأى صورا مكررة للشرطي الواقف أمامه وبصدد التحقيق معه، كان رجلا طويل القامة عريض الكتفين يرتدي زي شرطة أزرق غامق بأزرار نحاسية وكان ذا جبين عريض ووجه أبيض به احمرار ويرسل إليه نظرات باردة وعدوانية من عينين زرقاوين.أما الآخر فكان يقف خلفه ويمسك به من كتفيه بعد أن أجلسه على مقعد خشبي.

ـ لن يفيدك الإنكار...تكلم أيها المغربي...

ـ ليس لي علاقة بالقاعدة، قلت لكم.

نطق الرجل الفظ الممسك به ليقول:

ـ لك علاقات بأشخاص مشبوهين اتضحت لنا نواياهم في تنفيذ عمليات ارهابية. لا تستطيع أن تنكر أنك تعرف "أحمد بو دربالة" و "سلام البرهومي" و"حميد الفرجاني"
ـ إنهم زملائي في السكن وهم عرب مغاربة أمثالي هذا فقط ما يربطني بهم ...ليس لدي أية فكرة عن ضلوعهم في أعمال إرهابية فهم منشغلون دوما بأعمالهم.
قال الرجل الواقف قبالته:
ـ أنت تتستر على رفاقك لكنهم فضحوك واعترفوا باشتراكك معهم فيما خططوا له فما قولك؟
ـ لست شريكا لأحد. جئت هنا للدراسة ثم وجدت عملا مناسبا يجعلني أكتسب خبرة في مجال تخصصي.
دفعه الرجل الذي يقف خلفه إلى حيث مغطس الماء الساخن وأحناه ليغمس له رأسه مجددا.
صرخ آدم وقد وجد الماء أكثر حرارة وأحس بجمجمته تتحول إلى مرجل...أراد أن يرفع رأسه لكن اليدين الغليظتين ضغطتا على رقبته بقوة شديدة...أحس بطبلتي أذنيه تنفجران من شدة حرارة الماء ثم أحس بدنو أجله...
رفعه الرجل بكل عنف وجذبه مجددا إلى الخلف وأجلسه على ذلك الكرسي المقيت..لم يقدر الشاب على فتح عينيه. أحس بغثيان ثم تقيا فتناثر القيء على سرواله وعلى أرضية الغرفة...
سمع الرجلان يسبان ويشتمان ثم أحس بطوفان من الماء البارد يسكب على جسده فيما هو مترنح بين صحوة وغيبوبة. فتح عينيه بعد أن انتابته رعدة قوية من برودة الماء عقبها اصطكاك بأسنانه. اجتاحته ثورة من الغضب وقد هاله أن يرى نفسه في تلك الحال من الهوان فصرخ بالرجل أمامه:
ـ لا أستغرب تعذيبكم لي ولأمثالي فأنتم قد بنيتم دولتكم الديمقراطية على برك من دماء الهنود بعد حروب الإبادة.

تكلم الرجل الواقف أمامه بهدوء بارد كأن ما سمعه كان مديحا لا ذما:
ـ حروب الإبادة؟ إذن أنت حاقد على أمريكا؟ هذا يؤكد لنا انتسابك للـ "القاعدة"
صرخ آدم مجددا:
ـ نعم حاقد على أمريكا لكني لست إرهابيا وأكره الإرهاب... مخطئ من يحارب المدنيين ... الإرهاب هو سلاح الضعفاء...
قال الرجل:
ـ أنت إذن حاقد على أمريكا ومن الأقوياء؟
أتم كلماته ثم نظر إلى زميله وقال له:
ـ خذه إلى مغطس الماء واغمس رأسه فيه ولا تخرجه منه حتى نقتنع أنه من الأقوياء.
قال آدم وهو يساق إلى المغطس: ـ الأقوياء يقولون لا ...يقاومون استعماركم لبلادهم في بلادهم ولا يقتلون المدنيين ... الأقوياء أحرار و الأحرار لا يضعون أيديهم بيدي أمريكا.
نظر آدم إلى الصفحة التي يتصاعد منها البخار وقد انبعثت الفقاقيع من أسفلها كعيون الأفاعي ...الماء على وشك الغليان لكنه لم يخفه فقد أخذ يتعود عليه ...وما هي إلا لحظات حتى كان رأسه مغمورا بذلك الماء الحار وأحس بلسعاته تحرق جلده لكنه لم يبد مقاومة بل ظل مستسلما لليدين الغليظتين يتحدى قدرته على التحمل ويتحدى أولئك المتعجرفين.
سمع صوتا من خلفه يقول:
ـ ايت به سنحمله إلى هناك... سيقبع مع شركائه في القاعدة البحرية حتى يسأم ويعترف.
أفاق آدم على صوت والده يقول:
ـ من الأفضل أن تتوخى الحرص خشية أن يشملك التحقيق في صورة حدوث تفجيرات إرهابية وتذكر أنك هناك من أجل العمل واكتساب الخبرة.
صادق آدم على كلام والده مضيفا:

ـ لا تخشى شيئا يا والدي العزيز.
تدخل حافظ مغتنما فرصة توقف آدم عن الكلام وقال:
ـ لا شك أنك متعب جراء السفر وهذا الحديث، اصعد لنيل قسط من الراحة ريثما أعد وجبة فالخادمة لم تأت اليوم.
ـ سآتي معك لأساعدك وبعد الأكل سأستريح قليلا ثم أخرج مساء لمقابلة أصدقائي فقد اشتقت لهم وخاصة لعدنان الذي افتقدته كثيرا.
في المساء نهض آدم وغسل وجهه بماء فاتر وارتدى " سترته الجلدية السوداء. تناول قرصا ليزريا من خزانته ونزل ليلقي التحية المسائية على والده ثم اتجه نحو المستودع حيث كانت سيارته " بولو" قابعة بانتظار عودته شغل المحرك ووضع القرص في الجهاز القارئ ثم انطلق مستقبلا شوارع تونس العاصمة ومستنشقا نسائمها الرطبة المحملة برائحة الحنين.
طاف بالأحياء والطرق يتأملها: كانت الطرق مبللة جراء الأمطار ورقصت حواسه طربا بنعيم العودة وبالصوت الرخيم والموسيقى الجميلة المنبعثة من "ديسكو" سيارته، صوت يتغلغل في أعماقه وينشر شعاعا سحريا على الوجود من حوله، إنه صوت المغنية التونسية المهاجرة سارة.
ركن سيارته قرب أحد الأرصفة في "بْلاص باستير" ودلف من الباب الصغير الواقع حذو بوابة حديقة البلفيدار وقصد مقهاها، ذلك المقهى الذي واظب على ارتياده أيام دراسته الثانويه.
اتجه إلى حيث اعتاد أن يلاقيَ أصدقاءه.كان الطقس غائما والهواء محملا بالرطوبة. لاح له وجه غازي الحيدوسي من بعيد لقد تغير، أفلتت منه ملامح الشباب الغض وحلت محلها كهولة سابقة لأوانها. وكان اللقاء السابق بينهما منذ ما يقارب السنتين.

اقترب آدم من المنضدة التي يجلس إليها غازي ولما أبصره هذا الأخير تهللت أساريره وقام يحتضنه بكل حرارة قائلا بصوت مرتفع:

ـ آدم غير معقول أمازلنا نتنعم برؤية هذا الوجه؟

ـ كم اشتقت لك يا غازي ولرفقتك؟

جلس آدم حذو صديقه وشرعا في الحديث والسؤال عن أخبار وأحوال بعضهما البعض.

سأل غازي صديقه:

ـ وهل عودتك هذه نهائية؟

ـ لا بل هي زيارة بغرض رؤية الأهل والأصحاب وسأقرر عودتي النهائية بعد أن انهي تربصي في مجال عملي كمهندس إضاءة.

وأنت ما هي أخبارك؟ هل أنهيت دراستك؟لقد حصلت على الإجازة في التصرف وأعمل بشركة .

ـ هذا ممتاز وهل هي شركة خاصة أم حكومية؟

ـ إني أعمل بعقد وقتي بشركة خاصة وأتقاضى مائتان وخمسون دينارا شهريا.

ـ لا بأس ستتحسن الأحوال تدريجيا.

ـ لقد ازدادت أزمة التشغيل حدة في الفترة الأخيرة وجل خريجي الجامعات الجدد يعانون الآن قلقا جديدا متمثلا في البطالة التي كبلت حماسهم وأفترت من عزمهم وبعض هؤلاء حاولوا الإفلات من براثن هذه الآفة المطبقة فسقطوا في فخ الأعمال البسيطة يأتونها متخلين عن رفعة شهاداتهم العلمية راضين بالأجر الزهيد الذي توفره لهم.

ـ إن هذا لمؤسف حقا !

ـ هذا هو مصير أغلب المتخرجين. أقول "أغلب" ولا أعمم لأن الاستثناء موجود في كل الأحوال فالبعض قد حصل على شغل قار أفضل بكثير مما كان ينشد في أحلامه.

مط غازي شفتيه وأضاف بصوت ينفث المرارة والحسرة:

ـ ألم تسمع عن قانون الرشوة والمحسوبية؟ أما مسألة الكفاءة التي يتحدثون عنها فهي لا تطبق سوى على الفئات الضعيفة. بعض أصحاب الشهادات يتمتعون بقدر من السلطة والنفوذ والمال ما يجعلهم يتعالون على الكفاءة أو يخترقونها ليصلوا إلى أعلى المناصب دون أدنى خبرة أو حتى كفاءة.

مر النادل فطلب آدم كوبين من العصير وقطعا من المرطبات.

أحس بالألم الذي يعبئ صدر صديقه من رداءة الأوضاع وسوء المنقلب في أمور التوظيف فحاول أن يخفف عنه قائلا:

ـ هون عليك يا غازي ستنجلي الأمور وستحمل لك الأيام القادمة أنباء سارة.

ركن الاثنان للحظة من الصمت عقبها آدم بسؤال صديقه بصوت رقيق:

ـ أخبرني يا غازي هل لك حبيبة؟

ابتسم غازي ثم وجه نظرة شاردة إلى مبنى المقهى فلمح بعض الكراسي والمناضد مشغولة في حين ظل البعض الآخر شاغرا بانتظار رُواد الليل الذين لا تثنيهم رداءة الطقس عن السمر .

قال بصوت يشبه التقريع:

ـ لي حبيبة. وقد خطبتها وأهديتها خاتما هو كل ما وصلها مني وأحس برغبة شديدة في الزواج منها لكنني غير قادر في ظل هذه الظروف فمرتبي ضعيف جدا وبالكاد يغطي مصاريفي ولن أقدر على تحمل مصاريف الزواج وعلى تأجير بيت وقد قلّبنا الموضوع على كل جوانبه وكنا في كل مرة نصطدم بصعوبة الظرف المادي الذي نمر به فهي أيضا متحصلة على الإجازة في الحقوق وحاولت بعد فترة التمرن التي أمضتها مع محام أن تفتح مكتب استشارات قانونية لكنها لم تقدر على تسوغ محل صالح للغرض نظرا لارتفاع الأسعار بعد ذلك تقدمت بطلب لوزارة التربية ليتم انتدابها كمدرسة تعليم ثانوي أو ابتدائي فأحيلت على لائحة المنتظرين.

سكت غازي وأخذ ينظر لصديقه آدم بنظرات كسيرة تغبطه على نعيمه المادي إلى حد الحسد الغير مقصود إذ هو لم يحسد الناس يوما ولم يكن ليعارض المشيئة الإلهية على ما قررته وقدرت له الأسباب لكن التعاسة قد تبلغ بصاحبها أحيانا إلى حد التنكر الحدسي أو التلقائي لمبادئه السابقة.

قال آدم بعد أن أطرق قليلا:

ـ هل ترى عدنان يا غازي؟

ـ لا أراه كثيرا.

ـ ألا يجلس معكم؟

ـ ما عاد يجلس معنا فله شلة أخرى.

ـ من هم أصدقاؤه الجدد؟

ـ هم مجموعة من الشبان يهتمون كثيرا بأمور الدين و يجتمعون في الجوامع وفي الزوايا مطلقين اللّحى وقد كان لهم سلوك غريب أثناء دراستهم بالجامعة: يقيمون اللقاءات السرية ويتداولون فيما بينهم مناشير هجينة ويرفضون دخول المحاضرات عندما يكون الأستاذ امرأة غير متحجبة.

ـ ومتى انضم إلى هذه المجموعة؟

ـ أخذ بالابتعاد عنا تدريجيا منذ التحاقه بالجامعة وشيئا فشيئا انقطع عنا وصرنا نراه من حين لآخر مع هذه المجموعة من الشبان ثم أنه حاول مرارا أن يجعلنا ننظم إليهم و صار في المرات الأخيرة التي قابلناه فيها ينصحنا بالابتعاد عن الفساد والمحرمات وبالعودة إلى تطبيق القواعد الدينية تطبيقا صحيحا وذكر لنا مساوئ الفرجة على المحطات الغنائية والأفلام والمسلسلات و بأنها في رأيه موبقات تؤدي إلى الفساد والضياع كما أنه كان يستنكر بشدة سلوك بعض الشبان في مرافقة الفتيات.

ضحك آدم وقال:

ـ أكل هذا يصدر عن عدنان؟

سأحاول أن أراه لأعرف بنفسي أية أفكار يتبنى. أين يمكن أن أجده؟

ـ لا أحد يعلم إلى أين يذهب خارج أوقات الدراسة. اتصل به في بيت والديه وإن لم تجده هناك اقصد صباحا جامعة الـ"كامبيس" فقد يحضر محاضرات الغد.

ودّع آدم صديقه غازي على أمل أن يلتقيا مجددا قبل عودته إلى الولايات المتحدة. ثم امتطى سيارته عائدا إلى جهة المرسى ولكنه لم يعزم على العودة إلى البيت إنما كان مقصده بيت جاره "سي محمود" و والد عدنان ليسأل هناك عن رفيق صباه الذي لازمه طوال طفولته رغم فارق السن فهو يكبره بسنتين، سنتان لم تؤثرا على صداقتهما في عهد الصغر وفي أيام الثانوية بل أكثر من ذلك كان له بمثابة الأخ الأكبر يساعده في مراجعة الدروس ولا يبخل عليه بالنصيحة في باقي الأمور. كانا متلازمين، يقضيان فترات العطل المدرسية سويا فتراهما معا في الكافيتريات وفي دور الشباب وفي قاعات الألعاب وفي الصيف يقصدان شاطئ "حلق الواد" أو "سيدي بوسعيد" وهناك يجلسان مساء في القهوة العالية يرشفان "كأس تاي باللوزأو بالبندق" ويتأملان الجبل الأخضر المستحم في مياه الميناء السياحي ويتطلعون بعيون مشتاقة للفتيات اللائي خرجن من دورهن كعرائس البحر للتنزه وأحيانا يتوجهان من هناك إلى سينما "الكوليزي" مستقلين المترو العائد إلى العاصمة عبر محطة "تي جي آم" أو يتوجهان لإحدى قاعات الألعاب كشخصين أوثقتهما الصداقة بعراها الحميمة فوحدتهما في ذات واحدة بروحين حبيبين. وفي أيام الدراسة كانت تفرقهما مقاعد الدرس لأنهما متفاوتين في درجة التعليم نظرا لفارق السن بينهما ولقد افترقا الآن فراقا كاملا بعد أن تدخلت الحياة بسلطتها على الأفراد وبما تخبئه لهم من مصائر مختلفة ومتشعبة فتحول آدم لدراسة فن الإضاءة بالولايات المتحدة إثر حصوله على شهادة "باكالوريا تقني" بتفوق بينما ظل صديق

النشأة بأرض الوطن يزاول تعليمه الثانوي باختصاص العلوم التجريبية حتى أنهاه والتحق بالـ"كامبيس" لدراسة العلوم الطبيعية. وظل هو في الفترة الأولى من تواجده بأمريكا يتصل من حين لآخر بصديقه يسأله عن أحواله ويستخبر عن أمور دراسته لكنه في الفترة الأخيرة كان يصطدم بانقطاع هاتفه الخلوي عن العمل وحاول مرات عديدة أن يتصل به في البيت وكان الرد يأتيه في كل مرة من "آلاّ" آسيا والدته لتخبره بغياب عدنان عن البيت. وحاول أن يلاقيه في المرات القليلة التي عاد فيها إلى أرض الوطن لكنه لم يعثر له على أثر.

ترجل آدم من سيارته. دنا من الباب وضغط بسبابته على زر الجرس المنزلي وتأهب لملاقاة رفيق الدرب وأنيس الطفولة.

سمع نقر خطى فأُنتابته رعدة أكدت له شوقه لملاقاة صديقه.

انفتح الباب فبرز وجه امرأة تلف رأسها بوشاح أبيض وبدا أنها تعاني من نزلة زكام. أخذت آدم شفقة بالسيدة وقد كان يرى فيها صورة والدته التي فقدها صغيرا فأبدى فرحا لمرآها وسلم عليها مقبلا إياها على الخدين ونظر إليها نظرة تفحص بعد السلام فهاله أن السنوات القليلة المنصرمة وقد أذهبت بالبقية الباقية من عنفوانها. صحيح أنها الآن قد جاوزت الستين وربما أوشكت على إتمام النصف الأول من العقد السابع، لكن مع ذلك فهي المرأة التي حافظت طوال السنين الماضية على لياقتها الجسمية وظلت منتصبة القوام خفيفة الحركة يخيم على تقاسيم وجهها مرح ظاهر. وكان فيما مضى يلحظ رغبتها المستمرة في تجديد شبابها أو ربما في البحث عن عنفوان ضائع انصرم حاملا معه الربيع الغض وهي عنه لاهية منشغلة بأُنتظار أن يهل طفل على حياتها. وقد جاء عدنان فملأ حياتها بهجة وسرورا وإذّاك طمعت في أن تهبها الحياة فترة أخرى من الشباب تعوضها عن الفترة الأولى المهدورة في الحزن والانتظار.

كل ذلك كان يراه في تلك السيدة ودوما كان يكبر قدرتها على معاندة الحياة والتحلي بروح التمرد على الآثار التي يخلفها الزمن على وجه الإنسان وجسمه. والآن هاهي تقف أمامه محتقنة الوجه منتفخة الأنف والأجفان وقد ارتسمت على جبينها وحول عينيها أخاديد عميقة وعلى جانبي وجهها برزت خصلات من شعرها الأبيض وارتخى عودها من اعوجاج أصاب ساقيها وتهدج صوتها الذي كان رنانا.

ـ كيف حالك يا آدم لقد اشتقنا إليك والله !

متى عدت ؟

ـ عدت اليوم يا أماه

تهلل وجه السيدة عند سماع اللفظة الأخيرة بكلام آدم وقد تعود بها لسانه منذ طفولته إذ كان يتشبه في ذلك بعدنان.

ـ لو كنتُ فعلا بمثابة والدتك لكنتَ تسأل عني .

ـ إنها المشاغل يا أماه، أنت تعرفين أن الغربة تستهلك الإنسان وقد تنسيه حتى نفسه.

كيف حال عم محمود؟

ـ بخير، وهو بالداخل اُدخل لتسلم عليه !

مشى آدم في الممر الذي يفصل باب الحديقة عن باب المنزل وسأل جارته:

ـ وأين عدنان؟ لم لا أراه ؟ سألت عنه في مقهى البلفيدار فأخبروني أنه لم يعد يذهب إلى هناك.

ـ عدنان خرج من الصباح ولم يعد حتى الآن.

ـ أين يختفي كامل النهار؟

ـ اُدخل اجلس قليلا مع عمك محمود فقد يأتي الآن.

ولج آدم مع المرأة غرفة الجلوس حيث وجد جاره يتابع نشرة أخبار على قناة "العربية".

سلم الرجل على آدم بحرارة وأخذ يسأله عن أخباره وأخبار دراسته بأمريكا فأخبره الأخير بأمر عمله هناك ثم تحدثا الطقس وعن الأحداث السياسية التي جدت بالعالم في السنوات

الثلاث المنصرمة. وحدث آدم جاره عن الأجواء بأمريكا إثر حرب العراق وعن الفئات الكثيرة التي عارضت تلك الحرب وعن عائلات الجنود الأمريكيين الذين كرهوا الحروب و هم يخشون ان يتحول العراق إلى فياتنام جديد.

بدا محمود سعيدا بمقدم الضيف الذي أجّجت سنين الغياب من حرارة لقياه وأسبغت هيبة ووقارا على حضوره وأخذ ينصت له بكل اهتمام أما آسيا فقد غابت في الداخل لتعد القهوة حتى تقوم بواجب الضيافة مع صديق ابنها الحميم.

أراد آدم أن يسأل جاره عن أمر اختفاء عدنان لكنه عدل عن ذلك خوف نشوب مشكل بين الأب وابنه الوحيد ويكون المتسبب فيه فخير أن يغير السؤال بآخر:

ـ هل تمدني يا عمي برقم الخط الخلوي الجديد الذي يعتمده عدنان؟.

لاح الامتعاض على وجه محمود الأسمر الممتقع وأرسل نظرات قلقة من وراء نظّاراته الطبية السميكة ورد:

ـ عدنان لم يغير خطه بل هو يغلق هاتفه الخلوي باستمرار حتى لا نتمكن من مكالمته كما أنه يتغيب لفترة طويلة عن البيت ونحن لا نراه سوى مرتين أو ثلاث في الأسبوع.

أطرق الرجل برهة ثم أضاف:

ـ والله إن أمر هذا الولد لمحير يا آدم ولست أدري عمن توارث هذه الصلابة وهذا الفكر الشاذ فأنا لم أبد يوما أي شكل من أشكال العقوق نحو والدي. كما أنكما نشأتما معا فلم لا يكون عاقلا ومتزنا مثلك؟ إنه يفشل في الدراسة ويتغيب بأُستمرار عن الدروس والمحاضرات ولا نراه بالبيت إلا نادرا ويتعمد إطلاق لحيته وإطالة شعره. ولقد بت أخشى عليه مغبة أفعاله.

ظلت تعابير الحيرة والغضب راسية بناظري الكهل فيما آدم مذهول من ردة فعل الرجل ولم تسعفه لباقته في التلطيف من حدة الموقف.

ـ شدَّدْت عليه كثيرا بلومي وتقريعي ووصل الأمر بيننا إلى العراك في كثير من المرات لكن دون جدوى ولم يبق من حل أمامي سوى طرده من البيت. غير أني حكمت عقلي ولم أقدم على ذلك خشية أن أحفزه على مزيد الضياع أو على الانسياق وراء رغبات الشرذمة الفاسدة التي يصاحبها فيتسنى لنا أن نطمئن عليه حين يأوي في الهزيع الأخير من الليل إلى البيت. وهذه العودة حتى وإن كانت متأخرة تلزمه بعض الخشية وتكون له موعدا ثابتا ثبوت العادة فلا يفكر بأُقتراف أعمال تتطلب قضاء الليالي خارج المنزل.

وجه آدم نظرات مشفقة نحو جاره ثم قال:

ـ من المؤكد يا عمي أن عدنان يمر بفترة طيش من التي تنتاب بعض الشبان وسيثوب في الأيام القادمة إلى رشده ويعود لسالف عهده وأرجو أن تستعمل معه اللطف واللين حتى لا يزداد شططا في الضياع وسأحاول أن أراه لأتحدث معه بذلك الشأن.

في تلك الليلة انتظر آدم مقدم عدنان طويلا غير أن الشاب لم يظهر. فعاد إلى بيت والده حزينا آسفا لأن أمر عدنان قد حز في نفسه كما قد آلمه الكمد الذي يحسه ذلك الرجل الطيب الذي أضعفه الكبر وأتعبه خذلان وحيده له.

وضع حافظ ذؤابة قلمه وأخذ يخط ما تجود به أفكاره مواصلا ما بدأه من تدوين لخواطره أو هو في الحقيقة كان يقتفي آثار فكره الجانح وبصمات يديه المتمردتين خلال مسيرة مهنية طويلة شملت فترة هامة من حياته.

كتب:

"في هذا الكتاب سأروي أحداثا حقيقية لها صلة بأشخاص من واقع مجتمعنا غير أني لن أذكر أسماءهم إجلالا لقدسية حياة الإنسان الشخصية وسأكتفي بذكر رمز هو في الأغلب أول ما ينطق من الاسم.

بدأت الأحداث في نهاية سنة1980بفرنسا. كنت آنذاك شابا هزه الحماس وتوقدت بقلبه جذوة الشباب وكنت متزوجا بزميلتي الدكتورة التونسية "هندة بالعابد" والتي رحلت عن الدنيا سريعا وتركت لي كمّا هائلا من الذكريات الجميلة وتركت لي ولدا أشاهد صورتها في وجهه الملائكي. كنت قد عرفتها بجامعة "مون بيليي" هنا بفرنسا فجمعنا الحب وهزتنا أحلام الشباب الثائرة وآمنّا بالعلم وقدسناه وامتطينا صهوته كجواد ليس له لجام ورسمنا أمانينا وحياتنا القادمة ودافعنا عن حبنا ومبادئنا.

كانت فتاة قوية وثائرة، تستمد جمالها من عزيمتها الفولاذية ومن تفاؤلها الغير محدود ولقد أحبت العلم وكابدت المشاق وتحملت أعباء كثيرة أثناء الدراسة وعملت في غسل الصحون في المطاعم حتى توفر المال وتتمكن من الحصول على الدكتوراه في الهندسة الوراثية والعلاج الجيني. وانتقلنا بعد سنتين من زواجنا للعمل سويا بمخابر مستشفى "سان أنطوان" بباريس في التحليل المجهري للأمشاج لكن المنِية عاجلتها قبل أن تتحصل على الشهادة التي حلمت بها وقبل أن يتم ابني السنتين من عمره.توفيت إثر نزلة زكام حاد ألمت بها ورفضت حينها أن تلزم الفراش بل واصلت عملها في المخبر إذ كانت قد أوشكت على إتمام رسالتها في الدكتوراه و وتقديمها من أجل مناقشتها لدى اللجنة المختصة. آلمني كثيرا فراق تلك المرأة

الحالمة المتحدية. كانت تحلم بحلول للعاهات المتوارثة ونذرت أن تمضي حياتها في البحث والتجارب من اجل الإنسانية المعذبة بكم هائل من الأمراض الوراثية. بالنسبة لي لم يكن موت هندة يمثل موت امرأة عادية إنما هو موت عزيمة وأمل لا يوازى هذا زيادة على روحها المرحة القادرة على منح الحب لمن حولها دون حساب ودون مقابل. لفني سواد هائل بعد فقدانها وتجرعت المرارة والخيبة بعد أن مسني القدر في أقوى دعامة من دعائم حياتي وقد كانت هي الزوجة والحبيبة والرفيقة المكافحة والأم الرؤوم. ونظرت إلى الجزء الباقي منها فألفيته طفلا صغيرا لا حول له ولا قوة فحوطته بحنان دافق إذ كان أغلى ذكرى من أغلى حبيبة ومن أكمل امرأة وأقسمت أن لا أخون مبادئنا في حب العلم والإيمان به وفي خدمة الإنسانية وواصلت عملي الذي كنت أحبه بمستشفى "سان أنطوان" وقد بدأت بعض المستشفيات الفرنسية في ذلك الوقت تجري عمليات التلقيح خارج الرحم وهي ما تسمى "طفل الانبوب " وكانت العملية مجدية وتَمكن العديد من الأزواج بالظفر بنسل بعد طول انتظار وقد كانت طفرة نوعية يسجلها العلم وأحدثت صيتا مدويا عند جمهور الناس في فرنسا وخارجها حتى أني دأبت على رؤية أزواج كثيرين من تونس والجزائر والمغرب وحتى من داخل القارة الإفريقية يأتون إلى هذا المستشفى للعلاج والإنجاب.

كان منهم من يغادره سعيدا بما كتبت له الأقدار، خبر سعيد تلوح بشائره في الأفق ويملأ القلوب فرحا وتفاؤلا بحياة هانئة والبعض الآخر كان ينقطع عن المركز آسفا محزونا. كنت خلال تلك الفترة منذ ما يربو عن الثلاثين سنة أتفرس في تلك الوجوه، وجوه أناس حرمتهم الطبيعة من الفرح والسرور ومن رؤية الامتداد الطبيعي لذاتهم في الزمن. كان ذلك يحز في نفسي ويؤلمني إلى درجة جعلتني أحاول التقرب من بعضهم لأشجعهم على اتخاذ خطوات جريئة تساعدهم على الإنجاب أو

لمواساتهم عند انعدام الأمل عندهم لحالة مستعصية يشكو منها أحدهم. وقد كان ينتابني حزن شديد لأجلهم ، كنت أحزن لمرأى إنسان يتألم وقد حرم متعة الأمومة أو الأبوة وقد لمحت بين هؤلاء رجلا كان جارا لي في تونس. رأيته عدة مرات مع زوجته بهذا المستشفى وكنت عرفت بالصدفة من والدتي حين قمت بزيارتي الأخيرة لتونس أن القدر قد حرمهما من نعمة الإنجاب وذات يوم قدما إلى المخبر حيث أعمل وبدا لي أن الرجل لم يعرفني فتجرأت وخاطبته قائلا بالعامية التونسية:

ـ ألم تعرفني يا سي "م"؟

فرد الزوج باسما كأنه كان ينتظر سؤالي :

ـ وكيف لا أعرفك ؟ الدكتور "حافظ العياشي"؟

صمت لبرهة قصيرة ثم أردف:

ـ من حسن حظنا أن نلتقي بابن بلدنا بهذا المستشفى !

وقالت زوجته باسمة:

ـ سعداء بمقابلتك يا دكتور !

قلت:

ـ وأنا بدوري سعيد برؤيتكما.

ثم أضفت مستفهما:

ـ جئتما إلى هنا من أجل العلاج؟

أجابني "ميم":

ـ تزوجنا منذ ثلاثة عشر سنة ولم تحمل زوجتي خلال كل هذه المدة وقد تلقينا علاجا من عدة أطباء مختصين في تونس لكن دون جدوى فالتحاليل التي أجريناها تؤكد ضعف احتمال الإنجاب ونحن الآن هنا لنجري تلقيحا اصطناعيا وكل رجائنا أن تساعدنا مشيئة الله في نجاح مسعانا.

تدخلت الزوجة متوجهة لي بالخطاب:

ـ أجرينا جل التحاليل اللازمة ولم يعد ينقصنا سوى القليل لنجري العملية فهل تعتقد أنها ستنجح؟

لم أجبها في ذلك الوقت لكني نظرت إلى الزوج بعد أن ألقيت نظرة قارئة على التحليل المطلوب إجراءه من الجذاذة التي سلمها لي. وقلت:

ـ لا تقلق سأنظر في ملفك بعد أن يجهز هذا التحليل.

دلف الزوج إلى داخل غرف المختبر في حين جلست زوجته أمام مكتبي. ارتسمت آثار إجهاد السنوات الماضية على وجهها وقد بدا جليا أنها في العقد الرابع من عمرها أو أنها قد تجاوزته بقليل.

سألتني مجددا:

ـ هل تعتقد أن هناك أمل يا دكتور؟

فقلت وقد آلمتني حيرتها:

ـ لا يجب أن تقلقي فالطب يشهد تطورا هائلا وأكيد أن الأمل يظل قائما.

قلت ذلك بينما أعلم أن العديد من الحالات تحال إلى إجراء التلقيح الاصطناعي مع أن الأمل في نجاحه منعدم وكان هذا أكثر ما أخشاه في حالة هذين الزوجين فقد حز أمرهما في نفسي. وقد يكون لحيرة المرأة الحزينة الجالسة أمامي أثر بالغ في ذلك ومع أنها لم تخبرني بمعاناتها أو حرمانها لكن عينيها كانتا تتحدثان عن ألم كبير وعن دموع كثيرة ذرفت، وعن آهات خرجت كحمم من جوف السعير، عن عطش رحم تاق إلى احتضان جنين، عن احتقان أثداء اشتاقت إلى شفاه طفل، عن حلم توقف قبل أن يتحقق.

امرأة تجلس أمامي كجذع شجرة بترت عنه أغصانه وجف حتى صارت الرياح حين هبوبها تحدث بداخله صوت زفير، إنه زفير الخواء.

يا لَ الأعجوبة !! المرأة رمز الحياة والخصوبة تصير خواء ينبئ بالعدم ! المرأة، الخصب، الرواء، التناسل، التواصل، الامتداد، التكاثر، تصبح نقطة نهاية، لحظة منقضية، كائنا

يقترب من ساعة الصفر، ساعة الانفجار، ساعة الموت، دون أن يملك أية قدرة على تغيير حتمية القدر.

كل منا يحس أنه هزم الموت والفناء حين يرى ذاته تتكرر في ذريته. لكن هذه المرأة بل هذين الزوجين بل كل هؤلاء الذين منعتهم الطبيعة من حقهم في التواصل يموتون كل يوم ويستهلكون لحظات أعمارهم دون أن يتركوا بذورا يجابهون بها الموت والاندثار.

اكتشفت حينها أن العقم فناء، وباء فاتك بالبقاء، شلل للحياة. وتساءلت هل يعيش هؤلاء الموت أم يموتون أحياء؟ وأُرتسمت بعقلي صورة أخرى مفزعة للعقم عند البشر. تراءى لي مرضا عضالا يفتك بأصحابه حتى يرديهم إلى حفرة الموت بعد طول عذاب وعناء. أ فلا يمكن فعل شيء؟ هل نترك الوباء ينخر حياتهم حتى الهلاك دون حراك؟ دون إجراء منقذ؟

برز السيد ميم من آخر الممر يجر أذيال همومه، شعور من الضعف والهوان يكاد يبطش به . لقد كنت أرى قصة كل فرد من هؤلاء مرسومة على تقاسيم وجهه، رحلة من العذاب والاستجداء المستمر، يستجدون عطف العلم بعد أن قست الأقدار وأعلنت حكمها الجائر. هل يجب على رجل مثل "ميم" أن يضيع سنوات عمره في أروقة المستشفيات؟ إنه أحد هؤلاء الذين يقصدون المستشفى حاملين آلام السنين مخزنة بوجدانهم، آلام الإجهاد في تحمل الحرمان من الحق الطبيعي في التكاثر. هؤلاء يشقيهم العذاب في إجراء التحاليل والفحوصات والعمليات والانتظار ومكابدة فضول الطفيليين وأعين الإطار الطبي والعاملين ويمضهم الصبر الطويل الذي يعقبه الفشل في كل مرة. كل ذلك يتحملونه من أجل أن يسعدوا برؤية جزء منهم يدب على سطح الأرض. وأجرى عقلي عملية مقارنة بسرعة الضوء بين ما يتكبده هؤلاء وبين المتعة التي تسبق عملية الخلق عند الآخرين، برهة زمنية من النشوة الجسدية والروحية تسفر عن جنين في حين أن أياما وسنينا من العذاب

والتشنج والانتظار والمعاناة قد لا تؤدي إلى نفس النتيجة عند هؤلاء وعليهم أن يضحكوا ويتفاءلوا وأن لا يفقدوا الأمل وأن لا يتذمروا أو يشتكوا وأن يظلوا محافظين على رباطة جأشهم ورصانتهم ووقارهم حتى في حال إحراجهم من قبل بعض الفضوليين.

ذلك فعلا ما يجب أن يكون. لكنه في الحقيقة أمر صعبٌ ، صعبٌ أن تحافظ الأنفس الكسيرة على توازنها في ظل الألم والشقاء والخنجر القابع بغور الصدر.

كل هذا حز في نفسي وآلمني وتذوقت مرارة عذاباتهم كما لو كنت أشاركهم الحالة ذاتها.

الحلم الغريب ! هاهو يعود إليها، يقض مضجعها ، يسبغ الدهشة على حياتها. لمَ رأت نفسها بذلك الشكل وعلى تلك الحال؟ هل ترفض حقيقتها؟ كيف يحدث ذلك وهي التي تمكنت من نحت اسمها بحروف واضحة وكبيرة في دنيا الفن وهي التي أحب الجميع غناءها رغم غموض كلماته الأشبه بالهذيان ! ورغم خلو أغانيها منأية نزعة فكرية أو عاطفية أو سياسية و من أي إغراء أو تلميح لرغبة الجسد وشهواته ! وقد نعتها جل النقاد في المجالين بالوجودية لكنها نفت أن يكون لرسومها أو لأغانيها أية مقاصد وجودية. بل إنها هزأت بآراء أشهر الفلاسفة، أخلاق "كانط" ووجودية "سارتر" ومثالية "أفلاطون" وعقلانية "ديكارت" . كل هذه التيارات الفلسفية لم تعنها أبدا بل كان كل ما يأسر اهتمامها ويسيطر على حياتها هو جنونها الذي صار أفيونا تتعاطاه فينسيها همومها ويكسبها روحها المبدعة والعابثة في ذات الآن. لكن الأفيون يضعف تأثيره أحيانا فيفسح المجال للعقل الباطن ليفجر حين تسنح له الفرصة كل آلامه المكبوتة.

من حين لآخر كانت هذه التغييرات تطرأ على حال سارة فتضعها في ازدواجية غريبة تترجم عن عقل واع مجنون وآخر باطن ينزف ألما ويختزن عقدة تعشش بداخله مثل ورم خبيث أو مثل شيطان يتحكم بها ، يدفعها إلى أمور ويمنعها عن أخرى . ورغم أنها استماتت في تغييب هذا الورم وهذه العقدة إلا أنها استطاعت الإفلات منها أحيانا والصعود إلى سطح الوعي . وتجاوزت عتبة الـ "هو" نحو الـ"أنا". فكم مرة عاودها ذلك الحلم الذي يضم حقيقتين متصادمتين تتنازعان بداخلها، الحقيقة الواقعة فعلا وحقيقة ما يجب أن يكون. وترى نفسها التي طالما تعذبت تنعم بالراحة والاكتفاء والرضا لكنها تتأرجح بين صورتيها المتضادتين. وفي كل مرة كانت تصحو من هذه الرؤيا فتتجدد حيرتها وتتأكد أنها لن تستطيع نسيان عقدتها مهما فعلت ومهما ابتعدت ومهما أوغلت في الجنون

والتمرد. ويعود إليها السؤال: لمَ اختارها القدر لتعيش هذه التجربة المؤلمة؟ وتتذكر حينها الاعتقاد الذي ساد بذهنها عندما بلغت المراهقة بأنها لقيطة حتى فجرت ذات يوم صمتها في وجه أمها وأنكرت عليها أمومتها بكل قسوة ومنعتها من أن تتدخل في شؤونها. كم كان ذلك الاتهام قاس على قلب المرأة لكنها تحملته بجَلَد وإشفاق وقدمت لها كل الأدلة التي تملكها لإقناعها بصحة بُنُوَّتها، وثائق تثبت حملها وما أكثرها ! وتأكدت الفتاة أن الوثائق صحيحة وقد وقفت على دقة تأريخها ورأت أن صور الصدى تضمنت في بياناتها لحظة إنجازها ويومه ورأت مختلف المراحل التي مرت بها منذ كانت دائرة صغيرة مظلمة في رحم أمها حتى صارت بآخر أيام الحمل كائنا بشريا واضح التفاصيل ثم رأت صورتها إثر ولادتها بساعات بمهد صغير بمصحة "سان أوغيستان" حذو سرير أمها وقد كانت رضيعا أسمر اللون ضئيل الحجم.

في ذلك الوقت أنبها ضميرها حين لمست الصدق في كلام أمها وأحست بمحبة جارفة تكتسحها نحوها لكنها لم تندم على إظهار تلك الشكوك بل وجهت لها سؤالا جارح كحد سكين:

- كيف تحملت لمدة تسعة أشهر قطعة لحم سوداء تعشش بأحشائك؟

مرّ ذلك اليوم وعادت البنت إلى الانكماش على نفسها من جديد ترمم شقوقا انفتحت بداخلها وتحاول السيطرة على جموح أفكارها لكن الدّمّلة التي تكونت بقلبها ما فتئت تكبر وتثير بنفسها زوابع وعواصف لا قبل لقلبها الفتي بتحملها. وأخذ عقلها المرهق يصور لها هواجس أخرى وشكوكا أكبر من الأولى فقد آلت الأمور عندها إلى القدح بشرف أمها وصورت لها هلوستها أن تكون ابنة علاقة آثمة أقامتها مع رجل أسود. هل يمكن ذلك؟

إنها تسترجع تلك الشكوك كلما فكرت بأمرها الغريب وكلما حلمت ذلك الحلم وتتذكر كيف احتدمت العاصفة بداخلها حتى صارت عاجزة عن الأكل والنوم وامتنعت عن التردد على المدرسة وكرهت النظر في وجه والدتها خشية أن تحدجها بنظرة احتقار وسيطر الهم والكدر على حياتها حتى جاء يوم عادها فيه والدها وسألها عما يحيرها ويكدر صفوها.

كانت تصمت وتدير وجهها كلما أنهى خطابه معها بكلمة "ابنتي" وتتردد العبارة بداخلها: "ابنته ! مسكين !" وترجته في ذلك الوقت أن لا يسألها عن حالها ولا عن سبب اغتمامها لكنه أصرّ على ذلك حتى انفجرت الدّملّة تسيل قيحا عفنا ولا يمكنها أن تنسى كيف استاء والدها من ظنونها وعاد يرمّمُ من جديد صورة امرأة رمتها ابنتها بأقبح الاتهامات وأوضح لها أن الأمر لا يعدو عن طفرة وراثية قد طرأت على تركيبتها الجينية وجعلتها تختلف عنهما في لون البشرة وفي بعض الخصائص الوراثية.

مرت الأيام وتعافت سارة من الوساوس التي كادت تقضي عليها وعادت تمارس أنشطتها اليومية لكن الحزن ظل يعتم حياتها رغم كل ما جرى وظلت تنقله إلى رسومها البدائية ألوانا قاتمة وإلى ترانيمها الشاذة التي تمارسها في لحظات انزوائها وخلوتها أصداء من حرارة نفسها التي تعتمل كمرجل وحين جاوزت المرحلة الثانوية من دراستها وقررت أن تهاجر إلى أمريكا والآن هي في نظر الناس فنانة حقيقية لكنها في نظر نفسها امرأة فاشلة لأنها هربت من واقعها. وغالبا ما ينتابها إحساس بأنها مثل غصن معوج بتر من شجرته فسقط وانغرز بالأرض دون أن يمد جذوره أو يورق بل ظل ناتئا يجرح كل من داس عليه.

توالت الأيام وهي أسيرة لجنونها وهذيانها وظن الناس أن ذلك من تأثير الفن فقد دأبوا على رؤية النجوم يمارسون التقاليع الغريبة ويأتون الشاذ من السلوك وأغلبهم كان يريد أن يجعل

من نفسه أسوة للشبان والمراهقين وفي المقابل لم تفكر هي بذلك مطلقا بل سعت إلى إخراج ما بباطنها من اعتمالات لتشعر ببعض اللذة وتغيب بعض الشيء عن عقدتها فأُنغمست في عالمها ترسم "التابلوهات" الثائرة وتطلق عليها الأسماء الغريبة مثل أشهر لوحتيها "نار الهذيان" و"دموع الأرض".

و رغم أنها كانت تخرج ما بباطنها فقد ظلت بداخلها نواح غير مكشوفة لديها تتبدى لها كسراب في يوم قائظ وحين تحاول سبر كنهها تكتشف عجزها ففكرت بمراجعة أخصائي نفسي بشأن الحلم الذي تكرر بمنامها عدة مرات و لم تفهم التناقض الكامن به. خرجت يوما من بيتها دون أن تعلم أحدا بوجهتها وقصدت عيادة طبيب نفسي واقعة بمكان هادئ ب"بروكلين"وكان ذلك منها مقصودا حتى تبتعد عن أعين الرقباء. حدث ذلك في ضحى أحد أيام الشتاء الباردة بعد أن استقرت بمنزلها الجديد.

ركنت سيارتها حذو رصيف إحدى البنايات وقد غمره الثلج ثم ترجلت بخفة فتلاعب نسيم شديد البرودة بالوشاح الأسود الذي لفت به رأسها ملامسا نظاراتها العريضة السوداء. أسرعت بولوج البناية وصعدت إلى الطابق الثالث مستخدمة المصعد. وقفت أمام الموظفة المسؤولة عن تسجيل البيانات. أحست بنشوة الدفء تسري في أوصالها.

سألتها المرأة:

ـ الاسم من فضلك ؟

ردت سارة بصوت منخفض:

ـ "كارولين وُولكن" وعمري خمسة وعشرون سنة. أقطن ب"منهاتن".

دونت الموظفة البيانات على شاشة حاسوب أمامها وطلبت منها الجلوس للانتظار.

بعد قليل أذنت لها بالدخول على الطبيب. دخلت المرأة الشابة إلى قاعة الكشف وبذهنها إصرار وحزم كبيرين على التمسك

بالتعليمات التي أملتها على نفسها عندما قررت استشارة الأخصائي .
كانت القاعة دافئة وأبصرت أمامها شابا أبيض البشرة ذا وجه صغير مربع وقد تهدلت على جبينه خصلات من شعره الكستنائي الناعم. مد يده مُسَلما عليها وأشار لها لتجلس. جلست ثم خلعت النظارات السوداء ووجهت إليه نظرة ثابتة لترى ردة فعله. لم يظهر على وجهه أي انفعال أو استغراب لرؤية وجهها فداخلها إحساس بالراحة لذلك.
سألها:
ـ آنسة أ ليس كذلك؟
ـ نعم.
ـ و مهنتك؟
ـ حاصلة على الإجازة في الرسم وأعتبر نفسي رسامة هاوية.
ـ هذا جيد... وسبب الزيارة؟
ـ هو حلم غريب يراودني أثناء النوم وتكرر عدة مرات وبنفس التفاصيل.
ـ ترين هذا الحلم أثناء النهار أم في الليل؟
ـ في الليل، دائما في الليل.
ـ قصي علي هذا الحلم بكل تفاصيله ثم مديني ببعض الإشارات عن حياتك وعن مسائلك العائلية والعاطفية وعن طفولتك.
قال ذلك ثم نهض وأشار عليها بأن تتمدد على سرير في الناحية الأخرى ثم ضغط بعض الأزرار بجانبه فانبعثت موسيقى هادئة سرت بأجواء القاعة.
خلعت سارة معطفها وعلقته في حمالة ثياب ثم تمددت على السرير الطبي المريح.
قال مجددا:
ـ حدثيني عن نفسك آنسة !
سكت قليلا ثم أردف:
ـ "وولكن" "كارولين وولكن" أليس كذلك؟

ـ اسمي "بيتر برونسون" ويمكن أن تناديني "بيتر". والآن تحدثي يا كارولين ! هل تعيشين مع أسرتك؟
ـ أعيش بمفردي.
ـ والداك بنيويورك؟
ـ إنهما مستقران بالمغرب العربي وقد جئت لدراسة الرسم.
ـ ولِمَ أليس هناك ببلدك العربي جامعة فنون؟
ـ نعم ... أقصد هناك جامعات كثيرة لكني فضلت الدراسة هنا فقد كنت أحلم منذ طفولتي بالغرب وبأمريكا وشدني الغناء الغربي كما باقي الفنون من رسم ونحت. كل شيء هنا كان يغريني بالمجيء.
ـ جئت إلى هنا من أجل الفن؟ هذا أمر جيد إذا اعتبرنا الفكرة السائدة بأن العرب يأتون في الغالب إلى هنا لممارسة الإرهاب. أنت قد كسرت القاعدة المألوفة.
تجهمت سارة من هذا الرد ونظرت إلى الطبيب نظرة انزعاج لكنها لم تعلق بأي حرف.
لاحظ الطبيب امتناعها عن التّعليق على قوله الأخير فواصل ما بدأه معها من استفسار:
ـ تقولين أن الغرب قد شدك بغنائه وفنونه. يبدو أنك تحبين الغناء.
فوجئت سارة بتعليق "بيتر برونسون" فأخذت تنظر إليه مشدوهة صامتة ثم قالت بلهجة أربكها بعض التلعثم:
ـ أحب الغناء لكني أحب الرسم أكثر.
ـ هل لديك إخوة يا آنسة "وولكن"؟
ـ أنا وحيدة والديّ.
ـ وكيف سمحا لك بالهجرة مع أنك وحيدتهما؟
ـ كنت مصرة على الدراسة هنا.
ـ في اعتقادي أن العرب يمارسون حصارا على المرأة فكيف أفلتِّ؟
ـ إن عائلتي متحررة ومع ذلك فقد رغبت في الهجرة معي.

ـ هل كانت مسألة هجرتك سهلة؟ أقصد كيف جابهت مصاريف دراستك وإقامتك هنا؟
ـ كنت أبيع رسومي حتى أوفر المال.
ـ إذن عولت على موهبتك. أنت رسامة بارعة بلا شك.
سكت قليلا ليزم شفتيه القرمزيتين ثم أردف:
ـ قلت أنك من بلد عربي لكن اسمك لا يدل على ذلك.
اكتسبت نظرته إليها قوة وسخرية في الآن ذاته لم تستطع أن تتحملها فأشاحت بوجهها وظلت صامتة لبرهة تفكر بكيفية الخلاص من الورطة التي أوقعها فيها غباؤها.
قالت:
ـ نحن لسنا عربا إنما كان مستقرنا بشمال إفريقيا من أجل عمل والدي.
ـ أنت أمريكية؟
ـ نعم أنا...أقصد...
فقاطعها "برونسون" قائلا:
ـ أنت سارة ! أنت المغنية الشابة ذات الأصول العربية التي تغني وترسم.
رفعت حاجبيها مندهشة وقد أربكتها المفاجأة ثم أرخت رأسها على صدرها وشبكت أصابع يديها وأخذت تعبث بها .
ـ لا تقلقي لن أفشي سرك. كلميني الآن بأكثر صراحة عن حياتك.
قالت بصوت هادئ :
ـ إنه حلم تكرر معي عدة مرات.
ـ هل يتعلق بأمور إرهابية؟
أرسلت الفتاة نظرة زائغة إلى السقف وقالت:
ـ لا بل أرى أنني أسير في قاعة فسيحة بها إضاءة عالية وجمع من الناس بين جالسين وواقفين، نساء ورجال وأعينهم مثبتة عليّ وأرى نفسي أختال بفستان أبيض جميل موشح باللون الفضي وأجد نفسي مختلفة تماما عما أنا عليه. أقصد أنني...

نظرت إليه نظرات قلقة متوترة ثم عادت لتوجه بصرها إلى الأمام وخرج الكلام من فمها كالمغتصب:

ـ أرى أنني فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين كقطعة من السماء وأسير بينما نظرات الإعجاب منصبّة عليّ و تسيطر عليّ فكرة أن الاحتفال مقام لأجلي. وعندما أصل إلى وسط القاعة أشاهد شخصا يقترب مني و يلتصق بي ثم نسير سويا وقد طوقني بذراعه ضاغطا عليّ فيكتنفني شعور بالأمان. نتجه في الأثناء نحو سلم عريض ونصعده خلال ذلك ألمح بنظراته شعاعا دافئا يغمرني ويؤنسني. ندخل غرفة فيطوقني بذراعيه ويمرر أصابعه على خدي فتعتريني رعدة وأخْتَلجُ بين يديه ثم يعانقني ويسر لي بكلام غريب. يقول: "أحبك يا سمرائي، أحب لون بشرتك البرونزي الدافئ والليل في عينيك " يدهشني كلامه وقد رأيتُني بيضاء البشرة زرقاء العينين، ومع ذلك لا أعلق بأي حرف.

توقفت عن الكلام لترسل نظرة إلى الدكتور الذي كان يتابع حديثها بكل انتباه ثم واصلت قائلة:

ـ عندما أصحو أسترجع مراحل هذه الرؤيا وأتساءل لماذا يراني الرجل سمراء ويخاطبني بناء على ذلك؟ أو في الحقيقة لماذا أراني شقراء؟

أطرقت بضع لحظات ثم نظرت إليه:

مرر "بيتر برونسون" يده بعجالة على شعره وعاد ليضعها على فمه وهو يقول:

ـ الأمر ليس بتلك البساطة. للوهلة الأولى يبدو احتفالا بزفاف وقد كنت العروس.

ـ وماذا بشأن اعتقادي بكوني شقراء؟

ـ ربما تختزنين بالـ "لا وعي" عقدة عرقية.

قال ذلك ثم زم شفتيه ورفع حاجبيه في حركة سريعة في إشارة إلى أن ما قاله بديهي.

تناهت كلمة العقدة إلى مسامع سارة فردت بانفعال:

ـ ولماذا أخزن عقدة عرقية؟ أحب جلدتي السوداء و راضية بوضعي تمام الرضا.
ـ أنت لا تعين رضاءك من عدمه وعلم النفس يقوم على تحليل ما يختزنه الـ "هو" أو الـ "لا وعي" من عقد باطنية خفية لا يعيها الإنسان في لحظة إدراكه ووعيه، وغالبا ما ترتبط بوقائع من الماضي البعيد وتؤثر أحيانا على الرؤى أو على بعض التصرفات الحدسية. وقد نرى في كثير من الأحيان أشخاصا يتساءلون عن سبب ارتكابهم لسلوك معين مع أنهم لم يقصدوا إلى فعله.
صمت ينظر إليها ثم قال:
ـ هل عشت أحداثا أليمة بطفولتك؟ هل مارس عليك أحدهم ميزا عنصريا؟
نظرت إليه سارة بعينين أوسعتهما الحيرة ثم قالت:
ـ طفولتي كانت عادية. لم أعان من أي اضطهاد.
ـ والحي الذي كنت تقطنين به؟ هل كان سكانه من السود أم من البيض؟
ـ أغلب العرب من ذوي البشرة السمراء.
قالت سارة ذلك بينما تعلم أنها تحجب الحقيقة فجل سكان حيها في العاصمة التونسية من ذوي البشرة الفاتحة.
رفع "برونسون" حاجبيه استغرابا وهو يقول:
ـ وماذا عن المراهقة وبداية الشباب؟
ـ عشت مراهقة عادية فقد كانت لي هوايات قضيت أغلب أوقاتي في ممارستها.
ـ تقصدين الرسم والغناء؟
ـ والأصدقاء؟
ـ لم أكن أحب الصداقات و الخروج من البيت. وحافظت على عاداتي السلوكية عندما جئت إلى أمريكا.
كان "بيتر برونسون" يسجل ما يراه مهما في حديث سارة بحاسوب محمول.

ـ هل تدخل والداك في شؤونك؟ وهل كانت لهما طموحات كبيرة بشأن دراستك؟
ـ لم يحاولا ثنيي عن هواياتي كما أن معدلاتي لم تكن تبشر بأنني سأكون عالمة.
ابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تتلفظ بالعبارة الأخيرة.
صمتت الشابة فأطلق "برونسون" زفرة وقال:
ـ لماذا تضطريني لطرح الأسئلة؟ تحدثي باسترسال عن حياتك.
نظرت سارة أمامها نظرات خالية من أي تعبير ولم تنطق بأي حرف.
فسألها بلهجة حازمة:
ـ والجنس؟
اضطربت نظرات الفتاة وأخذت تحاول إخفاء يديها بين طيات قميصها الشتوي.
لاحظ الطبيب ارتباكها فأضاف:
ـ هل جربت الجنس؟
كانت سارة لا تزال تنظر إلى أصابعها العابثة بالثوب بعيون خفِرَة خجلا ثم قررت أن تتكلم عندما عرفت أن لامناص من الإجابة:
ـ لم أجربه.
رفع الطبيب المختص حاجبيه وقطب جبينه مستنكرا ثم قال:
ـ والرجل الذي رأيته بمنامك؟ هل هو من السود؟
ـ لا أعرفه ولا أذكر جيدا لون بشرته أعتقد أنه كان ذا سمرة خفيفة.
أغلق "برونسون" ملف سارة بحاسوبه وقال:
ـ كفاك اليوم وسنكمل ما بدأنا في جلسة لاحقة فأي يوم تختارين؟
لم تحر سارة جوابا فأردف:
ـ حسنا لن أقيدك بموعد. عودي حينما تستشعرين رغبة في الكلام بشأن حياتك وحاولي أن تغوصي في ذكريات طفولتك،

تصفحيها كما تتصفحين كتابا وحين تعود إلى خيالك صور لحادثة ما، أسرعي إلي سأكون مسرورا بالاستماع إليك. وإن أردت الاتصال بي لاستشارتي فهذه كل أرقام الهاتف الخاصة بي وعنوان بريدي الإلكتروني.

قال ذلك وناولها بطاقة صغيرة بها بيانات تخصه وتخص عيادته.

نهضت سارة من رقدتها وقالت قبل أن تنتصب واقفة:

ـ والحلم ! ما هو تفسيرك له؟

ـ كونت فكرة حول الجزء الثاني من حلمك لكن بخصوص ظنك بأنك فتاة شقراء فذلك يتطلب مني معرفة المزيد عن حياتك... وإذا أردت نصحا مني خبّرتك أن العزلة لفترات مطولة تضر بالإنسان فحاولي أن تتخذي أصدقاء تلتقين بهم أو صديق لمَ لا؟

ردت سارة وهي ترتدي معطفها على عجل:

ـ سأحاول.

نظر آدم إلى الفتاة الفرنسية الجالسة إلى مكتبها قبالته. الزُّرْقَة في عينيها تذكره بالصقيع والجليد لكنها تتطلع إليه بنظرات محبة نهمة. إنه يعرف أنها تهواه، تهواه بجنون منذ التقت به أول مرة حين بدأ العمل بهذه الشركة. اقتربت منه، حادثته، فنشأت بينهما صداقة اقتصرت في البدء على الأحاديث السطحية واللقاءات العابرة ثم سرعان ما تعدتها إلى التحام الأجساد. كانت تعشق سُمْرَته و عروبته. غير أنها لم تمثل في نظره أكثر من جسد أبيض ينضح شهوة. لم يخفق قلبه بحبها أبدا ولم تنجح عطورها الثمينة في النفاذ إلى مكامن شعوره وكانت هي على عكسه تزداد كل يوم به هوسا. كان صمته الساهم وحركاته الرصينة تزيد من افْتِتَانها به وانتظرت دوما أن يبوح لها بحبه لكنه لم يفعل. استخدمت كل سحر جسدها وفتنة أنوثتها لتصل إلى امتلاكه بيد أنه بقدر ما كان يقترب منها وينصهر بداخلها في لحظات النشوة بقدر ما كانت نفسه تسبح في فلكها الخاص بعيدا عنها فلقد عشق مثلها سحر الشرق، إنه ابن الشرق ومنه انطلق وله يعود.

طلبت منه مرة أن يحدثها عن شرقه فقال بلغة عربية فصيحة كأنه يناجي نفسه:

"الشرق هو جنون الروح و هلوستها وهذيانها، هو الحب الصارخ، هو الحلم الراقص.

سيعود عقلي التائه إلى هناك، إلى حيث حفيف الخيال، إلى حيث جمال الوجود يَسْبَحُ في لجة شعاع ذهبي، يرفرف كطائر، يُسَبّحُ كشدو إلهي، كسحر أزلي، كدمع مغسول بطهر ملائكي.

سأعود إلى هناك فقلبي مسكون بهاجس الحب، برَجْفَةَ الشوق، بآهة الحنين، بعزف لحن الغائبين، بهزة روح العاشقين، بنبرة زفير المحرومين.

هنا الأسقام الضائعة في غياهب السنين تلفني بصرخة غائرة كسواد العدم . تضيع روحي كضوعة عطر جميل في دخان المحارق. وهنا الأشواق الدفينة والآهات والألم تنتظم كلها

مفردات ذابحة في مجلدات ذاتي، تنتشلني من نفسي، تعبث بي، تغريني لأتوه في موطن الأفول. لكني سأعود لأسير في دروب الشوق بهوس نفسي الحالمة وسأصل إلى مرفئي الأخير: الشرق، موطن الحب و النور.

يذكر أنها في ذلك الوقت استمعت إلى كل ما قاله بانتباه شديد رغم أنها لم تفهم اللغة وارتسمت الدهشة على وجهها ثباتا طال الجليد في عينيها الباردتين ثم أبدت إعجابها بما قال معلقة:

ـ كلامك يشبه الشعر من المؤكد أنك اشتقت كثيرا إلى بلادك وإلى شرقك الساحر.

و أعقبت كلامها بلحظات من الصمت ثم قالت:

ـ خذني إلى هناك يا آدم ! أريد أن أسير حافية على الرمل الساخن. أريد أن تلفح وجهي أشعة شمسكم الحارقة وأن أستنشق معك رائحة الأرض العتيقة. خذني هناك حتى تجف الرطوبة من عظامي حين أستحم في البحار الحارة وحتى أتعطر برائحة البخور والعنبر والند. كم أود أن أنظر هناك في عيون دافئة مثل عينيك تدثرني بالنظرات الحالمة والمُحبة وأن أتجول في غابات النخيل الباسق كأميرة خرجت تغزل حلمها قصة حب ساحرة مع فتاها الشرقي وأن أتنسم هواء الصحراء يحمل إليّ حكايات من ألف ليلة وليلة وأن أثمل في عبق المباخر والعطور المتصاعدة من الزوايا العتيقة ومن الخدور الغارقة عشقا.

اخترق رجاؤها مسامعه و أعلنت عيناه نظرة استنكار لكن شفتاه عبرتا بابتسامة فاترة مستخفة وعلق بصوت كالتقريع على مطلبها:

"هل تريدين أن تذهبي إلى هناك؟ أن تعيشي كبطلة من قصص ألف ليلة وليلة؟ تريدين أن يكون لك عشيقا عربيا تنتظرينه في خدرك كل ليلة وقد أسكرتك رائحة الصندل والند والعنبر؟

تريدين أن تمشي في الصحراء حافية وتتعقبين حكاياتها المثيرة المتخفية وراء كثبانها كالظلال؟

ألا تخافي الذبح؟
أ لم تعرفي بعد أن العرب إرهابيون؟ تريدين الذهاب إلى أرض الفوضى والخراب؟ بلد يسير فيه الأفراد محملين بكتل من المتفجرات باحثين عن فرائس يصطادونها؟ ألم تعلمي أن رب العائلة العربي ينتظر أولاده كل مساء ليعرف منهم عدد الضحايا التي نكلوا بها؟
و كيف تتحدثين عن دفء الشرق ورائحة البخور والند وليس ثمة هناك سوى رائحة الدماء ؟ ولاحرارة غير وهج القنابل والمتفجرات؟ كأنك في عزلة عما يحدث حولك؟ !!
أفيقي أيتها الفرنسية فما عاد أحد من قومك يرى الشرق بهذه الصورة التي تعيش في خيالك.
كانوا فيما مضى يرونه كثبانا رملية وجِمالا وخياما وحكايات مثيرة عن جواري وراقصات وأميرات وسبايا وتراث من الكبت والعطش إلى الجنس عند أناسه الحمقى السذج. أما الآن فصاروا يرونه رشاشات وقنابل ومتفجرات تتلهى بها الأيادي الخشنة لهؤلاء السذج الذين يختزنون رغبة جامحة في الثأر من ذوي العقول الناضجة والغرائز المنظمة. غير أن ذوي العقول الناضجة طمعوا في ما بين أيدي أولئك السذج، بدو لا عقول لديهم وليس لديهم غير بطون وغرائز يسعون لإشباعها، ولا يقدّرون فضل العقلاء عليهم، هؤلاء الذين يحتاجهم الشرق ليحل بحلولهم العدل والحرية والديمقراطية والأمن والحضارة."
يذكر حينها أن ما جهر به أثار بنفسه أحزانا مكبوتة أحسها خنجرا مسموما يخترق قلبه ونظر إليها من تحت حاجبيه ليقول مجددا بينما ارتسم الألم في عينيها سكونا صامتا:
" تريدين أن تذهبي إلى هناك؟ إلى حيث الجهل والتخلف والكبت والوحشية؟

أليس هذه أرض العرب عندكم؟ مزبلة تلقون فيها كل نفاياتكم؟ من قال أنها مهبط الديانات السماوية؟ من قال أنها شهدت ميلاد أول دستور بالتاريخ دستور "حمورابي" في بلاد الرافدين و أول كتابة خطها الإنسان؟ من قال أنها منبع الحضارة و قد ضمت الحضارة الفرعونية والحضارة البابلية؟" و ضمت "قرطاج" القوية التي سيطرت على التجارة العالمية والتي كان يهتز لذكرها كل روماني.

وبعد صمت لحظات سمع لهجته تزداد حدة وسخرية وهو يقول:

" لا ! العرب هم الهمجية و الرق و الاستعباد، يستعبد الأسياد العامة ويستعبد الرجل المرأة.

يسترجع الآن صورة "ناتالي" وقد امتقع وجهها وخفضت عينيها. تحملت حدته وتأنيبه وتقريعه دون أن تعترض أو تحاول المدافعة عن نفسها أو عن مواطنيها أو عن الغرب. هل تراها أحست بالذنب والخزي؟ أم قد جابهت الأمر بلامبالاة؟

كم تمنى لو أمكن له أن يغوص في سريرتها حتى يعرف موقفها !

سوَّت سارة الوشاح حول رأسها ووضعت نظاراتها الشمسية على عينيها ثم صافحت الدكتور "برونسون" وخرجت إلى البهو لتتناول الموظفة أجرة الكشف نقدا حتى لا تتعرف على هويتها. وحين همت بالخروج شاهدت وجها شد انتباهها، خيل إليها أنه وجه الشاب الذي رأته في حلمها المعاد... خرجت وامتطت سياراتها و سخرت من ظنها حول الشاب الذي لمحته فلا شك أنها مضطربة جراء الحوار الطويل مما جعلها تتوهم واستعرضت تفاصيل حديثها إلى الطبيب. ترى هل كانت محقة في تكتمها حول ماضيها؟ و هل أقنعه ما ادعته حول أسباب عزلتها وانعدام تجاربها العاطفية؟ بَيْدَ أنه لم يفسر لها التناقض الظاهر في ذلك الحلم وقد رأى فيه عقدة عرقية.

تسلل شعور بالأسف والحسرة إلى قلبها إذ لو كانت تنتمي إلى أصول سوداء كما يعتقد هو لما أحست بالمرارة التي ظلت تتجرعها في مختلف مراحل حياتها ولكانت تقبلت وضعها مثل كل السود، وما كانت على الأقل لتتنكر لأصلها. ولكن أن يكون حالها مختلفا عن حال كل البشر ـ سوداء ابنة للبيض ـ فذلك من أشق الأمور على النفس.

عادت إلى بيتها في ذلك اليوم البارد واحتجبت عن الناس. تقوقعت على نفسها لتتجرع غصتها وتحاول أن تلملم جراحها التي عبثت بها الأيادي مجددا ولم ترسم ولم تغنّ فقد خير الوحش القابع بداخلها أن يتألم في صمت هذه المرة ولم يشطح بها شطحاته الهستيرية على الورق أو على المسرح ذلك أنه منشغل برأب ما تصدع في "امبراطورية" الوهم التي شيدها حول ذاته وهو محتاج إلى إعادة تخدير لجراحه القديمة. وقد لجأت إلى طبيب نفسي فإذا به يُحدث بداخلها رجة تخطت

العقل الباطن نحو الوعي والإدراك، ويوقظ فيها سعيرا سعت بكل جهدها إلى إخماده إذ وجدت نفسها للمرة الأولى بحياتها في مواجهة مباشرة مع شخص يتقصى عن أمور مربكة بحياتها وقد كان رجلا في أوج الشباب، اكتشف ضعفها وتصفح خبايا نفسها بل اكتشف خوفها وجبنها عن أن تقيم علاقة حميمة مع شاب أو حتى سطحية ! وطلب منها أن تعود لزيارته، لماذا؟ ليواصل كشف عقدتها ويزيد من ضعفها عوض أن يعالجها؟ لن تعود إليه. لن تخشى ذلك الحلم مجددا فهي أدرى الناس بنفسها. إن ما تراه بالحلم ليس بدافع العقدة أو الحسرة إنما لأن ذلك ما يجب أن يكون فعقلها هو الذي صور الحلم، عقلها الذي طالما تفكر بحياد الحتمية الوراثية عن مسارها الطبيعي مما أدى لإنجاب سوداء من قبل أبيضين. فما ذلك إذن سوى صورة من صور التفكير انعكست بأحلامها وما عليها الآن إلا أن تطوي تلك الصفحة وأن تعود مجددا لممارسة طقوسها.

وصادف في هذه الفترة أن زارتها أمها فكرهت أن تراها بذلك الضعف فتحاملت على نفسها متناسية ما جرى معها في حجرة الكشف وراحت تحيي حفلا بمقاطعة فلوريدا فغنت في محاولة لإخراج كل ما بأعماقها من تشنج وأدت شطحاتها الشيطانية الملتهبة وظهرت على الرُّكح بزي غريب لم يتناسب مع لون بشرتها وشكل جسدها تمثل في بنطلون جلدي أسود اللون ملتصق بجسدها وقميص بني طويل ذو قصة رجالية وأكمام طويلة وأزرار معدنية كبيرة.

كانت كلثوم تشاهد ابنتها لأول مرة تغني على ركح مسرح كبير و قبالة جمهور غفير. أعجبها غناؤها ورقصها لكنها استهجنت ملابسها ووجهت لها ملاحظات عديدة حول الأناقة والجمال وطلبت منها أن تولي مظهرها عناية أكبر.

كانت كلثوم تؤمن أن ابنتها جميلة وكان في ذلك جانب من الصحة فلو اهتمت برشاقتها وأولت مظهرها ما يستحقه من

عناية لبدت أجمل بكثير مما هي عليه بل لعُدَّت من الحسناوات السمراوات فمن وراء لونها الغامق وملامحها الإفريقية انبعث سحر غريب وكان لعينيها السَّود الواسعة نظرات ناعمة، مؤثرة قد تكون وراء تزايد عدد محبيها وتهافتهم على حضور حفلاتها.

توقَّف حافظ عن الكتابة فجأة كأنما تنبه لهول ما يكتب أو كأنما أحس الكلمات تخرج من صدره لهيبا وتصير حين يراق مدادها على الورق سلاحا فاتكا. ها أنه يلفظها كما لو كانت سما توجب نزعه عن بدنه وقد خشي أن يكون هذا السم قاتله إن ظل يتفاعل بجوفه وخالجه إحساس مشابه وهو رجل العلم، بأن كلماته شبيهة بفيروسات خطيرة قد توصل إليها عالم في مخبره وحفظها في ثلاجة محكمة الغلق لكنه على يقين أنها ستفتح يوما وقد يسبب محتواها قتل فاتحها أو ربما تقتل مالكها ذاته إن خانه الحرص.

قرأ ما كتب:

"السيد "عين" والسيدة "هاء" هما أيضا من الأزواج الذين عايشت العذاب متغلغلا بداخلهم.

كنت يوما في المخبر بمستشفى "سان أنطون" ، أقوم بمهامي العادية المتمثلة في تنشيط الأمشاج الذكرية المعدة للتلقيح الاصطناعي. أحسست بفتور وسأم فغادرت نحو الحديقة لأتنسم بعض الهواء النقي ثم منها اتجهت إلى عيادة صديقي الدكتور التونسي "عبد الوهاب بن سلامة" داخل المستشفى. دخلت عليه بغرفة الكشف فألفيته يتأهب لاستقبال مرضاه وددت أن أسبر أراءه حول بعض المواضيع فقلت له:

- إنك تتعامل مع بشر تكشف عليهم وتحادثهم على خلافنا نحن أطباء المخابر الذين نتعامل مع أشياء صامتة.

قلت ذلك ثم عدّلت اللفظة:

- لا نتعامل في الحقيقة مع أشياء بل مع كائنات حية لكنها صامتة بالمقارنة مع الكائن البشري المتجسد في العقل والروح والجسد.

قال عبد الوهاب وقد أسفر ثغره عن ابتسامة عريضة كأنه يستغرب أن يكون ذلك رأيي:

- هل ترى أنك تتعامل مع أشياء صامتة في حين أنك تسدي خدمة كبيرة للإنسانية؟

تجرأت حينها لأسأله:
ـ هل كشفت على الكثير من الأزواج التونسيين؟
قال:
ـ عدد لا بأس به.
ـ خبرني عن أصعب حالة صادفتك إلى حد الآن وأشقها على نفسك !
أجابني وقد قطب حاجبيه الكثيفين الباديين من فوق نظاراته الطبية:
ـ صادفت الكثير من الحالات المؤثرة وقد عاينت هذه الأيام زوجين جاءا إلى هنا بعد أن مرّا بكل المراحل السابقة والتجآ في الأخير لعمليات التلقيح الاصطناعي إذ كان الزوج يشكو عقما كاملا. وقد مرَّ على زواجهما زهاء العشرين سنة انقضت كلها في تعاطي الأدوية وفي قاعات الانتظار بعيادات المختصين وفي التجارب الفاشلة. تصور أن الزوج قد أجرى تحليل الأمشاج أكثر من مائة مرة وفي كل مرة تظهر النتيجة السلبية ذاتها. أما الزوجة فقد حفظت عن ظهر قلب مجمل أسماء الأدوية الخاصة بتنشيط البويضات.
سكت لحظات ليضيف:
ـ إن حالتهما مستعصية وقد صرت ألمس حالة القنوط التي آلا إليها وعلمت أيضا بما كان يؤجج حالة السأم عندهما وهو أنهما يعيشان في أقصى الجنوب التونسي منقطعين عن أهليهما القاطنين في تونس العاصمة بسبب عمل الزوج في التنقيب عن البترول ب"البرمة".
خرجت عائدا إلى مخبري مفكرا بأمر هذين الزوجين وحين تمت إحالتهما على إجراء التلقيح الاصطناعي توصلت إلى معرفة اسميهما من خلال الوثائق الواردة علي ومن خلال سنهما وسكنهما، إنهما "عين" و"هاء" اللذان سيكونان طرفا في الأحجية التي سيكشف هذا الكتاب طلاسمها.

تلقت سارة في أواخر جانفي من سنة2006 عرضا للغناء في مدينة "بوسطن" فتحولت إلى هناك وبينما كانت تسير داخل مبنى المسرح متجهة نحو الكواليس إذ أحست بجسم قوي يدفعها. كان نور الرواق خافتا وكانت الصدمة التي تلقتها قوية. أحست على إثرها بغشاوة تظلل عينيها وبظلمة كثيفة، وتنبهت لتجد رأسها ملتصقا بصدر عريض يكسوه قميص أسود وكان سواد القميص ما اعتقدته ظلمة كالحة.

وقف الرجل قبالتها في ذلك الممر ولم يحد عن طريقها قيد أُنملة، وكانت هي لا تزال مترنحة من الصدمة فمال جسمها إلى الأمام وكان بوسع من يراهما في ذلك الوضع أن يجزم أنه يحضنها. وكان أريج عطره ينفذ إلى أنفها ويغشاه، وأحست بشعور غريب لم تشعر بمثله في حياتها، أحست أنها تتهادى فوق الغيوم البيضاء في عالم لازوردي أخاذ، وفجأة أفاقت من شرودها فدفعت الرجل بيديها بكل عنف ثم استجمعت قواها لتقول له:

ـ كيف تفعل ذلك؟ ألا ترى أمامك؟

نظر لها الشاب نظرات ناعمة ولم ينطق وأخذت هي تتفرس فيه،إنه نفس الوجه الذي رأته بعيادة الدكتور بيتر بل هو نفسه الذي تراه بالحلم الذي يتكرر. كان ذا بشرة سمراء ووسامة ظاهرة، فوجهه صغير مائل إلى الاستدارة، وقد تألقت به عينان واسعتان أشرفت القُزَحيّتان العسليتان فيهما على أهداب طويلة، واسترسلت خصلات شعره القصير لتكون هالة سوداء تبرز معها تقاسيم وجهه المتناسقة.

لم تستطع أن تطيل النظر إليه فقد انبعث من عينيه الجميلتين شعاع قوي أخاذ جعلها تحول نظرها عنه بينما ظل هو مشدوها كأنما يشاهد أمرا عجيبا. انتابها في تلك اللحظة خجل سرعان ما أضحى اضطرابا، وإذ لم يردَّ الشاب على استفسارها انحرفت إلى يمينه وواصلت طريقها نحو كواليس المسرح. ظلت طوال الوقت قبل صعودها الركح مرتبكة كأنما فقدت

شيئا ثمينا أو كأنما أسقطت روحها بين أروقة المسرح وسارت بجسد ميت ولما ظهرت أمام الجماهير، علت الأنغام الصاخبة والإيقاعات المجنونة من حولها، وشرعت تغني لكن الكلمات خرجت من فيها مضطربة وخانها جسمها هذه المرة، إذ لم يكن طوع إرادتها في الرقص وشعرت بتخاذل حركته والغريب أن الجمهور الحاضر لم يفطن إلى كل هذا الارتباك الذي اعتراها وانهمك كل من في القاعة في الرقص والهتاف وتمايلت الرؤوس وتشابكت الأيدي وتعالت الأصوات المشجعة المعجبة وبدت الجموع متدافعة كموج هادر يمد ويزجر يكاد يرتد على الركح فيقتلعه.

أنهت سارة حفلها وغادرت مبنى المسرح مسرعة فامتطت سيارتها وتوجهت إلى بيتها بنيويورك. أعياها الطريق، وأحست لأول مرة بحياتها بلهفة شديدة للعودة إلى البيت للاحتماء به وانتابها شعور الهارب فضاعفت من السرعة. لقد كرهت ضعفها وجبنها. لماذا وقفت عاجزة هذه الليلة في مواجهة ذلك الرجل؟ هل هو فارس أحلامها؟ هل كانت تعرفه قبلا؟

كانت ساعة متأخرة، دلفت إلى منزلها وقد شعرت بألم شديد بأنفها من شدة البرودة التي لفحتها حين ترجلت من السيارة.اتجهت إلى غرفتها الكائنة بالركن الشرقي المنعزل من الطابق الثاني. أحست بالبرد يعَضُّ على أوصالها رغم دفء الغرفة بفعل التدفئة المركزية.

تكورت في سريرها وتدثرت بغطاء سميك وأغمضت عينيها محاولة أن تطرد من خيالها صورة لم تفارقه طوال الحفل، هي صورة الشاب الأسمر الوسيم. وعبثا حاولت أن تنام، فقد حاصرتها نظراته الغامضة الغريبة وزاد من عذابها أن تظل تلك الرائحة الأخاذة المنبعثة منه عالقة بأنفها تثمل روحها وتذكرها بالحلم. وظلت فيما تبقى من الليل تصارع طيفه حتى انبلج الصبح. ولما فتحت عينيها عند الضحى حاولت أن تتذكر

أحداث الليلة الماضية ووجه ذلك الرجل لكن ملامحه اختفت صار وجها بلا ملامح. أحست بوجوده رأت طيفه عملاقا بين ناظريها وبحثت في ذاكرتها عن شكل وجهه لكن غموضا غريبا اكتنفه وحجب كل تفاصيله وعادت بخيالها لتعيش تلك اللحظة، لحظة وقوع رأسها على صدره، انتابتها صعقة صغيرة، اعترت كل أوصالها وجعلت جسمها يعتصر تحت الغطاء. وذكّرها دفء السرير دفء تلك اللحظات فلم ترغب في النهوض من فراشها بل ظلت على حالها تلك لوقت طويل مغمضة العينين، مستسلمة لذكرى تلك الحادثة. وكلما حاولت النهوض وجدت جسمها منهارا وأطرافها مرتخية. وبينما هي كذلك تحاول الخلاص من الحالة الغريبة التي كبلت حركتها إذ تناهى إلى سمعها رنين هاتفها الجوال وقد كان على طاولة صغيرة حذو سريرها. ظل يرن طويلا. أوشكت رناته على الانقطاع حين رفعت يدها من تحت الغطاء بتثاقل وأمسكت به ثم ضغطت زر الرد وقربته ببطء من أذنها لتنطق بصوت مبحوح:

- ألو..... !

- ألو .هذا انا "جيمي".. صباح الخير أيتها العزيزة .

كان جيمي من عينته شركة إدارة الأعمال الفنية ليقوم على شؤون سارة .

- أما زلت نائمة يا سارة؟ استيقظي فقد صحا الكثيرون هذا الصبح على خبر مثير منشور على أعمدة الصحف.

- متى عهدتني أهتم بأخبار الصحافة؟

- هذا خبر يخصك يا أميرتي !

- تقصد حفل البارحة؟ لم يكن جيدا أليس كذلك؟

- الحفل كان جيدا. أما ما سبقه، فقد كان مثيرا جدا.

- ما الذي كان مثيرا يا "جيمي"؟ اختصر الكلام لقد أزعجتني.

- أنت من كنت المثيرة مع ذلك الشاب الوسيم !

شعرت سارة بقلبها ينخلع من مكانه ليسقط بجوفها واكتسحت وجهها حرارة شديدة وأخلدت للصمت وقد هرب عنها الكلام.

ـ كنت رائعة يا عزيزتي في تلك الصورة، عناق جميل !! كيف استطاع أن يستميل قلبك وأنت التي عجز الجميع عن الاقتراب منك أو نيل نظرة إعجاب واحدة؟

استجمعت سارة رباطة جأشها وتمالكت نفسها لتسأله:

ـ عن أي عناق تتحدث؟ وعن أي صورة؟

ـ الصورة التي جمعتك مع الشاب الأسمر في مشهد حب.

أرسلت سارة زفرة تعبر عن نفاذ صبرها وقالت:

ـ عن أي حب تتحدث؟

ـ حسنا لا تنفعلي يا سارة ستشاهدين ذلك بأم عينيك في الصحف. وإن لم يكن ذلك عناق فماذا يكون هل الصورة مركبة؟ سكت لحظة ثم أضاف:

ـ أتأسف كثيرا يا سارة ما كان علي أن أحشر نفسي بحياتك الشخصية ولكنني فقط أحببت أن أحيطك علما بما يجري.

فهمت سارة أنه من العبث مواصلة الدفاع عن نفسها أمام مندوب الشركة فهو لن يُكذب ما رأته عيناه في الصحف ليصدق كلامها عن براءتها عبر الهاتف فآثرت أن تنهي المكالمة قائلة:

ـ حسنا سأشرح لك الأمر حين أراك .

سُرَّ الأخير بما سمع كمن وقع على كنز وقال لها بكل حماس:

ـ أخيرا قررت كشف المستور !

نفذ صبر المرأة فصرخت على الفور:

ـ أنت ممل لا أريد الحديث معك البتة.

أنهت المكالمة واستقامت جالسة على سريرها وقد شعرت أن الأرض تميد بها من تحته وبدأ فكرها بالاشتغال.من هو الخبيث الذي التقط لها تلك الصورة اللعينة؟ وكيف تم ذلك؟ لقد كان الرواق خاليا والنور خافتا؟ وكيف تمكنوا من التقاط الصورة البارحة ومن نشرها هذا الصباح؟ كيف يفعلون هذا بها؟ وهذا

الذي صورها، ألم يلحظ أنه مجرد حادث؟ ماذا ستفعل الآن وكيف ستتصرف؟ إنهم يتهمونها بعلاقة حميمة مع شخص لا تعرفه. كيف يدّعون عليها ذلك؟
أحست لأول مرة في حياتها بأمريكا بمرارة الشائعات. كانت ترفل في عالمها، عالم من ابداعها تمارس فيه شطحاتها، ترسم لوحاتها فتبث فيها جنونها وتمردها ، تغني فتطرب نفسها وتسكر بأنغام الهذيان قبل أن تطرب الناس واستطاعت أن تجد لها مكانا عن غير قصد منها ودون نية مسبقة ضمن عالم البشر الدنس وعاشت طوال هذا الوقت وسط أسوار شيدتها حول نفسها منعتها من الخطإ وأبعدتها عن الدنس. كانت رغم كل استهتارها نقية طاهرة لأنها ابتعدت كثيرا عن الناس وعن الحياة الاجتماعية وكانت طوال الوقت راهبة في محراب فنها تمارس ابتهالاتها وطقوسها في عزلة ووحدة. ولم تكذب أبدا، عدا عن كذبتها حول والديها فلا غاية لها سوى السمو بنفسها عن عالم البشر إلى عالم الثمول والهذيان، و لم تطمع في مال ولم تسع إلى جاه و قتلت رغباتها وحرمت الزواج والجنس على نفسها لأنها كرهت أن تتكرر مأساتها مع نسلها و هزأت بالمجتمع وبالعرف والدين والوطنية وها هي بعد كل ذلك تعرف أنها راهبة بحق وصارت ترى نفسها ملاكا بعد أن نصبتها في قمة هرم العابثين.
ظلت الأفكار تتقاذفها وهي على سريرها كأنما ماتت بها كل رغبة في الحركة والحياة، لشد ما يذهلها هذا العالم الذي يقلب الأشياء والمعطيات في سرعة الضوء ! أليست من كرست حياتها لفنها؟ و لم تعرف الحب وظلت إلى ساعتها هذه وحيدة بلا رفيق أو زوج؟ كيف تتهم بعلاقة غرامية لمجرد صورة التقطتها يد عابثة؟
أحست بالضيق يكتنفها وعادت إلى مخيلتها صورة الشاب فشعرت بوخزة خفيفة تشك قلبها وعجبت لنفسها تتنبه أن لها قلبا قادر على الإحساس كما قلوب كل الناس. أين كان هذا

القلب؟ هل هو ذات القلب الذي قسا على كل المقربين منها بدءا بوالدتها ووالدها ثم أهلها وحتى نفسها؟ أليست هي التي ظنت على ذاتها بأدنى عطف أو حب ؟ وهل تنكر أنها كبتت مجمل عواطفها، البنوة والحب والأمومة والوطنية؟ هل آن لها أن تعيد حساباتها وتعترف بقوة المجتمع وسلطته على الأفراد حتى إن حاول بعضهم الهروب منه أو نكرانه كما فعلت هي؟

الآن تكتشف أنه يحوطها، بل وجدت نفسها رغم تلك الخطوات الجبارة التي خطتها في الاستهزاء بروابطه ونظمه أسيرة له، يأسرها فنها إذ تمارس طقوسها التي يكتمل معناها وتنبثق نشوتها بمتقبلين هم أفراده فتلهب شعلة الإبداع بداخلها وتطلقها من عالم الأحلام والوجدان إلى عالم المادة والحقيقة، فأحلامها وهواجسها وانصهار الألم بذاتها تحتاج إلى عناصر مكملة ليصل إلى الإدراك الحسي للطرف الآخر في التواصل، إنها ترجمة، ترجمة أحاسيس إلى عناصر مادية تدركها حواس الناس ولا سبيل إلى ذلك دون الاستعانة بالآخر المكمل وهذا ما يجعلها كائنا فاعلا في المجتمع.

أوصلها الاستنتاج الجديد إلى إحساس كوخز الإبر في قلبها الذي ولد اليوم فأخذ يتعرف إلى المشاعر الإنسانية ويجربها الواحد تلو الآخر، ولم يكن هذا الوخز سوى شعورا بالندم تتذوقه للمرة الأولى في حياتها. كم آلمها الآن وبعد أن استيقظ قلبها أن تقسوَ على والديها وأن تنكرهما كل ذلك الإنكار وقد كانت في المقابل تفتح ذراعيها لمجتمع غريب تقدم له مقطوعاتها الفنية وقد نفثت فيها من نفسها ومن روحها. أما ذانك المسكينان فقد ظنت عليهما بالنزر القليل من العطف والمحبة.

ما أغرب أن تدرك الندم الآن وهي التي لم تندم بحياتها على شيء ! وما أعجب أن تمرَّ كل تلك السنين من حياتها دون ذلك الشعور الذي يتحول إلى حدث يومي في حياة الناس ! أكانت حياتها مستقرة لهذا الحد؟

وهتف بأعماقها هاتف يقول: " إنك لم تعرفي الاستقرار فقد عشت في ظل الحزن والكآبة وحاولت الإفلات من الشرق الخانق ومن الناس والمجتمع نحو طقوسك وشطحاتك، كانت روحك تنازع للخلاص من عذاب دفين، انبلج آهات بتابوت الواقع وتصدى لكل شعور بالفرح يتسلل إليك"

واصل سيل الأفكار التدفق برأسها، يغرقها للمرة الأولى بحياتها بصحوة الإدراك، إدراك تناقض الحقائق بحياتها أو تناقض الظن المنتشي مع الحقيقة المرة. سيل من الأفكار حرك الركود في خبايا ذاتها، كأنها أوقفت سير الأحداث وانبرت تتأمل ما فعلت في ما مضى من حياتها الرتيبة، حياة لا ندم فيها ولا أسف على فعل أتته أو آخر تركته وهي التي ظنت أنها أسست حياة متمردة يلفها الجنون والهذيان ويكتنفها التشويش واللامبالاة. لكن ما حصل اليوم يؤكد أنها عاشت في قلب الانتظام و في استقرار نفسي لا مثيل له. لقد حماها من كل المتاعب التي تصيب البشر من ندم وحرمان وخصام وخوف وغيرة وفشل. أعياها التفكير وأذهلتها الخلاصة فأحست بضعف شديد وبثقل يشل أطرافها ثم شعرت كأنها تهوي في قاع سحيق.

في ناحية أخرى من مدينة نيويورك وتحديدا في "تايمز سكوير" بكافيتريا مطلة على شارع واسع به لافتات إعلانية ضخمة، جلس جيمي قبالة رجل يدعى "جورج" وهو صحفي مهتم بأخبار الفنانين.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الزوال ورذاذ مطر يبلل الطريق وزجاج ال "كافيتريا". أحضر الصحفي قهوة له وأخرى لجيمي. شرع الاثنان يرشفان القهوة الساخنة وينظران إلى الشارع من خلال الزجاج المعتم ببخار الماء. كان المارة يجدّون في السير حاثين الخطى على الأرصفة أما الطريق المبللة فقد غصت بسيارات يترقب أصحابها تسهيل حركة المرور.

قال الصحفي:

- أظنك على علم بسبب طلبي مقابلتك.

رد عليه جيمي بفتور:

- تخمينك خاطئ. لا علم لي بشيء.

- هل تتظاهر بعدم الفهم؟

تعمَّد جيمي الصمت فقد أراد أن يترك المبادرة لمضيفه حتى لا يستدرجه في الكلام.

- حسنا فلأختصر الأمر وأطرح عليك سؤالا مباشرا: هل لك أن تحدثني بإطناب عن ما كتب حول سارة؟

تظاهر جيمي بالذهول وهو يقول:

- لا أعتقد أن ما كتب صحيح، إنه مجرد شائعة.

- تقول شائعة ! والصورة التي نشرت اليوم بمجلة "إن تاتش" ألم تقع عيناك عليها؟

- سألت سارة عن الصورة فأنكرت صلتها بالشاب وفي اعتقادي أنها صادقة.

- مسكين سيد "جيمي استون". تعتقد حقا أن ما أخبرتك به سارة حقيقة؟

استشاط جيمي غضبا مما قد بلغ مسمعه فانفجر في وجه مضيفه بصوت مدمدم:
- هل لي أن أعرف بأي حق وجهت لي هذا الكلام؟
أطرق جيمي للحظات من الصمت وقد أرسلت عيناه نظرة غاضبة ثم قال:
- في الحقيقة ما من مخطئ غيري فقد سمحت لنفسي بتضييع وقتي مع أمثالك من الصحفيين.
أحس جورج بثورة مرافقه فأراد أن يمتص غضبه قائلا:
- أنت تهاجمني أم تهاجم الصحافة ؟ لقد كنت أتكلم بتلقائية كما لا يجب أن تتحامل على الصحافة فهي من أسباب نجاحكم وشهرتكم.
قال المندوب وقد استعاد هدوءه:
- وإن كنت غير معنيّ بما تقول إذ ما أنا بفنان أو ممثل، لكن عليك أن تصدق صحة ما أخبرتك به، لقد حاولت كثيرا أن أجعل سارة تبوح لي بشيء من أمر علاقتها بالشاب بيد أنها تمسكت بالإنكار.
سمع جورج قول جليسه ولم تبد عليه علامات الاقتناع فقال وهو ينفث دخان سيجارته بعيدا عن وجهه:
- ألا تعلم يا جيمي أن الشاب عربي وتونسي الجنسية وقد قدم إلى هنا بغرض الدراسة وهو مهندس في الإضاءة ويشاع حوله أنه ينتمي إلى تنظيم إرهابي.
أصاب جيمي ذهول مما سمع واستسلم لصمت شارد كأنه يعيد ربط خيوط الأحداث بمخيلته.
- لم تكن على علم بذلك؟
- لقد أذهلني الأمر حسبته أمريكيا.
- إذن عليك أن تتقصى الأمر وسألاقيك من جديد.
بدا الانزعاج على جيمي فقال وهو يسحق عقب سيجارته في المنفضة:
- لا أعتقد أن من هو مثلك يحتاجني.

أنهى المندوب كلامه ثم تناول مفاتيح سيارته من فوق المنضدة وغادر مسرعا ليتخلص من ثرثرة الصحفي وفضوله. قاد سيارته في الشارع المزدحم وقد اتَّخذ فكره من سارة نقطة اهتمام وأدهشه أن تكون على علاقة قديمة بالشاب ومتواصلة و لم تتوصل الصحافة إلى كشف أمرهما. بدا له أمرها مذهلا ومحيرا جدا و عجز ذهنه عن تجميع صورة واقعية للأمر فطفق يتساءل عن السر، سر هذه الفتاة القادمة من الشرق وقد لفها غموض غريب كغرابة الشعاع المنبثق من عينيها. أ فتاة هي من بني البشر؟ أم جنية جاءت لتمارس طقوس السحر وترانيمه ولتتعالى فوق ذروة الإبداع و لتأسر كل الأنفس بفنها دون أن تترك وراءها زلة أو خيطا يوصلان إلى حقيقتها؟

الفجر ينشر ضوءه الأزرق على الوجود، وحافظ بمكتبه المضاء بمصباح صغير ذي نور أبيض خافت. كانت سكينة السحر تخيم على المنزل وتسدل عليه غلالة يثقبها من حين لآخر صوت النقر على لوحة مفاتيح حاسوب محمول ويحدث بها ثقبا دقيقة تزيدها سحرا وإثارة.

لا شيء يؤنس حافظ في هذه الساعة المبكرة بعد عودة ابنه إلى أمريكا سوى حروفه وكلماته، حروف تجمعت مجهدة برغبة الخلق، تنازع سيدها في رغبة الاكتمال و في إرادة الانبثاق من المستور إلى المكشوف ومن الضياع إلى الخلود، تترصد تاريخه وتصنعه نصا هو واقع من الواقع:

"السيد "تاء" شخصية معروفة في المجتمع التونسي، رجل أعمال بارز ورث مصنع عن والده وله عقارات وشركات أسسها بنفسه وأخذ ينمي أعماله التي ما فتئت في ازدياد مطرد وهو رجل عرف بطيبته ونزاهته وتوخيه الوسائل الشرعية والمباحة في كسب المال.

رأيته ذات يوم يجلس مع زوجته بقاعة انتظار بالقسم المخصص للإخصاب بواسطة الحقن بالإبر بمستشفى "سان انطوان" وكان من عرفه من الناس على دراية بأنه يفتقد إلى الخلف رغم مرور أكثر من عشرة سنين على زواجه. أبصرته في ذلك اليوم يجلس بهدوء مع عقيلته. حيَّيْته وقد كنت مارا من تلك القاعة نحو مخبري بتحية مقتضبة.

أثار وجوده مع زوجته بالمستشفى فضولي في ذلك اليوم ، حتى ورد علي ملفهما بعد نحو عشرين يوم من ذلك التاريخ مع الدفعة التالية من ملفات المعنيين بإجراء طفل الأنبوب. أخذتني به شفقة وقد لمحت ما تحلى به من هدوء وصمت ملفتين للنظر يوم شاهدته بقاعة الانتظار، كأنما أراد أن يكتم ألمه في صدره.

كان يناهز الأربعين سنة من العمر أو يفوتها بقليل وقد بدا عليه وقار الستين، إنه ليبدو كمن اختار الوقار والرصانة سلاحا له في هذه الحياة وضدها، أو كحكيم خير الصبر والسكينة في

مواجهة عظائم البلاء. ومنذ ذلك اليوم ألقي بقلبي قبس عطف من ناحيته وأدركت أني لا محالة مدرجه ضمن حيثيات مشروعي الإنساني، وحاولت مرات أن أنزعه من خيالي وبالتالي من مشروعي، واضعا باعتباري ثراءه الفاحش وأنه لن يعدم وسيلة في إيجاد السعادة المنشودة والراحة الضائعة، لكن صورة الرجل الصامت المتزن الوقور الذي يواجه الحياة بعينين مسلمتين وراضيتين ومؤملتين في الآن ذاته بقرب الانفراج رفضت أن تفارق فكري. فعدت إلى ملفه أقرؤه وأمحصه لأجمع عنه وعن زوجته معلومات ضافية تفيدني في تنفيذ مخططي وكان ذلك ما فعلته مع ملفي الزوجين الآخرين.

جمعت المعلومات الدقيقة وساعات الالتحاق بالقسم ونتائج التحاليل ونسبة ضعف الخصوبة لدى كل واحد منهم وحجم بويضات زوجاتهم الاعتيادي وسلامة "نواهها" وفترات التبويض عند كل واحدة منهن. قمت بهذا العمل ودونته بحاسوبي الشخصي تحت ملف بعنوان "مشروعي الإنساني" و أتممت بذلك المرحلة الأولى منه أما المرحلة الثانية فتتمثل في معرفة الأطراف المكملة لعملي والتي سيكون علي أن أجدها بأيسر طريقة وأكثرها سرعة وسرية.

خيمت كآبة شديدة على المنزل الغريب، وبدت حديقته ذات الأشجار العجيبة صامتة ساكنة كأنما ترثي حال صاحبتها.

في الغرفة الشرقية بالطابق الثاني، وقفت سارة قبالة نافذة بلورية كبيرة تتأمل السماء الملبدة بغيوم سوداء. أخافها اللون القاتم للسحاب وانتابها في اللحظة الموالية شعور قوي بالوحدة والاغتراب، اكتسحها حتى أعماقها فتاقت أن تغادر المكان والمدينة بل هذا البلد بأسره وتسافر إلى تونس فتستسلم لحضن والدتها الذي هجرته منذ كبرت، وتستشعر الحنان الذي افتقدته وكادت تنساه فتتنعم روحها الشاردة ويهدأ فكرها الثائر وتكتمل الراحة عندما يطوقها والدها بنظراته ويمد لها يده فتسري الطمأنينة في جسدها المحموم المضطرب وتأخذ تلك اليد لتمررها على وجهها وتمسح من عليه آثار التعب والإنهاك التي خلفتها سنوات البعد والفراق.

فتحت الفتاة عينين متعبتين فرأت "أنطون" يقف قبالتها كتمثال وقد أمسك بيده اليمنى طبقا بينما نامت يده اليسرى بين يديها كما ينام الرضيع بحضن أمه.

سحبت سارة يدها فوضع الرجل الطبق على منضدة قريبة منها مثبتا عليها نظرات تشع عطفا ومحبة ثم قال:

- آمل أن تكوني بخير.

ردت سارة بصوت ضعيف أعادها من رحلتها:

- لا شيء أنطون ! أنا بخير.

- جئتك بحساء الخضر، تناوليه انك بحاجة للغذاء.

رددت بنفس ذلك الصوت الضعيف:

- غذاء ! لست بحاجة إلى غذاء بقدر حاجتي إلى أشياء أخرى.

أدركت لأول مرة حاجتها إلى أن تشكو ضعفها لأحد ما فأضافت قائلة: تخيلت للحظات أنني قريبة من والدي وخلتني أمسك بيده وأضعها على خدي.

توقفت عن الكلام وقد ترقرقت دمعات من عينيها فاحتضنها الكهل بحنان وقد آلمه أن يرى الفنانة القوية الثائرة فريسة لهذا الضعف.

قال ليهدأ من روعها:

- هوني عليك آنستي، أنت بأمان.

- لا أنطون لقد تزعزع إحساسي بالأمان.

- لكن لماذا هذا الإحساس؟

أطرقت سارة تفكر تخبره بما نشر على أعمدة تلك الصحيفة. وجدت أنها غير قادرة على كفكفة نحيب ضعفها فقد فاض القلب بآلامه وآهاته حتى لينذر بانفجار مؤكد، انفجار يهد التماسك الزائف الذي تبدو به للعيان. قالت تخفف الأشجان المتراكمة بوجدان مشروخ :

- إني موَرطة بقصة حب أجهلها. ألم تقرأ صحف الأمس؟

رد أنطون وقد جحظت عيناه:

- قرأت صحيفة بالأمس ولم يكن بها أي شيء. وألقيت اليوم نظرة خاطفة على صحف أخرى غير أني لم ألحظ شيئا.

- لأنك لم تدقق النظر. لقد التقطوا لي صورة ظهرت بها مع شاب غريب ومشبوه وادّعوا أنه حبيب لي. هل تعي ذلك؟ هل تعي؟

- هكذا الصحافة ! إنها تؤلف الإشاعات المغرضة لجذب القراء. هذه أمور عادية تحصل مع أغلب المغنين والمشاهير.

رأت سارة أن أنطون لن يفهم الرجة التي أصابتها في نفسها فخيرت أن تصرفه قائلة:

- حسنا أنطون ! بإمكانك أن تذهب لشأنك وسأنشغل بالرسم عله ينسيني سخافة هذا العالم.

- آمل أن تستمتعي بوقتك وأن تنسي هذه الحكاية السخيفة.

انصرف الرجل فيما استسلمت سارة للحظة من الذهول.

رن جرس الباب فهرع أنطون ليفتح وهو يكاد يجزم أن جيمي جاء ليزعج سارة من جديد. فتح الباب فرأى رجلا يرتدي بدلة

رمادية أنيقة. كان طويل القامة وبشرته ناصعة البياض أما شعره الأشقر فقد شابه بعض البياض من الجانبين وبدت على وجهه الكبير ذي الملامح الخشنة علامات الجد وتدلت من ياقة قميصه الأبيض ربطة عنق رمادية بها خطوط بيضاء متوازية ومائلة.

قال الرجل بأدب:

- هذا منزل الآنسة "سارة مقدم"؟

لم يكد يومئ برأسه موافقا حتى رأى رجلا آخر يطل من سيارة رابضة بالشارع السكني. كان بهيأة مشابهة للأول ولم يختلف عنه سوى في ملامح الوجه والشعر فقد بدا أصغر سنا وذا شعر أسود وملامح دقيقة.

قال الأول:

- نحن صحافيان من صحيفة "نيويورك بوست" نريد التحدث إلى الآنسة سارة بشأن يخصها.

وقال الثاني معقبا على كلام صاحبه:

- إذا امتنعت عن مقابلتنا فقل لها أننا لن نوجه لها أية اتهامات ولن نذكر أمامها الإشاعات التي تنشرها بعض الصحف. إنما نريد مصلحتها فقط .

ارتبك أنطون لكنه تمالك نفسه فادخل السيدين إلى البهو واخبرهما أن صاحبة البيت متعبة وقد ترفض استقبالهما فأومآ موافقين.

صعد أنطون إلى سارة، كانت لا تزال بالغرفة الشرقية الحبيبة إلى قلبها.استأذن بالدخول عليها فألفاها جالسة على حافة سريرها مطرقة. فقال لها:

- آنسة سارة !هناك صحافيان من "نيويورك بوست" يودان مقابلتك.

ردت سارة على الفور وبلا مبالاة:

- لا أريد مقابلة أحد من الصحافيين.

ـ تبدو على هذين الرجلين علامات الجد وقد قالا إنهما جاءا في أمر يخص مصلحتك لكنه يتعلق بالإشاعة.
قطبت سارة جبينها استغرابا ثم قالت:
ـ إنـهما يودان أن يجراني إلى حديث لا أحبه.
ـ كما تشائين...غير أني أرى أن تقابليهما وإن لم ترتاحي لحديثهما فاطرديهما.
مطت الفتاة شفتيها وأجالت نظرها في فضاء الغرفة مفكرة ثم قالت: ـ حسنا سأنزل إليهما لأرى الأمر.
ظهرت الشابة بالبهو وقد ارتدت "بنطلونا من الجينز الأزرق الذي محيت الزرقة في بعض أجزائه وقميصا أبيض ضيق وقصير خيط من قماش شتوي سميك، التف حول جذعها فأبرز صدرها وردفيها الممتلئين وزاد بياض لونه من قتامة وجهها ورقبتها.
سلمت حين قدومها على الضيفين ببرود ثم صمتت كأنما تنتظر أن يخرجا ما بجعبتهما فقال الرجل الأول ذو الشعر الأشقر:
ـ يسعدنا يا آنسة "مقدم" أن نقدم لك تهانينا بنجاحك المطرد.
ـ أشكرك .
فواصل الرجل الحديث:
ـ في الحقيقة نحن لسنا صحفيين.
رفعت سارة حاجبيها القصيرين الأسودين وقالت:
ـ من أنتما إذن؟
تنحنح الرجل الثاني وقال وقد أمسك ذقنه:
ـ نحن ننتمي إلى جهة أخرى بعيدة كل البعد عن الصحافة وإن اشتركت معها في البحث عن الحقيقة.
وقال الرجل الأول معقبا على كلام زميله: ـ نعم أردنا أن نعرف منك بعض الحقائق ونحذرك من حقائق أخرى.
انتفضت الفتاة في مقعدها وأرسلت نظرة وساخطة إلى الرجلين الجالسين قبالتها وصاحت فيهما:
ـ ما هذا الغموض الذي يلف حديثكما؟ من أنتما بالضبط؟

فقال الرجل الأول:
ـ نحن ـ كما قلنا لك ننتمي إلى جهة لا تشكل خطرا عليك طالما لا تشكلين خطرا عليهاـ أنت تحديدا ـ أية خطر.
غرقت الفتاة في الذهول وأخذت تتأمل الرجلين صامتة كأنما هرب عنها الكلام ثم قالت:
ـ أية خطر تقصدان؟ كيف أشكل خطرا على طرف أجهله؟
رد الرجل الثاني وقد ثبت نظرات باردة على وجه المرأة كأنه يتحداها:
ـ هل تعرفين العربي "آدم عياشي"؟
فردت سارة وقد جحظت منها العينان:
ـ من هو هذا الشخص؟ أنا التي تسألك؟
حين ذلك تدخل الأول قائلا:
ـ "آدم عياشي" هو من ظهر معك بمجلة "إن تاتش".
علقت البنت ببرود:
ـ لا أعرفه.
صمتت قليلا ثم أضافت:
ـ ولكن ما المشكلة ... هب أنني أعرفه، ألست حرة؟
فعلق الرجل الثاني:
ـ الفتى متهم بالضلوع في التخطيط لعمليات إرهابية تهدد أمن المواطنين الأمريكيين.
فقالت سارة:
ـ وما شأني به؟
قال الرجل الأول :
ـ منذ برهة قلتِ "هب أنني أعرفه" ثم تراجعتِ حين عرفت أنه متهم.
صاحت سارة غاضبة: ـ ولماذا عليَّ أن أعترف بعلاقة غير موجودة؟ أعيش هنا منذ مدة وأهتم بالفن ولا صلة لي بإرهابيين بالعكس فأنا أحب أمريكا لأنها قدمت لي الراحة النفسية التي أنشدها ـ أو لنقل بعض الراحة.

قال الرجل الأول:
ـ عظيم أن تعترفي بالفضل للبلد الذي قدم لك العون وأمن لك الاستقرار وحضن مواهبك.
حين ذلك تدخل الرجل الثاني ليقول:
ـ لا يزال الوقت مبكرا على مسألة الاعتراف بالفضل لأمريكا. سنتحدث فيها لاحقا لكن الآن نريد البت في مسألة الشاب.
صمت قليلا لينظر إليها ثم قال:
ـ هل عرفت أن الشاب تونسي مثلك؟
بدت على سارة علامات الضيق والاستياء فقالت بفتور وضجر:
ـ قلت لكما لا أعرفه ولا أعرف من أي بلد هو ولم يجر بيني وبينه أي حديث.
ظل الرجلان يوجهان لها نظرات باردة ولا يحيرا تعليقا فأردفت:
ـ لكن من أنتما؟ وبأي حق تحققان معي؟ أود أن أعرف من أية جهة أنتما؟
تبادل الرجلان نظرات قصيرة كما لو كانا يتفقان على أمر ثم قال الأول:
ـ نحنمن "سي إي آ".
جزعت سارة لسماع اللفظة الأخيرة فقال الرجل الثاني بلهجة فاترة تقتر سخرية:
ـ لا تخافي، لن يلحقك ضرر، فقط أردنا أن نعرف عمق علاقتك بالعربي آدم عياشي. إنه رجل إرهابي عربي، هل فهمت؟
ـ لم أفهم المطلوب مني على فرض أن هذا الرجل العربي له نوايا إرهابية.
واصل الرجل الثاني الكلام بصوته البارد:

ـ المطلوب منك أن تقتربي منه قدر مستطاعك فأنت عربية مثله وأكثر من ذلك أنت تونسية ولن يصدك بل سيتجاوب معك فهو كما قلت لك عربي ويحب النساء والجنس.
همت الفتاة بمقاطعته لكنه واصل الكلام وهو يومئ لها بكفه:
ـ لن يصعب عليك أن تقيمي علاقة حميمة معه خاصة وأن الجميع الآن متأكد من صلتكما...نريدك أن تعرفي كيف يتصل بتنظيم القاعدة؟
صرخت سارة بعد أن نفذ صبرها:
ـ هل تريدون أن تجعلوني جاسوسة رخيصة؟ هل ثبت عجز جهازكم الأسطوري؟
رد الرجل الثاني وهو يسلط عليها نظرات قاسية من أعين ثابتة كأنها قدت من رخام:
ـ منذ قليل قلت أنك تحبين أمريكا وأنك معترفة لها بالفضل، أ فلا يسعك أن تردي لها الجميل؟
أخذت سارة مخدة مربعة الشكل وأخذت تعبث بها و تتكلم في انفعال وبصوت مرتبك كأنما تخاطب نفسها:
ـ أرد لها الجميل !...بأن أكون جاسوسة على غيري؟
تدخل الرجل الأول ليقول موضحا:
ـ تردين لها الجميل حين تساهمين في إنقاذ الأبرياء الذين يروحون ضحية الاعتداءات الظالمة للإرهابيين...هذا الشاب قادم من المغرب العربي وله صلة بفتيان آخرين أصيلي نفس المنطقة وقد تم ضبطهم بصدد التخطيط لعمليات هجومية ستنفذ بأمريكا بعد أن غادروا أوروبا فرارا من أجهزة الأمن التي كانت ترصدهم وتشدد عليهم الرقابة. إنهم شرذمة من أبناء الجيل الثاني للمهاجرين العرب بأوروبا يختزنون بوجدانهم المريض كرها ومقتا للأوروبيين الذين مارسوا عليهم عنصرية وتستغل تنظيمات إرهابية هذه الشحنة المخزنة من الغل لحشدهم ضمن صفوف مجنديها وترسلهم بعد ذلك إلى أهداف محددة ويبدو أن أمريكا صارت العدو الأكبر لهذه

التنظيمات وتدفع ثمنا باهظا لقاء العنصرية التي يعاني منها العرب في أوروبا.
حل بنفس البنت شعور غريب حين سمعت حديث الرجل عن المهاجرين العرب بأوروبا وكانت لهجة حديثه تجعل من هؤلاء وباء يهدد الأمم الغربية. لقد كان إحساسها بالوطنية شديد الضعف لكن هاهي تشعر بالغيرة على أبناء جلدتها المغاربة والعرب وينتابها إلى ذلك وجَل وخوف من هذا المنزلق الذي ستتردى إليه حياتها الآمنة الثملة بسكرة الفن و جنونه.
انتصبت واقفة وأخذت تتكلم بصوت حازم وشعور من المقت والكره للرجلين يكاد يخرج من فيها مع الكلام:
ـ لا أستطيع أن أعدكما بشيء في الوقت الحاضر لأني لا أعرف الرجل ولا تربطني به علاقة.
انفرجت سحنتا الرجلين بابتسامة عريضة وهما يقفان ولم تدر سارة بأنهما قد نالا بكلامها الأخير ما يرجوان وقال الثاني:
ـ حسنا، هذا عظيم...يبدو أنك مخلصة ومعترفة بفضل أمريكا.
وأضاف الأول:
ـ نعتبر هذا وعدا جميلا وننتظر أن تقدمي لنا معلومات تفيدنا في إنقاذ الأبرياء.
انصرف الرجلان وقد تركا الفتاة تتميز غيظا من المأزق الذي وضعت به نفسها دون قصد منها.
صعدت إلى الطابق الثاني و اتجهت نحو مرسمها الواقع بين غرفتها وغرفة والديها كأنما لتهرب إلى نفسها وجنونها من هذا العالم المقيت. اقتربت من حامل الرسم وأعدت ورقة بيضاء ثم فتحت أنابيب الألوان الزيتية وتناولت ريشة. ماذا سترسم؟ أخذت اللون الأزرق ونشرته بالريشة على المساحة البيضاء ثم توقفت ودققت النظر فيما رسمت. عجبت من نفسها لمَ لمْ يأخذها الرسم عن نفسها مثل كل مرة؟ كيف لم تحلق إلى دنيا ترسمها بنفسها فتسبح في ألوانها وخطوطها؟ فيما قبل كانت تكف دون وعي منها فتكتشف اكتمال الأثر.

لم أحست الآن بمسافة تمتد بينها وبين الفضاء الأبيض؟
نظرت إلى رسمها مجددا، لقد نشرت اللون الأزرق على البياض المقيت. لم يكن الأزرق يوما لونا طاغيا أو ظاهرا بأعمالها.
تراجعت إلى الوراء ثم تهالكت على كرسي خشبي. إنها لن ترسم وهي بهذه الحالة ففكرها يتخبط في صحو مؤلم، صحو يبعث بحدته إلى ثنايا وجدانها، ويحرك وعيها ليقوم حاجزا صلبا من الضجر والكآبة بينها وبين عالمها الأثير الذي تسافر إليه مخلفة وراءها أشجانها كتلة من الآلام المخزنة بإدراك سجين أو ب"أنا" حبيس لأنه أضعف من أن يتصدى لقسوة الواقع وشدته. أين جنونها؟ هل خانها هذه المرة؟ هل تبتهل إليه حتى يسعفها؟
عليها أن تُغَيّب هذا الوعي المؤلم وأن تخدّر هذه الصحوة المُربكة. امتدت يدها ـ يد لذات أضجرها الوعي ـ إلى قارورة ويسكي موضوعة غير بعيدة عن حامل الرسم، سكبت كأسا وشرعت تشرب لتسكت الإدراك بداخلها أو لتُغَيّب "أناها" عنها وتنغمس في قرار الـ "هو" الخامد بداخلها.
ما أغرب ما تأتيه الآن ! وهي التي لم تتذوق الخمر في حياتها سوى مرات قليلة بيد أنها رغم ذلك أدمنت الانتشاء وبالغت فيه حتى بلغت الذروة إذ كانت تطلق ترانيمها الشاذة أو تمارس انتفاضها المجنون رقصا محموما على الركح أو على الفضاء الأبيض. يحصل معها كل ذلك وتنعم بسكر مترع يطوح عقلها دون خمر ودون أن تبلغ جوفها أية مادة مخدرة. لقد كان لها نظامها الذاتي في تحقيق نشوة الروح وسكرة العقل. واليوم، ها أن عقلها المتعب صحوةً يرفض الاستجابة لطقوسها كأنما أعلن تمردا عن قائد قوي أرعن ظل يتحكم به ويرسله إلى أغوار الخيال وآفاق التجريد، قائد مستبد لم يكن سوى جنونها المستفحل. فأين هذا الجنون الآن؟ لقد كانت تعتمد عليه في فنها أو هو في الحقيقة يقودها أسيرة له مسلوبة الإرادة

معقولة الهوى حين ينتشي العقل يلامس حدود عوالم لا تدركها عقول عامة البشر فيخرج عليهم بطقوس غير مألوفة استقدمها من ذلك الأثير المجهول فيما وراء النفس الصاحية.

في ما مضى من شبابها الأول بتونس بلغتها أسطورة وادي عبقر، الذي يضم جنا هي ملهمة شعراء العرب ومنه اشتقت صفة العبقرية لتسند إلى الأفذاذ من الشعراء. وهي؟ ألم تسعد بمرافقة واحد من تلك الكائنات؟ أتراه كان جنيا من العرق الأبيض أو من العرق الأسود؟ وهل تراه استطاع أن يتأصل في مجتمع الأمريكيين؟ وقد يطلبون منه التجسس على جني آخر أو جنية عربية فالعرب إرهابيون ويحبون الجنس ويختزنون مقتا للأوروبيين والأمريكيين... مساكين...لكن من المسكين؟ من؟ أخبريني أيتها الكأس؟ أو أخبرني أنت أيها الجني؟

ظلت لفترة تناجي نفسها وأفكارها أو هي تناجي كأسها ونشوتها. وتشكلت المعاني أمامها صورة من حروف ومشاعر اتحدت مع صدى وجدانها فأحستها وامتثلت لها ثم أطلقت صوتا مترنما في فضاء الغرفة هو سيلان لوجيب نفسها:

الصوت الخفي يناديني
ينفذ إلى مسامع قلبي
"دع عيني تخترق الضباب
دع يدي المبتورة تكسر القضبان"
رق الأيام يرهقني
عويل أشربه
مع كأسي المترعة أحزانا
سأخلع ثوب الأسقام
وأتحد مع طائر الفينيق
حين يغادر مدى الآلام
ينتفض ويتشكل
مخلوقا من نور

يأخذني من سحب الهذيان
يرحمني من عذاب الظلام
وأنتشي في عالم النور والحقيقة
وأفلت من قيد الزمان
أولد شجرة شامخة
في أرض الأمان
تنشر زهرا أبيض
يعطر وخز الحياة
ويثمل قلبي الظمآن

انتشر الصوت في أثير الغرفة قويا حينا وضعيفا كالهمس حينا آخر، يعلو تارة وينخفض تارة أخرى فشكل لحنا أخاذا يبعث في نفس سامعه حزنا مشوبا بلذة غريبة. لم تدر كم مرّ من الوقت حين توقفت عن الغناء، نقلت نظراتها بين السقف وحامل الرسم وانتابها شعور الأعمى يسترجع بصره إذ يتسلل النور إلى ناظريه شيئا فشيئا. وفي تلك اللحظة سمعت صوتا يقول:

ـ هذا رائع يا سارة !

التفتت إلى مصدر الصوت فإذا جيمي يقف حذو الباب ماسكا هاتفه الجوال وقد بدا عليه الانبهار فقالت بانفعال:

ـ كيف تدخل علي خلوتي دون استئذان؟

ـ كنت تترنمين بلحن رائع وأحببت أن لا أفوت الفرصة في الحصول على هذه الأغنية بصوتك منفردا دون آلات موسيقية.

رنت سارة إلى الرجل بعيون أوسعتها الحيرة ونظرات زائغة كأنما تتساءل عن معنى قوله الأخير.

واصل جيمي الكلام متحمسا:

ـ من أين لك هذه الأغنية الجديدة؟

أجابت المرأة بنبرة طغى عليها الفتور:

ـ عن أي أغنية تتحدث؟

ـ أتحدث عن الأغنية التي كنت تؤدينها الآن.
ازداد اندهاش سارة فرفعت حاجبيها و سمرت نظرها على جيمي محركة رأسها يمنة ويسرة في إشارة لعدم فهمها لمقاصده. ولاحظ الأخير ذهولها، فخطر بباله أن تكون نسيت الأغنية جراء السكر وقد رأى القارورة بجانبها والكأس بيدها فأدنى لها هاتفه الجوال لترى تسجيلا فوريا لها وانبعث صوتها في نغمة شجية.
اعترى الشابة ارتباك طفيف وأطلقت تنهيدة عميقة لما أحست بنشوة ساحرة تخترق أوصالها.
ازداد نجم الفتاة لمعانا بنجاح الأغنية لدى الجماهير وتحولت في وقت قصير إلى محور اهتمام في قنوات تلفزيونية و مجلات وصحف عديدة واختارتها منظمة الأمم المتحدة لتكون سفيرة دولية للسلام لما ضمته الأغنية من معان تحث على النهوض والانطلاق من الأسر نحو أرض الأمان. وحلت بعد فترة من انتشار الألبوم الجديد ضيفة ببرنامج غنائي على محطة "يو بي آن". رحب بها المقدم ثم تحدث عن أعمالها الفنية من رسم وغناء وقدم لقطات مصورة تمثل زيارة لبيتها ولم يفته الحديث عن غرابته وفي مرسمها علق قائلا:
"في هذه القاعة الصغيرة يولد الإبداع، إذ هنا أخرجت سارة لوحتيها الشهيرتين"دموع الأرض" و"نار الهذيان " للوجود. وهنا أيضا انبعثت أغنيتها الجديدة " من وراء الضباب" للحياة..."
وعند انتهاء اللقطات المصورة توجه الشاب لسارة سائلا:
ـ أخبري محبيك عن سر اختيارك هذين العنوانين للوحتيك الشهيرتين"دموع الأرض" و"نار الهذيان".
ردت سارة ببساطة ودون تكلف:
ـ ليس في الأمر سر إنما أحس بتناسبهما مع محتوى كل من اللوحتين.

ـ هل يعني ذلك أنك في إحدى اللوحتين قد رسمت الأرض باكية؟ هل تلمحين إلى ما يحدث في فلسطين والعراق؟
ـ إنها استعارة لغوية فحسب. قد أكون قصدت إلى كتلة الألم المحسوسة أو التي يشير إليها تمازج الألوان وتضاربها.
ـ ألست متأكدة مما قصدت إليه؟
ـ لا أعتمد كثيرا على تفسير منطقي لما أرسمه فأغلب رسومي تندرج ضمن الفن السريالي أي الذي ليس له أي همٌّ أخلاقي أو سياسي، فقط كنت أعبر عن فكر وأحاسيس صافية ومجردة وحتى في اللوحة الأخرى "نار الهذيان" قد لا تجدون علاقة واضحة بين الاسم والرسم.
ـ يمكن أن نلمس العلاقة بين تلك اللوحة واسمها من خلال الألوان الحارة الطاغية بها مثل الأحمر والبرتقالي والأصفر والبني، تلك الألوان التي تذكرنا بالنار وتذكرنا بما يحدث في الشرق الأوسط وقد تكون نيران الغضب.
أومأت سارة برأسها في إشارة أنه ليس لها إضافة على ما قالته وقالت باقتضاب:
ـ إني أعتمد على الإحساس لا على الاختيار.
عندئذ توجه المقدم إلى الكاميرا قائلا:
ـ أعزائي ! ابقوا معنا ولا تغيروا المحطة لأن "الأسطورة الحية" "السفيرة العالمية للسلام" سارة ستؤدي أغنيتها الجديدة الداعية للسلم و للحب وللحياة "من وراء الضباب".
بعد ذلك عرضت لقطات إعلانية وظل المقدم في الأثناء يتحدث إلى سارة في انتظار انتهاء البث الإعلاني. وجيء بآلة بيانو تم وضعها بالحلبة التي تتوسط "استوديو" البرنامج الكبير.
عاد النقل المباشر فتقدمت سارة من الحلبة حيث كان ينتظرها عازف جالس إلى "البيانو" الأنيق. شرعت في الغناء وقد رافقها العزف الشجي الهادئ. وتفاعل الحاضرون معها وكان المقدم يميل برأسه مرسلا نظرات متخاذلة وأحيانا يضع يده على صدره مطلقا تنهيدة كعاشق متيم أُبتليَ بعذاب الحب.

تمت الأغنية فعبر الحاضرون بتصفيقهم القوي عن إعجابهم بحسن الأداء وعادت سارة إلى مجلسها. فواصل المقدم ذو الروح الفكهة التحاور معها:

ـ الأغنية رائعة لحنا وشعرا ! هل ننتظر منك أغان جديدة تخاطبين بها العالم نيابة عن شعبك العربي وعن السود الذين تنتمين إليهم بحكم لون بشرتك؟

أجابت سارة بينما سحنة وجهها غارقة في جدية متصادمة مع دعابة المقدم:

ـ لست شاعرة ولم أفكر في نظم الشعر ولا في تلحين الأغاني ولا أحمل أي هم سياسي أو عرقي.

ـ لكنك الآن تمثلين في نظر العالم "سفيرة سلام" !

ـ أكره السطحية ولا أتقبل أن أغير وجهتي الفنية من أجل هذا اللقب إذ يمكن أن نعبر عن حبنا للسلام بتلقائية كحبنا للجمال وعشقنا له.

ختم المقدم اللقاء متوجها إلى المشاهدين فقال و ابتسامة خبيثة ترين على محياه الأسمر بينما روح الدعابة تلازمه:

ـ الظروف التي ساهمت في ظهور الأغنية لا تزال قائمة وقد تدفع فنانتنا الموهوبة إلى إنتاج مقطوعات جديدة تضاهيها روعة فنهر الإبداع عند هذه الشابة السمراء مازال يسيل متدفقا بمياه عذبة صافية تروي كل روح صادية إلى الجمال والنقاء.

بعد هذا اللقاء التلفزي بأيام قليلة أرسلت صحيفة "نيويورك بوست" صحفية جريئة لتجري معها لقاء ببيتها.

جلست الصحفية بالبهو الكائن بالطابق الأرضي وأثناء الحوار قالت لها كالمتحدية:

ـ ليس هناك أي داع من تجريد أغنيتك من دلالاتها السياسية فأنت دون شك قد قصدت الدفاع عن الأسرى العراقيين والفلسطينيين والعرب بصفة عامة، كما أن طائر الفينيق يمثل شخصا ما بنظرك فمن هو؟ ألا يكون ذلك الشاب الإرهابي الذي وقعت بحبه و تخْشَيْن افتضاح أمرك أو أن يتم اعتقاله.

كان السؤال بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير فتقلصت عضلات وجه سارة لتنفجر في وجه الصحفية قائلة:

ـ ما من أحد أبرع من الصحفيين في نسج الشائعات كأنكم عناكب سامة ! لا أريد مواصلة الحوار.

قالت ذلك ثم نهضت في عصبية واتجهت إلى السلم لتصعد إلى الطابق العلوي.

غادرت الصحفية قبل أن تنهي حوارها المؤمل لكنها كتبت في مقالها أن سارة انتفضت واهتاجت حين سئلت عن الشخص المقصود بطائر الفينيق لأنه لم يكن سوى ذلك الشاب العربي المشبوه الذي تحبه حبا جارفا وقد سعت جهدها لكتمان الأمر حتى لا يؤثر على سمعتها. وكتب صحفي آخر في مجلة "إن تاتش" أن سارة تغني من أجل كسر القضبان واختراق الضباب لأنها كبلت نفسها طويلا ورفضت الحب والحياة وأنها الآن تلج مع فارسها "طائر الفينيق" أحد فرسان "بن لادن" دنيا العواطف المحمومة.

قرأت سارة كل ما كتب عنها وعن أغنيتها الجديدة فزاد ذلك من كرهها للحياة الاجتماعية وخاصة لوسائل الإعلام التي بدا لها أنها صممت على تحديها بالمضي في نسج خيوط شائعة لا أساس لها من الصحة.

وكانت كلما لمست تلميحا من أحدهم إلى الخفايا العاطفية والسياسية لأغنيتها تستشيط غضبا فتثور وترغي وتزبد لكن المحيطين بها ينجحون في تهدئتها ويؤكدون لها أن الزوبعة هي من علامات نجاح الأغنية.

حل ربيع سنة 2006فطارتوفيق صحبة زوجته إلى أمريكا يحملهما الشوق لمشاركة سارة نجاحها الأخير ولم يتوقعا أن يتعرضا إلى كل ذلك التفتيش بمجرد أن وطئت قدماهما أرضية مطار"كينيدي انترناشيونال" الواقع جنوب شرقي جزيرة منهاتن فقد جهلا أن جهاز الأمن الأمريكي قد تلقى معلومات

باحتمال لجوء عناصر إرهابية موجودة في الولايات المتحدة إلى استخدام الأحذية المفخخة في هجمات جديدة.

تخلصا أخيرا من إجراءات التفتيش الثقيلة فسارا يبحثان عن وجه أنطون الذي خف لاستقبالهما مستعملا سيارته. ركب ثلاثتهم السيارة واتجهوا شمالا نحو منهاتن ، انبعثت في الأثناء أنغام الأغنية الساحرة بفضائها الدافئ ولم يجد الزوجان صعوبة في فهم الأغنية ومعانيها فقد كانا يتقنان الانقليزية بل لعلهما فهما الإيحاءات الغامضة الكامنة في القصيد فهما أدرى الناس بخبايا نفسها وأقرب الناس إليها رغم بعد المسافة بينها وبينهما في الواقع.

وصلا إلى البيت فصعدا إلى الطابق الثاني لينالا قسطا من الراحة بعد أن علما أن سارة قد تحولت إلى نزل "بالم بيتش" في"ميامي" بمقاطعة فلوريدا استعدادا للحفل الذي سيقام على شرفها.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء حين استيقظ الزوجان من غفوتهما فاستحما ثم نزلا إلى الطابق الأول حيث وجدا مارتا قد أعدت لهما وجبة خفيفة ومتنوعة متمثلة في سلطات و عصائر وقطع من الجبن وبعض شرائح اللحم المشوي.

جلس توفيق إلى المائدة بينما التحقت كلثوم بمارتا في المطبخ حتى تساعدها في إحضار باقي المستلزمات وقد بدت نشيطة أثناء تجوالها بأرجاء البيت فهذا يوم استثنائي في تاريخها إذ فيه ستشهد فرحة عظيمة هي فرحة نجاح وحيدتها، ولم تكن الوحيدة التي أسعدها هذا النجاح فقد تجلت مظاهره على كل من في البيت وقد كانوا يتأهبون لحضور حفل التوقيع كمن يتأهب لحضور زفاف فرد من أفراد العائلة بل كأن سارة هي التي ستكون عروسا متوجة بتاج المجد في حفل هذه الليلة.

تناول توفيق رشفة من عصير الأناناس ثم قال موجها نظره نحو أنطون:

ـ كيف جرت الأمور في الفترة الأخيرة؟

رد أنطون وهو يتأهب لرفع شوكة بها قطع صغيرة من الخضر الطازجة إلى فمه:

ـ لقد واجهت سارة بعض المتاعب في الفترة الأخيرة، لكنها الآن تغلبت عليها بعد نجاح الأغنية.

توقف الزوجان عن الأكل وقد استغربا مما سمعا ورددا بصوت واحد:

ـ متاعب !

تدخلت مارتا قائلة:

ـ لقد تمكن أحد المصورين المتطفلين من التقاط صورة جمعتها بشاب مجهول يعتقد بأنه من اصل عربي وقد يكون تونسيا وتم نشرها في الصحف واستغلالها في نسج خيوط إشاعة مغرضة.

قالت ذلك ثم توجهت إلى غرفة المكتب القريبة من مجلسهم حول السفرة ثم قدمت وهي تحمل نسخة من مجلة "إن تاتش" وقدمتها لكلثوم.

قال أنطون موجها حديثه إلى توفيق فيما انشغلت كلثوم بتأمل الصورة :

ـ جرّبت سارة مؤخرا مرارة الشائعات وقد اقترحنا عليها أن تسافر إلى أوروبا للاستجمام والراحة لكنها رفضت خوفا من تفاقم الأمور وقررت أن تقصد نزلا بأمريكا وكانت فرصة الحفل مناسبة جيدة فهي ستقيم في نزل "بالم بيتش" بضعة أيام لتستعيد إشراقها وحماسها للحياة.

أنهى الزوجان طعامهما. فنهضت مارتا من مكانها وشرعت تنقل أواني الطعام إلى المطبخ بواسطة طاولة صغيرة ذات عجلات واستخدمت المصعد الذي أحدث مؤخرا ليربط بين الطابق الأرضي وقاعة الأكل الواقعة بالطابق الأول وكانت المرأة تلقى عناء كبيرا في حمل الأطعمة إلى غرفة الأكل بواسطة السلم وطلبت من سارة نقل أثاث السفرة إلى الغرفة الوحيدة الموجودة بالطابق الأرضي والتي اتخذتها مع زوجها

غرفة نوم لهما منذ حلولهما بأمريكا لكنها رفضت الفكرة وقررت تجهيز البيت بمصعد كهربائي.
دخل توفيق وكلثوم غرفتهما الواقعة بالطابق الثاني وشرعا يتهيآن للسفر مجددا والذي سيكون هذه المرة نحو فلوريدا.
كَلّفت شركة الإنتاج وجها إعلاميا معروفا لتنشيط حفل التوقيع و دعت إليه العديد من نجوم الفن ومشاهيره من مغنين وملحنين ومخرجين وإعلاميين ورسامين ونحاتين.
بدأت أفواج المدعوين تهل على النزل الفخم وقد ظهر الرجال بأكمل أناقتهم، بينما غالت السيدات في زينتهن حتى شابه مدخل النزل رواق عرض اختالت فيه الحاضرات بفساتينهن الثمينة ذات التصاميم الحديثة والألوان الخلابة والتقاطيع المثيرة التي كشفت عن أجساد فاتنة تتلوى غنجا وقد ظن الجمع كلما ظهرت إحداهن بالبهو أن ثوبها الأجمل بين الأثواب والأكثر إثارة وإغراء.
ولج الوافدون قاعة الاحتفال الكبرى بالنزل، كانت قاعة فسيحة وفخمة وتدلت من سقفها الاصطناعي ثريات ضخمة من الكريستال وأسدلت على نوافذها وأبوابها البلورية التي تفتح على حديقة النخيل ستائر حريرية جميلة الطيات والتشكيل.
أما الإضاءة فقد تربعت على عرش الزينة في هذا العيد الغنائي، إذ تراءت القاعة كالغارقة في لجة من النور البنفسجي الخافت الذي سمح لضوء الكشافات الضخمة بالتلاعب في غماره ليشكل أشرطة تتقاطع مع بعضها البعض وتطول وتقصر وترتفع وتنخفض كأنها كائنات نورانية انطلقت سابحة خفاقة في فضاء القاعة الحالم، فضاء بدا كسماء مرصعة بنجوم هي عقود من المصابيح الصغيرة المتلألئة كجواهر ثمينة بصدر غادة حسناء.
شرع أعضاء الجوقة الموسيقية في عزف ألحان هادئة استعدادا لانطلاق الاحتفال، وفي الأثناء انهمك بعض الحاضرين في الحديث إلى بعضهم البعض، وانشغل البعض الآخر في تحية

أصدقائه، بينما جلس آخرون إلى موائد ضجت بما عليها من أصناف المرطبات والمآكل والعصائر والخمور.
بعد برهة أطلت سارة تختال بفستان سهرة برونزي اللون يبرز كتفيها وجزءا من صدرها وسيقانها السمراء. أما وجهها ذا اللون الترابي فقد تألق حسنا وبهاء وبرزت ملامحها الجنوبية أخاذة مع هالة الشعر البني المعقوص أعلى جبينها بمشبك من ورد برونزي من ذات قماش الفستان الحريري شكل حدا فاصلا بين الشعر المفرود أعلى الجبين والشعر الذي انطلق إلى الخلف كباقة من جدائل لولبية تضج أنوثة.
أضفى التجميل مظهرا غير مألوف على النجمة الشابة فبدت كتمثال برونزي قدّتْه أنامل فنان عبقري. ولما أبصرتها عيون الحاضرين انبهرت بها وعبرت الأيادي عن ذلك تصفيقا وهتفت بعض الأفواه مرددة اسمها.
استقبلها المنشط وأثنى على جمالها ثم بسط لمحة عن مشوارها في عالم الغناء وذكّر الحاضرين بقدرتها الفائقة في الرسم السريالي وعرج على ذكر ألبومها الأخير "من وراء الضباب"الذي كان سببا في اختيارها من قبل الأمم المتحدة كسفيرة سلام.
كان المنشط يتكلم عنها بينما أبحرت هي في عالمها الخاص وبدت ساهمة ذاهلة عمّا حولها كأنها تقف على أرض غير ثابتة وقد شعرت بغربة تكتنفها وتربك توازنها فهي لم تنفر من شيء في حياتها قدر نفورها من اللقاءات العامة التي تختلف كل الاختلاف عن حفلاتها التي تفرغ بها كل ما بداخلها من شحنات وجدانية، بيد أنها الآن تقف بين هؤلاء الناس وقفة الضيف والضيافة تعني بالضرورة الغربة والتفرد بعكس الاندماج والتماثل الذي يحصل بينها وبين محبيها كلما غنت أو رقصت. تقف الآن بمجتمع غريب عنها رغم اهتمامه بالفن، تقف هجينة عنه جاهلة بكل تقاليده وأعرافه،إنه يقدس الاحتفال والتكريم والتتويج، مظاهر لم تأبه بها في حياتها ولم تشكل

يوما لناظريها هدفا تسعى إليه. ما أعجب ما يحدث معها اليوم ! هل تصالحت مع الحياة الاجتماعية؟ كيف سلمت وجهها للمزين يخط به ما يشاء؟ هل صارت موضوع عمل بعد أن كانت الفاعلة؟ أين تمردها وثورتها؟ أروح غير روحها تحركها اليوم وسط هذا الجمع وتطمس شخصيتها بآثار جديدة عنها؟

نظرت إلى من حولها فرأت وجوها سعيدة وأسارير منفرجة ترنو إليها و قد استشعرت نفسها كتمثال معروض خلف واجهة بلورية تفصله عن العالم الخارجي. نظرت ناحية اليمين فرأت عينين مألوفتين لديها لم ترهما منذ مدة. لقد كانت والدتها بثغرها الباسم وفرحتها المشعة ورأت والدها ينظر إليها بعينين تنضحان حنانا وفخرا. وعلى العكس مما قد يذهب للظن فقد زاد مرآهما من إحساسها بالغربة لأنها لم تتعود حضور حفلات معهما.

مرّ وقت كان به المنشط يتحدث عن أغنيتها الجديدة غير أنها لم تدرك لكلامه معنى ذلك أنها كانت تحلق بأثير جديد عنها وقد أُبعدت عن مضمارها الذي ألفته. تنبهت إليه فجأة يطلب منها أن تؤدي أغنية "من وراء الضباب". تناولت المصدح وشرعت في الغناء و أخذت روحها المغتصبة تعود إليها شيئا فشيئا وبدأت تحرك جسمها الذي كان أسيرا لضعفها واغترابها وتفاعل المدعوون مع ألحان الأغنية وكلماتها.

انتقلت الفتاة من مكان إلى آخر متأثرة بنغمات "السلو" التي صدرت ذات يوم عن وجدان يحتدم ألما وانصهارا، وقد تقوقع يجتر غرابة الحياة فاهتز نشوة اضطرمت ألحانا وكلمات جميلة. فجأة وفي غمرة سكرتها بترانيم روحها الشاذة لمحت عيناها الناعستان وجها طالما حاولت تذكر تقاسيمه، وجهٌ ارتبط في ذاكرتها بألم غريب، ألم مشفوع بلذة الروح، لذة خفية تستعذبها وفي ذات الوقت تنكرها إنه ذلك الوجه الأسمر المستدير ذي العينين العسليتين.

كان الشاب واقفا خلف بعض الحاضرين يرسل إليها نظرات ثابتة وقد فتر ثغره الصغير عن ابتسامة ساحرة. أحست بارتجاج حين رأت تلك النظرات وتلك الابتسامة، أدارت وجهها وقررت أن تتجاهله حتى تتمكن من إتمام الأغنية، لكن شعورا من الرضا والاكتفاء خيم عليها وجعلها ترى نفسها متربعة على عرش الكون تغني لكل سكانه بصوت هو الجوهر في نقائه والسلسبيل في صفائه وتدفق سيل من المعاني مع كل كلمة تنطق بها، معان لم تدركها في ما مضى في أغنيتها الغريبة. استغربت مما يحدث معها بل أدركت أنها واقعة تحت تأثير لم تعهده من قبل وحاولت جهدها أن تتخلص من سلطته لكنها لم تقدر فقد تنعمت روحها هذا الأنس فشقت عصا الطاعة عليها واستمرت أسيرة لوجود خفي يثملها و يؤرجحها، لا بل هو يركز خطاها ويزيدها ثقة بذاتها المنتشية، غير أنها لم تكرر الالتفات إلى تلك الناحية الممغنطة التي تضم العينين الخلابتين.

فرغت البنت من الغناء فانضمت إلى والديها اللذان يجهل الحاضرون قرابتهما الدموية بسارة فيما واصل الباقون الاحتفال فرقصوا وشربوا وأكلوا من خبزة المرطبات الكبيرة التي ضمت صفحتها المستطيلة عنوان الألبوم وتصوير لوجه سارة ب"الكريما" البنية.

بعد ساعات من الرقص والاحتفال انفض الجمع وصعدت النجمة لترتاح في الجناح الذي احتجزته. خلعت فستان السهرة ثم أزاحت ما علق بوجهها من مساحيق ونزعت المشبك من شعرها ثم ولجت غرفة الاستحمام الفخمة فملأت الحوض الدائري ماء ساخنا فوارا بفعل ضخ الاسترخاء المستمر، تمددت به وحالما أغمضت عينيها تراءت أمامها صور الحفل بشخوصه وبهرجه وبين تلك الصور رأت صورة مختلفة عنها ومتميزة، إنه هو، ذلك الذي صار شخصية بارزة في مسرح حياتها والذي كان بطلا لأحلامها. ماذا يفعل الليلة بين

المدعوين؟ هل تمت دعوته؟ أكيد أن من دعاه قد تقاضى أجرا عن ذلك من الصحافة إذ لا علاقة له بالفن أو الغناء.
خرجت من الحوض مصممة على نسيان أمره والانشغال بالترفيه عن نفسها لإزالة الضغطة التي كتمت على أنفاسها مؤخرا وقد كان هو أحد أسبابها. ارتدت بنطلونا من الجينز الخشن وقميصا طويل الأكمام ثم جففت شعرها وخرجت إلى الشرفة. جلست تتصفح كتابا عن الرسم الانطباعي التجريدي. شعرت بجوع مفاجئ ففكرت بطلب شيء من القهوة والمرطبات وقبل أن تمسك بسماعة الهاتف القارّ رن جرس جوالها الموضوع على طاولة الزينة، كانت نغمة مجهولة. فتحت الخط وتأهبت للرد، انبعث صوت رجالي خشن يقول:
- آنسة "مقدم" ! لا تنسي ما اتفقنا عليه، نريد تقارير مفصلة عن لقاءاتك بالشاب التونسي، كل كلامه وأفكاره.
أقفلت سارة الخط بعصبية وتوتر وظلت واقفة لبرهة تزدرد استياءها بعد ذلك عدلت عن فكرة الاتصال بأعوان الاستقبال والخدمات للحصول على القهوة وقررت النزول لترشفها بأحد الصالونات المطلة على الأطلسي.

جلس عدنان في قاعة فسيحة، سقفها عال وجدرانها بيضاء، وقد فرشت كلها بحصر وحشيات عتيقة من مثل ما يستعمل في مجالس القرويين. مثلت القاعة أرحب مكان في المبنى الذي اعتاد فيه أفراد التنظيم على إبرام لقاءاتهم السرية. وهي تقع بمنطقة متطرفة شمال مدينة تونس على الطريق القديم المؤدي إلى مدينة بنزرت وهي منطقة لا يزال سكانها يعدون على الأصابع وقد قامت بها بناءات ومنازل فخمة متفرقة هنا وهناك وهي على ملك بعض الأثرياء وقد جهز بعضها بينما لا تزال الأشغال قائمة بالبعض الآخر منها أما شوارعها فهي عبارة عن مسالك من التراب المجروف.
اتخذت الجماعة من أكثر البنايات انزواء وتطرفا مقرا لها وقد كانت منزلا كبيرا يشرف على أراض شاسعة انتشرت بها بعض أشجار برتقال في غير انتظام وقد مثلت المنطقة فيما مضى حقول قوارص غير أن زحف العمران جعل أصحابها يفرطون فيها بالبيع وقد أغراهم ثمن الأرض المرتفع.
تربع أفراد الجماعة بالقاعة الكبرى بالمنزل على الحشايا المبسوطة وقد عكست أثوابهم البيضاء تصادما مع ذقونهم الكثة السوداء كما مع شعر رؤوسهم الغزير الداكن وكاد اللونان الأسود والأبيض يطغيان على القاعة لولا بعض الألوان الباهتة في البساط القديم. كان منظر الرؤوس واللحى الداكنة عند الجالسين يؤشر على عدد سنواتهم القليلة بهذه الحياة ويُحَدّث عن شباب غض. وقد كان عددهم يربو عن الخمسين وبين كل هؤلاء تمَيَّزَ رجل بجلوسه على أريكة خشبية صغيرة ذات نقوش عربية ووضعت أمامه منضدة صغيرة نضدت فوقها رزمة من الأوراق ومصحف وسبحة ومصدح صغير.
بدا على الرجل أنه الأكبر سنا بين الحاضرين والأكثر شدة وصلابة واتقدت من عينيه نظرات ثاقبة وارتسم بين حاجبيه تقطيب ثابت ولاحت على جبينه الأسمر بقعة مستديرة داكنة

وقد غطى شعره بطاقية بيضاء برزت من جانبيها خصلات من شعر مجعد غزا الشيب أكثره و دل فكاه المحجوبان بلحية رمادية كثة على سر الصلابة البادية على وجهه ولم يكن أحد ليعرف هويته الحقيقية فقد كان كلامه مزيج من لهجة أهل المشرق وأهل الجزائر والمغرب الأقصى.

أمسك الرجل بالمصدح وقربه من فيه وتكلم فبانت أسنانه المنتظمة:

" بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، أما بعد أيها الإخوان نجتمع اليوم وككل مرة في الله وبالله ونصرة لدين الله ودين نبينا محمد شفيع الأمة عليه أفضل الصلاة والسلام.

نجتمع اليوم وككل مرة لنسعى جاهدين بكل ما أتانا الله عزّ وجلّ من قوة وبكل ما جبلنا عليه من حب له ولرسوله ونبيه خاتم الأنبياء محمد المصطفى الأكرم ـ قلت نجتمع ـ لنسعى إلى حماية هذا الدين من الدنس ومن عبث العابثين ومن طيش إخوان الظلام أعداء الإسلام.

أيها الإخوان إننا اليوم هنا لأن مجيئنا إلى هذه الدنيا ما كان عبثا بل كان لإتمام رسالة بعثنا لأجلها، رسالة متمثلة في تمثيل دين الله وفي تحقيقه على هذه الأرض وقد قال عزّت صفاته في سورة الصف من كتابه العزيز" يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"

أيها الإخوان إن الدين عند الله الإسلام والإسلام كما تعلمون له قواعده وأصوله التي لا يجب أن يحيد عنها وإن خولفت هذه الأصول والشرائع صار الإسلام مجرد اسم وغابت مظاهره وغابت تباعا فضائله.

إخواني، أنتم مسؤولون أمام الله على إصلاح ما فسد في هذه الأرض لأنكم قد نهلتم من شعائر هذا الدين السميح وتشبعتم

بتعاليمه ومرجعياته وحفظتم القرآن شهيدا عليكم وصار لزاما عليكم أن تنصروا هذا الدين، فهو أمانة بين أيديكم الطاهرة كأجسادكم المُحَجّلة من أثر الوضوء والصلاة والصيام والعبادة.

إخواني، إنكم ستسألون يوم تقومون بين يدي الخالق عن عملكم في هذه الدنيا، ويكون السؤال هل حافظتم على الدين؟ فأعدّوا العدة لذلك اليوم الجلل. وجاهدوا أنفسكم على ترك سبل هوى النفس وإتباع النور الذي قذف في قلوبكم من تلاوة القرآن. اتبعوا النور واجعلوه نبراس حياتكم، اجعلوه صوب أعينكم. أنتم جنود الله وقد بعثتم إلى هذا الوجود لتطهروه من الدنس والآثام ومن المفاسد والرذائل فكونوا- إخواني - خير جنود لخير دين.

وقد قال تعالى في سورة آل عمران " قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لِأولي الأبصار"

صدق الله العزيز الحكيم، يعز من يشاء بنور الحق ويذِلّ من يشاء ببهتان الباطل ودنس الفسق.

الجهاد إخواني، يتطلب حزما وعزما وهو جهاد النفس في المقام الأول لتهيئة أرضية ملائمة للجهاد الآخر، جهاد مظاهر الفسق وجهاد أعداء الإسلام. فجاهدوا أنفسكم إخواني على أن تطهروها من إفك الموبقات، جاهدوا أنفسكم على أن تجعلوها نقية شفافة خالصة لله. وأخبركم إخواني وأنتم كلكم في زهرة الشباب أن الحب الحقيقي العميق الخالص النفيس المتعالي هو حب الله لا حب الشهوات وقد قال الله تعالى في سورة آل عمران " زيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب" وقد صدق الله في قوله فحب الشهوات من النساء

والبنين والمال هو متاع دار الدنيا الزّائف الآيل إلى زوال وقد قال تعالى أيضا " ألهاكم التّكاثر حتى زرتم المقابر" صدق الله العظيم فاطر السماوات والأرض، خالق النفس البشرية، ملبس الليل بالنهار، رب الحكمة والعدل.
إنكم يا إخواني، إن اتبعتم سبل الهوى عميتم عن سبل الهدى فاتبعوا ما يبقى وذروا ما يفنى فإنما الحياة لحظات نعيشها ثم ممات فحساب عسير، فأعدّوا العدة إخواني لذلك اليوم العظيم، يوم تقفون بين يدي الله ويسألكم عن أعمالكم في نصرة الدين.
أعدّوا إخواني العدة واشحذوا هممكم لتكونوا سيوفا مسلطة على رقاب السفهاء وقد قال المولى عزّ وجلّ في سورة البقرة " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"صدق الله العظيم رب الأولى والآخرة وللآخرة خير لكم من الأولى."
توقف الرجل عن الكلام ثم مدّ يده إلى رزمة الأوراق أمامه وكلف أحد المقربين منه بتوزيع المناشير على الشبان الذين تسلموها وطفقوا يطالعون محتواها وقد تضمنت خطبة منمقة مدعمة بآيات قرآنية تدعو للجهاد، وتشرع استخدام السلاح لردع المفسدين والمنافقين. انتظر الزعيم فراغ أفراد منظمته من قراءة ما بأيديهم ثم قال:
" اعلموا أيها الإخوان أن هناك مجموعة من الضباط الأمريكيين المتقاعدين وقد شاركوا في حرب العراق وطأت أرجلهم الدنسة هذه الأراضي ليحتفلوا بأعياد الميلاد في موفى السنة الميلادية المنقضية في أواخر شهر ديسمبر من سنة 2005 . جاؤوا إلى هنا فعربدوا وسكروا ومجنوا متناسين أنهم قد قتلوا مسلمين وعذبوهم ونكلوا بهم. جاؤوا يضحكون على ذقوننا ويهزؤون بنا وقد ساموا العذاب لإخواننا وأذاقوهم الهوان وها أنهم الآن وفي هذا الربيع وبعد أكثر من سنة يقبلون علينا ليتنعموا بدفء شمسنا وليستجموا في تلك النزل الفخمة المعدة لاستقبال أمثالهم.

هؤلاء الرجال إخواني ! وأمثالهم جراثيم تتسلل إلى جسد أمتنا لتنخره باسم السياحة ولم يكفهم أنهم قد بتروا منه أعضاء حية باسم الديمقراطية والحرية واستباحوا الحرمات واغتصبوا النساء ونهبوا الثروات.

لقد ارتكبوا كل تلك الآثام ولم يستحوا أن يقبلوا على أرض عربية ومسلمة يدنسونها ويفسدون شبانها ونساءها بما يقترفون من خلاعة ومجون.

هل تعرفون إخواني لم لا يستحي هؤلاء؟ لأنهم قد رأوا فينا منذ زمن وسيلة إما لإمتاعهم أو لإثرائهم.

وقد قررنا أيها الإخوان في سبيل حماية أراضينا وديننا أن نطبق الحكم الشرعي في هؤلاء.

قال تعالى : " وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون" صدق الله العظيم قاهر أعداء الإسلام.

أيها الإخوة لقد وقع الاختيار على أخيكم رشدي ليقوم بهذا العمل الجلل والذي سيؤول له شرف تطهير الأرض من هؤلاء الشياطين بعد أن يضمهم مجلس واحد يكون لهم قبرا.

بإمكانكم الآن أيها الإخوة أن تنهضوا لتهنئة رشدي بالشهادة والجنة المرتقبة."

قال الرجل ذلك ثم تناول من أمامه مفاتيح السيارة المجهزة بالألغام فقدمها لرشدي كأنما يقدم له ميدالية ذهبية أو كأنما يقدم له وساما فخريا وقبله مهنئا عند ذلك قام أصحابه لتهنئته وانفض الجمع بينما ظل هو مع الزعيم لتلقي التعليمات الخاصة بالعملية.

وضع نادل أسمر اللون قهوة "كابوتشينو" ساخنة وطبقا به قطع من المرطبات بكل لطف على منضدة صغيرة تجلس إليها سارة وقد استرخت على أريكة بصالون فخم تطل نوافذه البلورية الكبيرة على حديقة النخل المترامية الأطراف ومن خلفها بدت شواطئ الأطلسي بنفسجية تحت ضوء الفجر الحالم وقد تسابقت أمواجه نحو اليابسة تتخللها أعطفة من الزبد الأبيض كوّنها هيج البحر.
كانت الأمواج المتدافعة تأتي من بعيد في حزم ونشوة لتصل إلى لحظة وفاتها على الرمل الندي. كانت النهاية مصيرا محتوما لكل موجة عالية أو منخفضة، قوية أو هادئة كيفما كانت فلحظة النهاية تنتظرها على منحدر الشاطئ لتضمحل وتموت كما الإنسان الذي مآله الموت مهما اشتدت قوته أو تعاظم جبروته ومهما بلغ جاهه أو تحققت مشاريعه وأمنياته ومهما اعتلى من ذروات النجاح والشهرة وحتى إن صور له عقله الناقص أنه بلغ الكمال لما صدر الإبداع عن فكره أو يده.
كل البشر مقبلين أو أقبلوا على لحظة نهاية وفناء، لحظة يتلاشى فيها الحلم ويتوقف فيها الأمل وتسكت فيها أنفاس العزيمة وتتبخر فيها أحاسيس الانتشاء وينتحر الفعل ويصمت القول.
جلبت انتباهها موجة شديدة العلو قادمة نحو الشاطئ في عنف وسرعة ثم ما لبثت أن انخفضت وتلاشت في الحد الفاصل بين الماء والرمال كما يتلاشى آخر نفس للمحتضر في لحظة فاصلة بين الموت والحياة.
ترى هل سيتذكر الكون هذه الموجة؟أم أن ذكراها ستنمحي فيندمج تاريخها بتاريخ الأخريات؟ ولكن هل للموجة الفاترة تاريخ؟ تلك الموجة التي تنبثق في هدوء يشابه الصمت ثم تستنفذ حياتها دون أن تحدث ضجة ودون أن تشد الانتباه إليها.
كثيرون هم يماثلون الموج الفاتر في دورة الحياة، إنهم أولئك البسطاء من الناس، يولدون يعيشون الضنك والفقر وقهر

الأقوياء ثم يموتون فلا يتركون ذكرى بتاريخ البشر كأن لم يكونوا إذ هم لا يشبهون تلك الأمواج العاتية التي تعبر بعنفها عن قوتها فتحدث هديرا مدمدما، وتخلد بأذهان الناس ويحفظها التاريخ لأنها عبرت بلغة العنف والجبروت فحطمت سفنا ومراكب وأغرقت بشرا وسببت خسائر فادحة لمن وضعه القدر بطريقها وأمثال هذه الأمواج العنيفة كثيرون وقد حضرت بخاطرها بعض الأسماء لأشخاص عرفهم التاريخ المعاصر والقديم كجبابرة بهذا العالم، أسماء نقشت بحروف مضيئة في مفكرة الكون رغم مدادها الذي كان من دم الأبرياء ورغم لغة العنف التي استخدمها أصحابها في فرض الذات، ذات متعالية برفعة مفتعلة. أما ذلك الذي يهب حياته للخير والفضيلة فغالبا ما يعيش على هامش التاريخ وإن خلف بعض الأثر فلن يضاهي صيتا مُدَوّيا تتركه ذوات متعالية كسرت السائد والمألوف في أعراف الأمم والإنسانية.

عجبت سارة من طرافة الفكرة التي طافت بذهنها وتخيلت أنها تصرح بها في هذا البلد الذي جند كل طاقاته لمحاربة الإرهاب. من المؤكد أنها ستقاد مكبلة إلى "غوانتانامو" خاصة أنها من أصل عربي.

معظم المجموعات والشعوب خاصة تلك التي ذاقت ويلات الحرب باتت تخشى تكرارها، لكن حب الهيمنة وبسط النفوذ و مجد السيادة أغرى بعض عظماء العالم بغزو المناطق التي تشكل في نظرهم كنوزا من الطاقة والمعادن والأراضي الخصبة وحتى من اليد العاملة الرخيصة.

هل هو غرور السلطة وكبرياؤها أم هي سلطة الكبرياء ما يجعل هؤلاء يسلكون طريقا مغمورا بالدماء والضحايا؟ هل يسبب تضخم الذات جنون العظمة لتحتدم في فكر صاحبها حتى تؤلهه أحيانا كما في الحضارة الصينية والحضارة المصرية، الحضارتان الضاربتان في القدم إذ كانت أعلى نقطة في السلطة تستمد مشروعيتها من "ايديولوجيا" تمثل لها السند

اللازم للبقاء والسيطرة ومن ذلك حرية التصرف في مصائر شعوبها فالفرعون هو إله مقدس وهو ابن الإله رَعْ والإمبراطور الصيني القديم هو ابن السماء. لكن في تلك الحضارات القديمة كان الإمبراطور في الأغلب يمارس تألهه على شعبه أما في التاريخ المعاصر فإن صاحب السلطة يكرس عنصرية على أجناس وقوميات أخرى غير جنسه المفضل و قفزت إلى مخيلتها التجربة النازية للطاغية أدولف هتلر وما اقترفه وتعزيزا لعظمته وتشيعا لمذهبه العنصري الذي يميز الجنس الآري ـ جنسه تحديداـ عن بقية الأجناس والملل وقد نصب نفسه في أعلى الهرم التفاضلي فالـ "أنا" هو من الجنس الآري والـ"أنا" هو الزعيم والجنس الآري هو الأرقى بين الأجناس فالـ "أنا" هو الأفضل على الإطلاق.

لمعت بذهن سارة فكرة أخرى تولدت كنبات طفيلي بين ثنايا أفكارها لتزعجها ولتحول تفكيرها عن العالم ليرتد إليها مستهزئا بها وساخرا وليذكرها دوما بأنها منقوصة وأنه ما كان عليها التفكير بالعالم وشؤونه فذلك شأن الأسوياء أما هي فهي عقدة العقد وما كان ينبغي عليها أن تفكر بسياسة هتلر العنصرية إذ قد يهيج ذلك أوجاعها لا بل إنه قد بحث عن الجرح وفتحه فما يكون مصيرها لو وجدت في زمن هتلر بألمانيا وكانت فتاة سوداء لأبوين من البيض؟ هل كانت ستقتل أم ستعزل وتقصى كدابة جرباء والآن هل هي بمأمن وأمريكا التي احتضنتها تهددها بكشف سرها وتريد أن تجعل منها عميلة لاستخباراتها؟

آلمها ارتداد فكرها الجانح نحوها ولم تشأ استعطافه كي يكف عنها أذاه وهي إن استعطفته فهل ستستعطف الناس حين يعلمون بحقيقتها المتناقضة مع حقيقة والديها؟ لكن لمَ يصرّ هذا الفكر الجانح على نبش جرحها؟ لماذا لا تسكت زمزمة الآهات بداخلها حتى تستسلم للحظات من المتعة والسلوى في هذا النزل الفخم؟ أما آن الأوان أن تتغلب على ذاتها وتسلم

بحقيقتها؟ لا بل أما آن الأوان أن تحب هذه الحقيقة؟ الكرة الأرضية تعج بأعراق مختلفة من البشر، وخمس سكان هذا البلد هم من السود وهم يحاولون مجاراة نسق الحياة، رغم الميز العنصري الواقع عليهم من قبل البيض وهذا يؤكد أن عليها أن تطرد عن ذاتها الإحساس المستمر بالألم وقد أراد لها القدر أن تخوض هذه التجربة الخاصة بأن تكون من أبوين من العرق الأبيض وتعيش بوجدان متفرد يختزن شعورين مختلفين فهي سوداء تنتمي إلى البيض وقد يكون وراء نجاحها الفني وعليها أن تشكر القدر الذي جعلها تتذوق طعم الشهرة التي يركض وراءها الكثيرون.

في تلك اللحظة تردد صوت بداخلها كأنه رجع سنوات ماضيها القاحلة يذكرها بأنها ليست بيضاء ولا تريد الانتماء إلى البيض و بأنها لم تشعر طوال حياتها بأي شعور بالانتماء إلى البيض ولم تشعر يوما بأنها عربية رغم نسبها العربي وظل اندماجها مع سود أمريكا منقوصا ويشكو خللا لأن وجودهم فيها قد مد جذوره منذ قرون عديدة خلافا لها هي التي قدمت منذ بضع سنوات كفتاة وحيدة قادمة من شرق يعتبره الغالبية هنا معقلا للإرهاب والصّدامات وللرجعية والتخلف لذلك لازمها شعور قوي بالوحدة والغربة رغم المكانة الفنية المرموقة التي بلغتها ورغم أنها قدمت إلى نيويورك مدعمة بأموال والدهاٍ أعياها الانبتات وآلمتها الغربة القاحلة التي رافقتها منذ طفولتها ودفعتها إلى خلق هويتها المستقلة، هوية تخلقها خلقا جديدا وتُغْنيها عن كل الناس بيضا كانوا أم سودا،عربا أم عجما، الهوية التي اختارت بإرادتها الانتساب إليها هي الفعل، الفعل الذي يروق لذاتها المتألمة ولن يكون من دواعي اهتمامها أن تحقق نجاحا في أعين الناس ولكن ما سترمي إليه هو أن تحقق رضاها عن نفسها و نجاحا معها حين تترجم تلك الآلام وذلك الاستفهام الكبير بحياتها وذلك الاغتراب الشديد عن ذاتها إلى فن يكون بمثابة الذكريات وإذّاك يمكن لها حين يطفح الوجد

بداخلها أو حين تروم تجميع أشلاء هويتها المبعثرة أن تعود إلى أثر لها تسترجع به المشاعر التي عصفت بها لحظة ولادته وبذلك الشكل تصنع تاريخها بطريقتها الخاصة وتثبته من خلال العلاقة الجدلية التي تنشأ بينها وبين الفعل الذي يغدو مدونة تمدها بتفاصيل عن حياتها .

تنبهت فجأة أنها تصوغ فلسفتها الوجودية أخيرا من موقع المتأمل الواعي لا من منطق الفنان الذاهل عن الوجود وإنها لغريبة أن تعترف الآن بفلسفة وجودية قائمة على الفعل أيًا كان ذلك الفعل واع أم غارق في الثمول والهذيان لكن شيئا ما يعيقها ويكبل خطوات أفكارها الوجودية الممجدة للفعل، وهو أنها بموقع العميلة ! العمالة لستر العار ! ستر العار بعار آخر !

فأية نخوة للفعل؟ أي فعل هذا الذي سيبرهن على وجودها؟

كانت غارقة في تأملاتها حينما تنبهت فجأة على أصوات تخترق أذنها فحانت منها التفاتة إلى شمالها فرأت مجموعة من الشبان تجلس إلى إحدى المناضد، وبينهم ظهر وجه تعرفه جيدا وبسرعة البرق أدارت وجهها وعادت تنظر في كتابها لكنها أحست بالدم الحار يغزو رأسها ووجهها، لقد كان نفس الوجه الذي رأته الليلة. ماذا يفعل صاحبه في هذا النزل في هذا الوقت المتأخر بل هي ساعات الصبح الأولى. هل يتعمد ملاحقتها؟ استقامت واقفة دون أن تنهي ترشف قهوتها وتوجهت إلى مصعد قريب دون أن توجه ناظريها إلى أبعد من قدميها. سارت في أحد الأروقة مسرعة ثم ولجت غرفتها وهناك استلقت على سرير كبير من بين السريرين الموجودين بالغرفة الرحبة. أخذت تفكر بهذا الموقف الحرج الذي شوش سكينتها.

جلس توفيق بشرفة نزل غير بعيد عن الذي تقيم به سارة، كان يوزع نظراته بين أشجار الحديقة وبين زوجته التي جلست إلى جانبه على مقعد خشبي أنيق. دار بينهما حديث حول الحفل ثم

تشعبت بهما سبل الحوار لتصل إلى الشاب الذي ظهر في الصورة مع سارة.

قالت كلثوم:

ـ هل تعتقد أن الشاب تونسي؟

ـ لا أدري بالضبط ، لكني أعتقد أن لقبه مألوف لدي.

، أظنني أعرف أشخاصا في تونس العاصمة بهذا اللقب.

ـ وهل تتصور أنه يحب سارة فعلا؟

ـ   ابنتك تنفي أية علاقة لها به ! وحتى وإن كان العكس فهل أعرف ما تسره القلوب؟

ـ هل تُراه يصلح زوجا لابنتنا؟

ـ الشاب بعيد عنها كل البعد وزواجه منها يبدو ضربا من ضروب الخيال.

صمتت كلثوم وأرسلت نظرات شاردة إلى الأشجار الفارعة المنتصبة بحديقة النزل كأنها مردة أو شياطين خرجت من جوف الليل لتستمع إلى حوار الزوجين.

صمت الزوج برهة ثم أطلق نفسا من سيجاره الفاخر وقال:

ـ وما أدراك بأن هذا الشاب يصلح زوجا لها؟ هل عرفت مستواه الاجتماعي ووضعه العائلي؟ وهل ضمنت أخلاقه وسمعته؟ قد يكون مدمنا   أو مهربا، من الأفضل أن لا تجعلي منه محورا لتفكيرك لأن الفتاة لا تأبه له ، فلنتركها تحيى بسلام.

تخللت أشعة الشمس الدافئة الستائر البيضاء الشفافة، واخترقت فضاء الغرفة لتنصب على وجه سارة وتوقظها من غفوتها. فتحت الأخيرة عينين متعبتين من السهر وعادت اختلاجات الليلة السابقة تعبث في خبايا مخيلتها وتعيد إليها كل ما مر بها من أحداث، وكانت قد استسلمت فجرا لنعاس قهري بعد أن تهددت وتوعدت بإنهاء إقامتها بالنزل.

أجالت نظرها بفضاء الغرفة ثم استقامت جالسة و مر بذهنها ما اقترحه عليها جيمي ومارتا وأنطون حول السفر إلى أوروبا للسياحة وتغيير الجو. ليتها أذعنت لرغبتهم فهي لن توفق إلى الراحة بهذا النزل وهي محبوسة بين جدرانه وقد كرهت كل مظاهر الترفيه به، كرهته بمراقصه ومسابحه وفضلت عليه بيتها بحديقته النادرة وبمرسمه الصغير ووجدت أنها مخطئة إذ أقامت به وعليها أن تعجل بمغادرته خاصة أنه يضم فخا نصبته لها المخابرات وصيدا ثمينا للصحافة.

كانت عقارب الساعة الحائطية تشير إلى التاسعة . تناولت الهاتف القار واتصلت بالاستقبال لتطلب بعض العصير والقهوة والكيك وما هي إلا دقائق حتى طرق نادل أشقر الباب وكان يسوق أمامه طاولة ذات عجلات على متنها الإفطار الذي طلبته، حياها بتحية صباحية لطيفة ثم انصرف.

جلست تتناول إفطارها بعد أن اغتسلت وسوت شعرها، نظرت إلى أثاث الغرفة، سريران كبيران، أطر، أريكة، سجاد فاخر، مكتب وكرسي خشبيين، طاولة تسريح، وجدتها كلها تنظر إليها بل إنها تسخر منها. اتحدت كلها لتجعل منها موضوعا طريفا مثيرا للضحك، هل صارت فعلا أضحوكة بعد أن كانت البارحة رمزا للمجد والنجاح؟ أحست بجدران الغرفة تقترب منها ثم تضيق عليها حتى تلامس أضلعها، ما أضيق هذه الغرفة رغم رحابتها ! ليتها تستطيع أن تطلق نفسها من براثنها المغروزة في جسدها الأسير، وهواؤها الذي صار أفيونا يسري في عروقها فيخدرها ويفقدها صوابها ويصدع رأسها.

نصحوها بأن تقيم هنا لترتاح، كيف ترتاح وهي بعيدة عن نفسها مشلولة اليدين مقيدة الفكر؟ كيف ترتاح وهذه العيون الصدئة تلاحقها وتطفئ الشعلة المتأججة داخلها؟ الشعلة ! ما أجمل هذه العبارة التي أطلقها"بولوك" على لوحته تلك لتكون عنوانا للثورة التي تجيش بداخله ! إنها فعلا شعلة من نفسه قد يكون وجد بها ذاته المتألمة أو استطاع أن ينحت روحه الهاربة من هذا العالم البائس.رأت القهوة بين يديها تتحول سما يسعى لقتلها، كيف تفلت من هذا السم الحاقد؟ أين المفر من متاهات الدنيا المقفرة؟ لمن ستغني؟ ولمن ستغرد الطيور؟ أغمضت عينيها وحاولت أن تبحر في ذكريات طفولتها، تنشد الراحة وتبحث عن أمل كاسف. الطفولة ذلك الحلم الجميل ! تلك الكلمة الراقصة فرحا وزهوا هي عندها كابوس مترع بالمرارة والعويل، ولمحت في غمرة بحثها عينين عسليتين ولد فيهما شبابها،عينان طالما أبحرت فيهما وجالت، عينان سجلا طفولتها لحظة بلحظة، هما عينا امرأة اختارها القدر لتكون لها والدة. أحست بشيء مجهول يكلمها، يناديها، يطلب منها الإسراع بالرحيل ولكن إلى أين الرحيل ومن أين؟ الرحيل من الزمان ومن ظلمه وجبروته؟ أم من المكان ومن ضيقه وأسره؟ هيمن عليها إحساس بأن الغرفة ستطبق عليها وتقتلها، لابد لها من متنفس أو منفذ تهرب إليه، لا بد أن تستنشق هواء جديدا وأن تبحث عن مساحة تنطلق إليها للانعتاق من هذا الفضاء الخانق.

جلست إلى المكتب على المقعد الخشبي ونظرت من النافذة إلى شاطئ المحيط. كان هادئا بعد الثورة التي عصفت به ليلة البارحة. عثرت على دفتر بدرج المكتب فتناولت قلما ودونت عليه كلمات هي خيط رفيع بين لحظة مظلمة وأفق مشرق، خطت بعيون ثابتة كأنما سافرت صاحبتها بخيالها عبر ثنايا الزمن:

ومضى قلبي الحزين
ينتفض نزفا وأنين
ينشد الأمن
والحنين
يتلظى من عذابات السنين
عبثا يحاول أن يعرف
اليقين
هل يفرح للهفة العاشقين
ويقف بمرفإ العائدين
أم يسمع انتحاب الباكين
ويشارك المودعين
ملحمة تأبين

أغلقت سارة المدونة لكن إحساسا بالضيق ظل بقلبها خنجرا مسموما وتحول إلى شعور بالعجز. ما أعجزها حتى عن النهوض من مكانها ! لمَ يغشاها الضعف والوهن؟ لمَ يسحقها القهر؟ كيف السبيل إلى النجاة مما هي فيه؟ هل حكم عليها أن تظل حبيسة لجنونها وهذيانها؟ كم هي فقيرة ومعوزة ! أفقر من كل بؤساء العالم ! ما أشد فقرها ! وما أشد حاجتها إلى الأصدقاء والخلان ! لو كان لها صديق أو صديقة لشكت إليهما بؤسها وضيقها بعد أن خانها جنونها الرفيق الوحيد لها في هذه الحياة.
همت أن تتصل بوالدتها لكنها عدلت عن ذلك وفضلت أن تتصل بجيمي. ضغطت بعض الأزرار بجوالها وترقبت للحظات قبل أن يكون جيمي على الطرف الآخر للخط:
ـ ألو صباح الخير أيتها العزيزة سارة !
ـ صباح الخير يا جيمي !
ـ كيف قضيت ليلتك في النزل؟

ـ أمضيت أغلبها متأرجحة بين شعور بالضيق والكآبة وشعور بالرغبة في الرحيل.
ـ لم يفت على الاحتفال بنجاحك سوى بضع ساعات.
ـ أشعر بأني وراء أسوار سجن كبير.
ـ لقد كنت بخير ليلة البارحة !
ـ هنا يقيم ذلك الذي بدا معي في الصورة.
ـ هل يتعمد ملاحقتك؟
صمتت قليلا ثم قالت:
ـ ساورتني شكوك بأنه يسعى إلى الشهرة.
ـ هذا تصور قريب من المنطق لكنه لا يبرر رحيلك السريع.
ـ هل أظل هنا حتى تملأ صوري معه صفحات المجلات والجرائد؟
ـ هدئي من روعك يا سارة فالأمر لا يستدعي كل هذا القلق. إنه شاب متطفل وسرعان ما سيكتشف الجميع أمره. فكري بنفسك وبالحفلات التي تنتظرك فبعد أسبوع لديك حفلة بفلوريدا وبعد ذلك ستتوجهين إلى أوروبا للغناء بستوكهولم.
ـ لكني أضعت توازني.
ـ عليك أن تحافظي على ثباتك وقوتك.
نهضت سارة من مجلسها وتوجهت إلى الحمام فغسلت وجهها وأطرافها بماء بارد ولم تشعر وهي بالداخل بالشخص الذي دخل غرفتها وثبت جهاز تنصت على هاتفها الجوال. خرجت من الحمام توجهت نحو خزانة الملابس وبينما هي كذلك إذ بلغها رنين جوالها فتناولته بفتور وقد عرفت أنها مارتا.
ـ صباح الخير.
ـ صباح الخير سارة إني بالأسفل مع والدتك التي جاءت لتوديعك.
ـ حسنٌ، سأحضر حالا.
فتحت الخزانة فخلعت "الرّوب" وارتدت بنطلونا من الجينز الأزرق وقميصا فضفاضا آجري اللون. سوت شعرها على

عجل وخرجت من الغرفة متوجهة إلى المصعد لتلاقي والدتها. بلغت الطابق الأرضي فسارت باحثة عن المرأتين حتى وجدتهما.
سلمت البنت على أمها بل في الحقيقة ليندا هي التي كانت أعجل بالسلام إذ عانقتها وقبلتها. جلس ثلاثتهن على أرائك صغيرة ذات قوائم خشبية ومغلفة بقماش مخملي يميل إلى بياض في بهو غطى بلاط ذو حمرة داكنة أرضيته.
بادرت المرأة ابنتها قائلة:
ـ ما هذا الشحوب بوجهك يا سارة؟
ـ لا شيء، شعرت ببعض الملل لكني عزمت على تحديه.
ـ إنها الخطوة الأولى نحو القضاء عليه.
ـ أريد أن أخرج إلى الهواء الطلق، كرهت الجدران والسقوف.
ـ فلنخرج إذن لنتنزه في الخارج، الحدائق جميلة، والتقاؤها بالشاطئ يشكل منظرا بديعا. انطلقي يا سارة إن الحياة تفتح لك ذراعيها.
قالت المرأة ذلك وأشارت بيدها إلى الخارج، وكانت تقصد مباهج الحياة من سباحة وتنزه و استمتاع بأشعة الشمس.
سارت النساء بتؤدة في حديقة مترامية الأطراف تحيط بالنزل وتصل حدودها إلى الشاطئ بها نخيل اخضر وارف الظل ذو جريد مقوس يكاد من طوله يلامس الأرض وبه حمَّامات سباحة كثيرة منتشرة بأنحائها. مَشَين حتى بلغن حديقة منخفضة وكان بها كذلك نخيل باسق أخضر اللون وبها حلبة معدة لحفلات الزفاف وقام بوسطها كشك خشبي اسطواني الشكل ذو طلاء أبيض، لم تكن به جدران بل كان بأسفله درابزين جميل به فتحة واسعة قامت أمامها ثلاث درجات تستخدم لوُلوجه أما من أعلى فقد كان به قبة مخروطية الشكل توحي لمن يراها أنها قبتان تعلو الواحدة الأخرى وتتفرع من هذه القبة الجميلة أقواس تتخللها أعمدة غلفتها العُرُش الخضر وأمام هذا الكشك الجميل جعلت منطقتين لجلوس المدعوين تضمان

مقاعد خشبية بيضاء وقد رصفت في شكل سطور متوازية وكانت أرضية الحلبة مغطاة بعشب أخضر يانع زاد من جمالها وقد فصلت عن الحديقة بحاجز خشبي أبيض من الخشب المزخرف بأشكال هندسية بديعة.
راق للنسوة الجلوس بتلك الحديقة المنخفضة وقد اخترن مكانا جانبيا به مقاعد أنيقة من الخشب الطبيعي البني اللون ومظلات شمس مربعة الشكل متلاصقة لتشكل سقفا من القماش وقد قامت على أعمدة خشبية بيضاء غطتها العرش الخضراء. كان النسيم عليلا و قد راق مرأى الحدائق الخضر لعيون النسوة فصمتن مستسلمات لشعور من النشوة وقد خلب لبهن تمازج اللونين الأخضر والأبيض بالمشهد وكانت ليندا ترتدي "تاييرا" يميل إلى البياض أشرق معه وجهها ذو البشرة الفاتحة والمكلل بهالة من الشعر الأشقر وتناغم لون العسل بعينيها مع خضرة الجريد أما مارتا فقد ارتدت "جاكيتا" وردية و"بنطلون" أسود واكتسبت بشرتها القمحية احمرارا من تأثير النسيم والمشي تحت أشعة الشمس. بدت سارة مختلفة عن السيدتين بحيث يجزم من يراها معهما أنها لا تمُتُّ لأي منهما بقرابة وقد أظهر قميصُها الآجري وشعرُها البني الغامق - تلك البصمة التي تركها المزين برأسها في الليلة الماضية - جمالَ بشرتها رغم لونها الداكن وشكلت العيون السود مركز الجمال فيها وذروته، جمال حزين أطل من نظرات مِؤثرة ظللتها أهداب سوداء طويلة كأنها أهداب ريم بني اللون طفق ينظر بسذاجة إلى العالم من حوله.
استقامت كلثوم واقفة ثم طلبت من سارة القيام لمواصلة التجول بأرجاء الحديقة الشاسعة لكن الأخيرة وجدت بنفسها رغبة في مواصلة البقاء بالمكان كأنه قد شدها إليه بمنظره الطريف وكان دأبها منذ طفولتها أن تتخلف عن والديها رغبة في الانزواء، قالت بنبرة فاترة:
- ابدآ التجوال سألحق بكما بعد قليل.

ظلت بعد مضي المرأتين مسترخية على المقعد تتأمل الحلبة بكشكها الجميل، تساءلت في نفسها عن عدد حفلات الزفاف التي ضمتها وتراءى لها في الكشك طيف عروس تختال بفستان أبيض وقد وقفت بمحاذاة شاب مزهو، اكتملت أناقته. رأت الفرح يرقص في عيني الفتاة وهي تعلن موافقتها على الاقتران بالشاب ووعدها بالوفاء الأبدي له أمام راعي الحفل وأمام كل الحاضرين. أحست بفرحة العروس تنتقل إليها واكتسحها دفء تلك اللحظة كما لو كانت هي من تقف بذلك الكشك الذي اكتسب لونه من لون فساتين الزفاف، تذكرت في تلك الآونة الحلم، من يكون ذلك الشاب الذي رأته في منامها؟ وهل له وجود بالواقع؟ أم هو من نسج خيالها، خيالها الذي أبدع فارسا يحبها ويعشق سمرتها، خيالها الذي استجاب لهوى نفس لم تجرب الحب وتاقت إليه بكل جوارحها. سبحت بأعماق وجدانها تحاول أن تسبر حقيقة حبيب لم تره أو لعلها رأته غير أنها ـ كعادتها ـ رمت به إلى أغوار "لا وعيها" في محاولة لصمود هش يستهلكها كما تستهلك النار الهشيم. أحست بطيف يقترب منها، التفت إلى حيث سبقتها حواسها مرفوقة بهيمان وجدانها، كان نفس الوجه الذي طالما أزعجها وأسرها في ذات الوقت، إنه ذاته الشاب الذي جعلته الصحافة بطلا لقصة تروى عنها وتشد القراء. اقترب منها وحياها بابتسامة جميلة ارتسمت على محياه الأسمر وغمرته بشرا ونورا، لم ترد التحية بل نظرت إليه مشدوهة كأنما هرب الكلام عنها، أسرتها عيناه وحبستا الكلام بحلقها. جلس إلى جانبها فيما استسلمت لمشيئته كقطة وديعة أنست طمأنينة ببقائها حذو صاحبها. لم تأت أية ردة فعل كما لو كان لها معه موعدا، لقد أسكتت المفاجأة صوتها وشلت حركتها بل في الحقيقة سحره ما فعل بها ذلك، سحر غريب مقترن بحضور نافذ وغاشم. ما عادت قادرة على النظر إليه، ارتبكت، أرادت أن تنهض من مقعدها لكن أعضاءها شلت والوجود من حولها استحال إلى لجة من

السراب. ما عادت تحس بأحد أو بشيء سوى بهذا الرجل الجالس إلى جانبها والذي أثمل روحها فاهتز قلبها بين ضلوعها وأحست بحرارة شديدة تكتسح وجهها،هل تحلم؟ هل هو من وحي خيالها تشكل حينما نظرت إلى الكشك؟ الكشك ! وأين الكشك؟ لقد تداخلت صورته مع السراب الذي يغشاها.
وفجأة سمعت صوته، لا إنها لم تسمعه، بل هو اخترقها حتى الصميم، رن بقلبها لحنا جميلا أخاذا، لحنا عربيا، لقد اخترقها حتى وصل لأعمق نقطة فيها واستعذبته، إنه أشد إيناقا من أصوات أمهر الفنانين وأكثرهم شهرة ! صوته لم يتلاش في الهواء بل داعبها فازدادت ثمولا ونشوة:
ـ انتظرت لفترة طويلة أن تتاح لي فرصة كهذه للحديث إليك.
سكت ينتظر ردها ولما كانت إجابتها له صمتا قال:
ـ لم تجيبي. أعرف أنك مستاءة مني لكني في الحقيقة لم أقترف ذنبا في حقك، إنها الصحافة.
رنت لفظة الصحافة بأذنها كمنبه إيقاظ أو كجرس خروج فقاومت ما تحسه من نشوة لتقول بصوت ناعس:
ـ الصحافة لها كل الحق ! ما دمت تلاحقني في كل مكان.
ـ سارة.
نطق اسمها فاهتزت حواسها طربا لسماعه ينطلق شدوا عذبا من فيه.
واصل قائلا بنبرة هادئة بليغة مؤثرة:
ـ لم ألاحقك يا سارة إنه عملي. إني أعمل كمهندس إضاءة وقد جمعتنا الصدفة تلك الليلة في بوسطن واصطدم كل منا بالآخر واندلعت الزوبعة الإعلامية التي تعرفينها ثم بعد ذلك التقينا مرة أخرى بعيادة الأخصائي النفسي. وها أني الليلة التقي بك مجددا في هذا النزل فقد كنت ضمن الفريق الذي هيأ الإضاءة لحفل البارحة، حفلك الرائع يا سارة، فقد بدوت كأميرة قرطاجنية.

أحست البنت بهدوء يسري في كل كيانها وأوصالها بعد أن سمعت توضيحه واقتنعت به فأبدت استعدادا هانئا لسماع المزيد من ألحان صوته المطرب ولمس هو الآخر هذا التأهب منها فواصل خطابه تحدوه سكينة مأتاها حرارة قلبه وصفاء الجو من حوله:

ـ سارة ! وددت أن أراك منذ مدة وأن أجلس إليك لأسر لك بأمر هام، قد لا يكون مهما بنظرك لكن سعادتي تتوقف عليه ورهينة له.

نظرت سارة إل وجهه فلمحت نورا غريبا يشع من عينيه العسليتين، نور هو مزيج من الحنان والدفء والأسر، نعم هو أسير لها وفي مقدورها أن تفعل به ما تشاء فهو ملكها وتحت تصرفها لكنها أعجز من أن توجه بصرها نحوه فقد أضحت كذلك ملكا له وأسيرة.

ـ لا شك أنك عرفت من أكون وأخمن أنك تعرفين اسمي وتعرفين من خلال لهجتي أنني تونسي. أدعى آدم العياشي جئت إلى هنا منذ سنوات لإتمام دراستي الجامعية و حصلت على عمل بشركة في نيويورك.

سكت برهة ليواصل:

ـ لقد استهوتني طريقتك في الغناء وشدتني أغانيك كثيرا بل الحق أنك أنت من شدني فكلما وقعت عيني على صورتك أحسست بخفقان في قلبي وباتصال بين أعماقك السحرية وبين ذاتي. كنت ألمس عوامل مشتركة بيننا ربما تكون ما ينتج من اختلاجات عن ذات مغتربة أو ربما هو أصلنا التونسي المشترك أو قد تكون أشياء غير قابلة للإدراك، أشياء مجردة، لا لا يمكن أن تكون أشياء مجردة بل هي انفعالات الوجدان محملة إحساسا وألما وذاتية، وزادت تلك العوامل من تأثيرها فيّ فسرت بداخلي كوخز لذيذ يوم التحمت أجسادنا مصادفة ووجدتني مفتونا بك هائما بحبك رغم بعدك ورغم استحالة اللقاء فقد رسخت بوجداني.

استمعت سارة إلى ما قاله آدم وعادت لها حالة العجز بينما حافظ وجهها على الحرارة التي اكتسحته منذ لحظات. طأطأت رأسها كأنما تبحث عن الكلام فداعبتها نسائم رطبة قادمة من البحر، أحست برودتها حينما لمست خدها الساخن. بعد قليل رفعت رأسها وقد شعرت بأمر غريب آخر يكتنفها، لكأنها كانت موثوقة ثم جاء من فك وثاقها بل لعل الوثاق قد تبخر في غمرة نشوتها فاستعادت حريتها التي فقدتها لسنوات بل لزمن. لقد تيقنت الآن أنها لم تعرف الحرية أبدا وأنها كانت مكبلة بقيود من نفسها المعذبة، مكبلة بعقدتها وقد حان الوقت لتطرحها بعيدا عنها ولتنسى أحزان الماضي ولتستقبل الحياة بقلب يانع منتش مفتوح لهذه الحياة، الحياة التي هجرتها منذ سنين ومنعت نفسها عنها بل التي عذبت نفسها في حرمانها منها. التفتت إلى الشاب من قربها وابتسمت له ابتسامة ساحرة، ابتسامة برء من الأسقام وشفاء من كل العلل التي حلت بوجدانها زمنا.

أمسك آدم يدها بين يديه وقبَّلها ثم حدثها هامسا بفيض الأحاسيس والمشاعر التي اعترته:

- أحبك ...أحبك...أحبك...يا سارة ! أحبك. دعيني أكررها ألف مرة فقد سئمت الصمت، سئمت حبس مشاعري. دعيني أنطقها فأستشعر قوتي وأحيى مجددا، أحيى هنا في بلد البرودة والاغتراب.

قال ذلك ثم التصق بها وطوق ظهرها بيده وضغط عليه فأحس بنشوة تغمرها واستسلمت لذراعه في راحة وإحساس كامل بالنعيم.

لم تدر كم مرَّ من الوقت وهما على تلك الحال وقد صمت الكلام بينهما وحضر الحب عبقا من النشوة والثمول. وتسللت يده إلى شعرها وداعبت خدها ثم عانقها فتسارعت دقات قلبيهما ورقص وجدانهما طربا وتوقف بوعيهما الزمن فلم يتنبها إلا حين ظهر الشفق الأحمر بطرف السماء، عند ذلك نهضا مثقلين

بسكرة الحب الذي سرت صعقته بجسديهما الفتيين. سارا في حديقة النخيل المترامية التي تسللت إليها أنوار المصابيح في خفر بعد أن تأهب نور الشمس الغامر للرحيل. سارا وقد لف كل واحد منهما ذراعا حول الآخر فالتحم الجسمان وأشعلت حرارتهما مشاعل من الحب والرغبة في قلبيهما وكانا يتوقفان من حين لآخر متدثرين بعطف الغروب ليستسلما لعناق طويل.

انقادت الفتاة له في سعادة كأنما تتحدى ألم السنين وسالت دموعها ساخنة على خديها الأسمرين ولاحظ الحبيب المشوق ذلك فاحتضنها ووعدها بمرافقتها إلى الأبد.

أخذتهما قدماهما إلى الشاطئ ولما أعياهما المشي استلقيا على الرمال فمال بجسمه عليها ووضع رأسه على صدرها جاعلا السماء نصب عينيه وقال كأنما يحدث الكون:

- أحس بسعادة لا توصف يا سارة، أين كنت منذ زمن؟ لمَ لم يكن لقاؤنا قبل اليوم؟ لم حُرمنا دفء هذه اللحظات؟

ردت عليه بصوت متصاعد من سعادة نفسها وإحساسها بالاكتمال:

- لا أدري. لم أكن...بالفعل ما كان لي كيان.

أدار آدم رأسه إليها ونظر بعينيها ثم قال:

- ما كنا موجودين، اليوم وجدنا، اليوم سنسجل تاريخ ميلادنا. أ ليس كذلك يا حبيبتي.

- أنت الحب والوجود واليوم هو تاريخ ميلادي وكل ما كان قبل الآن هو العدم.

قالت ذلك ثم ساورتها رغبة في النهوض والركض نحو الشاطئ. كانت تريد أن تغسل آثار عجزها وجبنها وأن تنفضها بمياه المحيط . دخلت اللجة التي اكتسبت لونا ورديا من انعكاس الشفق عليها وألقت بنفسها فيها. أخذت تسبح فتعالت ضحكاتها شهقات من الفرح والسعادة فتبعها آدم وغطس خلفها ثم حملها بين يديه إلى الشاطئ كوالد خشي الغرق على طفلته.

سارا وقد أرخى الليل سدُلَه على المكان نحو النزل وقد غرّد الفرح بقلبيهما ربيعا مشمسا.

صعدت سارة إلى غرفتها لتستحم وتردي ملابس أخرى وقد ابتلت بالكامل. ولما غادرت غرفة الاستحمام فتحت خزانة ملابسها ثم ارتدت ما رأته الأقرب إلى الجمال والرقة وتناولت من حقيبتها مجفف شعر وطفقت تفرد خصلات شعرها البني بينما ظل وجدانها معلق بطيف حبيب القلب، صانع سعادتها، ومخلصها من العذاب الدفين. أخذت تترنم شادية بكلمات أغنيتها الجديدة فانبعثت الألحان من صميم فؤادها نسمات من صدى النفس المنتشية التي استشعرت كمالا كأنما حوت العالم بأسره.

لما أنهت زينتها سمعت طرقا رتيبا على الباب فأذنت لصاحبه بالدخول وظهر رجل غريب لم تره من قبل فنظرت له مستغربة وقبل أن تنطق لتسأله عن هويته وحاجته بادرها قائلا:

ـ ما أخبار اللقاء؟

ـ أي لقاء؟ من أنت حتى تقتحم غرفتي وتوجه لي الأسئلة؟

لوح لها بشارة "وكالة الاستخبارات الأمريكية" وقال:

ـ أريد أن أعرف كل ما دار بينك وبين الشاب.

ـ لن أسمح بأن تعاملوني بهذا الأسلوب. إنه أسلوب رخيص وحقير.

ـ لن نتدخل في حياتك الخاصة فقط نريد أن نصل إلى معلومات تفيدنا بشأن عمليات إرهابية محتملة.

ـ لم أتحاور معه في أمور سياسية.

ـ حسن، يجب عليك ان تطرقي معه حوارا حول أمريكا. نريد أن نعرف رأيه بأمريكا.

أحست سارة بالدم الحار يغزو رأسها غضبا من سفالة الضابط الذي غادر قبل أن تتمكن من الرد عليه وعلى وجهه ابتسامة صفراء تقتر سخرية.

نزلت إلى البهو حيث وجدت آدم بانتظارها وقد استحم وارتدى بنطلونا جميلا وقميصا أنيقا زاد من إشراق بشرته القمحية

وانبعثت منه رائحة العطر النفاذة التي علقت بذهنها منذ أول لقاء.
حين رآها ابتسم ابتسامته الساحرة ولف راحتيها بيديه وسارا يتحدثان همسا حتى بلغا مطعم النزل وقد كان قاعة فخمة وواسعة طليت جدرانها باللون الأبيض ونضدت بها طاولات مربعة الشكل نثرت عليها أغطية من القماش المائل إلى بياض ومحاطة بكراسي من الخيزران البني ووضعت على كل منضدة مزهرية أنيقة بها ورد أحمر مع كل أدوات الأكل اللازمة وكان بالقاعة أبواب بلورية كثيرة أطّرت بأطر من الخشب الأبيض ويشرف هذا المطعم من أحد الجوانب على حديقة النخيل المحيطة بالنزل من خلال شرفة كبيرة مستطيلة الشكل تمتد على عرض الجدار ويحدها من الخارج درابزين أبيض مزركش. وانتشرت في أنحاء المطعم نباتات كبيرة خضراء ومورقة منسجمة مع لون الجريد الأخضر البادي من الشرفة.
اختار الحبيبان الجلوس إلى أحد المناضد القريبة من الشرفة. كان الجو رائقا وسرت في أثير المطعم موسيقى هادئة وناعمة يخالُها الجالس شذى عابقا من غابة النخيل الفسيحة. راق لهما انسياب الموسيقى فظلا هادئين يتبادلان النظرات وقد حلت محل لغة اللسان لغة أخرى أجمل وأرق هي لغة العيون والابتسام وتدفق الحب من تلك النظرات شلالات اكتسحت قلبيهما وأغرقتهما عشقا ونشوة.
استكانت يدها بين يديه كما يستكين الوليد في حضن أمه ثم نطق بكلمات أشبه بالهمس:
- سارة ! حبيبتي !
لم تجبه سارة لأنها تحيا أقوى لحظة ثمول شهدتها بحياتها، ثمول أجمل وأعمق مما كان يعتريها أثناء الرسم أو الغناء وإن لم يختلف عنه من حيث التأثير، إنه ثمول تخالطه لذة الروح في عثورها على سعادتها المنشودة.

نطق آدم مجددا:

ـ هل تتخيلين يا سارة أننا الآن معا؟

ردي عليَّ حبيبتي ! لمَ لا تتكلمين؟ ردي أو ابقي إن شئت صامتة فأنا بحضرة أبلغ صمت، صمت ارتقى إلى أعلى مراتب التعبير وأبلغها. ما حاجتنا إلى الكلام ونحن أخيرا معا روحين طالما اجترّا عذاب الاغتراب يلتقيان في معبد الحب، يعتليان محراب العشق، يرتلان ترانيم الهوى الدفين والسرمدي؟ روحان شرقيان أو هما نصفان لروح واحدة انطلقا يضربان بالحياة منفصلين ثم عادا ليجتمعا وأنشدا أخيرا أنشودة اللقاء !

تألقت بوجه سارة الأسمر ابتسامة شعت بخليط من الحب والعشق والفرح والرغبة ، أحست روحها تغادر الجسد منها لتحلق فوق سحاب ناعم عطر أو لتسبح في فضاء سحري يضج بشذى النشوة والأحلام وأسكرتها خمرة العشق. ما أجمل ما تحس الآن ! كيف ولد هذا الحب بقلبها؟ بل إنه لم يولد إنه موجود منذ الأزل، لقد حلت بالوجود لتهوى هذا الرجل، هذا الرجل دونا عن سواه، إنه المكافأة التي خبأها لها القدر، إنه سعادة روحها التي تاهت عنها في دروب الحياة القاسية وحتى مجيئها إلى هذه البلاد تراه الآن مسطرا من القدر لتلتقيه. إنه أمامها الآن ساحر وأزلي كأنما خلق من جمال. ليتها تحدّث كل الناس عن سعادتها، ليت الجميع يدركون نعيم الحب الذي ترفل به. وحتى الصحافة ما عادت لتخشاها وقد صارت أقوى من الرجات، حبها له يفجر بداخلها قوة جبارة ستمكنها من التصدي لأعْتَى قوة بالعالم إن حاولت الحيلولة دونها ودونه. لقد اقتصر الآن مبتغاها من الحياة على أن تراه وتغفل عن كل ما سواه وأن يحتويها ويشملها وأن تخترقه ويخترقها وأن يمتزجا ذاتين في روح واحدة وجسد واحد، إنها تريده وتريد أن يظل الدهر إلى جانبها لأنه مصدر قوتها بل هو أكسير حياتها.

تنبهت إليه يقول لها مبتسما وقد تجمع كل الحنان المبثوث بالكون بصوته:

ـ ألهانا ما نحن فيه عن إحضار الأكل.

اصطحبها إلى "البيفيه" الذي تزاحمت به أصناف كثيرة من الأطعمة فاختارا ما هفت إليه نفسيهما المنتشيتين وعادا للجلوس.

كان أجمل عشاء يتناولانه بحياتهما وأبطأه على الإطلاق إذ مرت الساعات سريعا في أثنائه وفقدا الإحساس بالزمن. نهضا أخيرا فخرجا إلى الحديقة واتجها صوب المسبح الكبير، مسبح مستطيل الشكل تحيط بها أشجار النخيل ومظلات مستديرة كبيرة كان بعضها مصنوع من القش البني وكان بعضها الآخر من القماش المائل إلى بياض وعلى حافته انتصبت شجرة خضراء عملاقة غرست بأصيص اسطواني كبير من الفخار تضيق قاعدته بينما تتسع فوهته في اتساق مع أسفله.

استلقى العاشقان على كراسي استجمام وعادا من جديد لممارسة طقوس العشق وبعد فترة من مسامرة نشوة الحب عادا إلى مبنى النزل ليقضيا سويا ما تبقى من الليل وليهنآ بنعيم الهوى بعد أن عثر كل منهما على نصفه المنشود.

أفاق الحبيبان عند الضحى وقد أقرا العزم على أمر رأيا فيه اكتمال سعادتهما. استعدّا وحزما أمتعتهما ثم غادرا ميامي إلى بيت سارة في منهاتن. لم يصدق أنطون ومارتا وكلثوم ما حدث وشكلت رؤية سارة بصحبة صديقها ـ ذلك الذي كان بطل الإشاعة التي لاحقتهاـ مفاجأة كبرى أذهلتهم وعقدت ألسنتهم.

كانت كلثوم على علم بالعلاقة الوليدة التي ربطت ابنتها بالشاب، لقد اكتشفت الأمر بنزل "بالم بيتش" لما كانت تقوم بنزهتها الصباحية وعادت للبحث عن سارة التي تخلفت عنها لتوديعها فإذا بها تفاجأ بالمرافقة السعيدة التي تحظى بها الأخيرة، رأتها ملتصقة بالشاب ذاهلة عما حولها، استغربت الأمر لكنها سُرَّت للتغيير الطارئ على سلوك البنت وغادرت

النزل دون أن تودعها مفضلة أن لا تشوش عليها لحظات صفوها واستسلامها للمشاعر التي حرمت منها نفسها طويلا.
عادت إلى النزل الذي أقامت به مع توفيق ثم غادرا سويا إلى نيويورك ومن ثمة عاد الكهل إلى تونس وفضلت هي البقاء وانتظار مقدم سارة لمعرفة الأخبار الجديدة ولم تتوقع أبدا أن تعود الأخيرة وقد تأبطت ذراع الشاب.
تلون الشعاع المنبثق من عيني سارة بلون السعادة الطاغية وقد لطّف الحب من طباعها فصارت ودودة لأمها ولكل من في البيت ولمست كلثوم أخيرا في ابنتها مظهر الفتاة الرصينة الوقورة الذي لم تكن شهرتها أو نجوميتها لتمنحها إياه، فلا شيء في نظرها يضمن للمرأة قيمتها في المجتمع مثل الارتباط، فهو الذي يوفر لها الكرامة والتبجيل. ويمكن القول أن سعادتها كانت بحجم سعادة ابنتها بهذا الحدث الطارئ. ما أسعدها اليوم وهي تراها أخيرا برفقة شاب تونسي تحبه ويحبها وقد فرد الحب عليها أجنحته الملائكية فتفتحت من حولها أزهاره العابقة عطرا وسكينة وتَشَكَّلَ حولها أثيرا ورديا ملأها أملا وإشراقا وفتح أمامها أبواب الحياة على مصراعيها فانطلقت روحها السجينة من أسرها وحلقت في هذا الأثير الحالم لتسعد ولتنقل سعادتها الذهبية لكل من حولها.
أزهر البيت الغريب أخيرا فقد صنع مرأى الحبيبين السعيدين ربيعا مغرّدا تفتقت مباهجه وأسبغت فرحا على سكانه وعلى كل من أحب سارة وانتظر أن يراها تغادر بؤسها الدفين.

قضى الشاب جزءا من الليل ببيت سارة بـ"منهاتن" وقد صاحبتهما كلثوم في بداية السهرة ثم آوت إلى فراشها وظل الحبيبان يتسامران حتى ساعة متأخرة من الليل وفي الهزيع الأخير غادر آدم للمبيت في شقته و كان قد اتصل بمشغليه وأعلمهم بعودته إلى نيويورك لأمر طارئ.
حين آوت سارة إلى مخدعها ـ تلك الغرفة الشرقية المنعزلةـ أحست بنشوة غريبة تكتنفها وتحبب إليها نفسها وجسدها وتراءى لها أنها قد نزلت لتحيى على كوكب الأرض كما كل الناس ولم تعد تحلق بفضاء الضياع وحتى إن حلقت فسيكون تحليق من نوع آخر، تصحبها فيه ذاتها التي طالما افتقدتها.
لم تقدر على النوم...كانت تأسف لعدم مبيت آدم معها في تلك الغرفة المنعزلة الجميلة...أكيد أن خجله الشرقي من والدتها قد منعه من ذلك لكنها لا تتبرم بوالدتها كما كان يحدث في السابق لأن وجودها يفضي جمالا على علاقتها بآدم فهو يشعرها أنها بنت تعيش بحضن والديها وتنتظر اللحظة التي تتوحد فيها مع فارس أحلامها الحبيب مثل كل البنات.
طافت بفكرها صور من يومياتها بفلوريدا فتذكرت رجال المخابرات الذين لا حقوها هناك وتذكرت حديثهم عن العمليات الإرهابية والأبرياء وشكهم في حبيبها...استغربت أن يصل مثل ذلك الجهاز إلى الوصول إلى الحقائق التي يريدها ولمع بذهنها خاطر وهي مستلقية على ظهرها تتأمل سقف الغرفة وهو أن يكون هؤلاء على يقين من ضلوع آدم في عملية إرهابية أو على الأقل من صلته بالجماعة التي ستنفذ العملية لذلك أبقوا عليه طليقا حتى يوصلهم إلى أفراد التنظيم أو إلى إبطال العمليات قبل وقوعها.
أحست بشيء ما يثقل على صدرها ويعيق أشواقها المحمومة عن الانتفاض في صدرها. هل تخبره بكل ما يجري؟ أتكون حبيبته وفي نفس الوقت جاسوسة تعمل ضده؟

"جاسوسة" صعقتها العبارة !سفيرة الأمم المتحدة للسلام تعمل كجاسوسة لفائدة الـ"سي أي آ".
هل تخبره أنها كانت في منتهى الدناءة معه؟ هل تخبره أن أولئك الأوغاد قد دخلوا غرفتها عدة مرات فيما هي تستحم وثبتوا أجهزة تنصت بهاتفها المحمول فاستمعوا إلى كل همساتهما أثناء لقاءاتهما الحميمة وسمعوا كل نجواهما وغزلهما المترع بعاطفة وهاجة؟
حتى تلك الليلة التي قضاياها سويا كان الأوغاد يتفرجون عليهما من كاميرا مثبتة بأحد أركان الغرفة. إنها فضيحة. من يصدق أن سارة التي لم تعاشر رجلا بحياتها يكون أول لقاء حميم يجمعها بحبيب مفضوحا بتلك الطريقة.. ! كم جن جنونها حينما أخبرها ذلك الرجل البارد المقيت بما قد فعلوا بها...رمته بمزهرية لكنه تفاداها وأخذت تصرخ وتلعنه وتسبه وتلعن كل جهاز الوكالة...شتمته وكالت له الشتائم وشتمت غيرته على وطنه وتسللت من شفتيها عبارات سخط بلهجتها التونسية. كان الرجل المقيت يضحك بكل برود ثم قال لها : " هل أنت خجلة مما قد فعله بك ذلك العربي؟ أمر عادي...الجنس مطلوب في الحب...أعرف أنكم ـ العرب ـ متزمتون ومتعصبون، لكننا نعرف أيضا أنكم متعطشون للجنس لأنكم مكبوتون... هل يمنع عنكم دينكم ـ الإسلام ـ الجنس؟ يمنع عنكم الجنس والحب ويبيح لكم الإرهاب؟ أي دين هذا؟
كادت جمجمتها تنفجر غيظا في تلك اللحظة ثم غشيتها نوبة بكاء يائس بعد ذلك أخذت تدفع الرجل بيديها إلى خارج الغرفة. أخذ يتراجع إلى الخلف ضاحكا كأنه أمام لقطة كوميدية. قالت له بصوت عنيف لكنه حزين حد اليأس: "لن أمدكم بأية معلومات عن آدم، أنا أحبه وسأتزوجه"
قال ببرود وهو يكشف عن أسنان صفراء: "تحبينه ! تحبين إرهابيا وتنوين الزواج به؟ تحاولين أن تضاعفي من عدد الإرهابيين بالعالم ؟

أخذ يردد بلهجة باردة ولاذعة: عربية تحب إرهابيا !
قالت له بلهجة صارمة وحادة : "قلت لك لن أفيدكم بأية معلومات عنه في المستقبل وسأخبره بتجسسكم عليه وسأطلب منه الرحيل"
لوح لها بإصبعه مهددا ومتوعدا وقال :" إن فعلتِ تعرفين ما ينتظرك...تنتظرك الفضائح...ستودعين المجد إلى الأبد لأن الفيلم الجنسي الذي كنت بطلته ستتابعه ملايين العيون المتعطشة لرؤية ذلك الجسد الأسمر الممتلئ وهو يتلوى وسيكون ذلك طبعا على إحدى القنوات الإباحية وسيعرفون أنك مشكوك في نسبك ـ سوداء ابنة لأبيضين ـ وسيعرفون أنك اشتغلت عميلة ضد مواطنيك فاستري نفسك وانزعي عنك أية نية في الغدر ـ أقصد الغدر بنا ـ أو بنفسك فذلك الأصح.
خرج الرجل وأطبق الباب خلفه بخشونة فيما ظلت سارة ممزقة النفس، مثلومة الكبرياء، مطعونة في مقتل، جروحها تنزف كرامتها المهدورة بأرض غريبة. كانت أسنانها تصطك و أطبق عليها السواد والوحشة وكابدت بمرارة احتياجها لأحد تشكو له همها. لكن من؟ هل تقدم كرامتها مكفنة برداء العار للآخرين؟ تكشف بنفسها عن فضيحتها؟ وحين التقت مجددا بحبيبها تحاملت على نفسها وابتلعت جراحها فقد كان في مرآه شفاء من كل الأسقام وبلسم لكل الجراح وحملها الحب إلى مرافئ الهناء واستشعرت دفئا ونبلا وقرأت الإخلاص في عينيه وأملت أن يمحو حبها له خطيئتها معه و أن يرمم شرخ كرامتها المسفوكة على أرض الأمريكان.
أخلدت للنوم بعد أن تأرجحت روحها لفترة بين مشاعر متناقضة ومختلفة منها الشعور بالخزي ومنها الشعور بالشفقة على نفسها وعلى الرجل الذي أحبت ومنها رجفات الحب في قلبها الذي ظل موصدا لسنوات.
أفاقت من النوم حين تسلل شعاع دافئ لأشعة الشمس الربيعية إلى غرفتها المنعزلة. تذكرت أنها تواعدت مع آدم على اللقاء

ببيتها. نهضت من سريرها فاغتسلت وارتدت ملابس انتقتها بعناية تمثلت في "تنورة" بنية قصيرة تضيق عند الخصر ثم تتسع عند الركبتين بفعل قصة القماش المائلة وفوقها ارتدت سترة جلدية قصيرة بلون برونزي يميل إلى الذهبي و أكمامها طويلة وبها أزرارنحاسية كروية الشكل. بدت الفتاة أنيقة على غير العادة.

حملت حقيبة صغيرة تشبه السترة من حيث اللون والجلد ونزلت إلى الطابق الأول فوجدت طاولة الإفطار مجهزة وعليها خبز و"كرواسون" وأباريق من "البورسيلان" بها قهوة وحليب. لم تجلس إلى المائدة بل واصلت النزول مستخدمة الدرج ولما وصلت البهو الأرضي طالعها وجه أمها ووجه مارتا من المطبخ. وقد كانت الأخيرة بصدد تزيين خبزة مرطبات بالكريمة "شانتيي" و انشق فمها الصغير عن ابتسامة كبيرة فيما اقتربت منها والدتها وطوقتها بذراعها الأيمن وأخذت تمازحها ضاحكة ثم سألتها عن عائلة آدم التونسية لكن الفتاة أجابت عن أسئلة أمها باقتضاب لأنها أسقطت أمر العائلة و النسب من اعتبارها منذ زمن وما كان لمثلها أن تهتم بذلك وهي السوداء المخالفة لوالديها غير أنها تخلصت من فضول والدتها بلباقة لم تعهدها في نفسها. إنها تؤمن أن الفعل هو هوية الإنسان وقد لاحظت على الشاب لطف معشر وطلاوة في الحديث ورصانة في السلوك ولمست فيه حبا لعمله واتقانا فيه وكانت له يد فاعلة في إضاءة متميزة أبهرت العيون في حفل توقيع ألبومها وكادت تجزم ببطلان ما يدعيه عنه المخبِرَان اللذان يلاحقانها.

بعد دقائق كان آدم جالسا مع كلثوم وابنتها حول مائدة الإفطار ودار بينه وبين الأم حوار قصير عن زياراته لتونس وعن أخبار أهله وذويه هناك واخبرها انه أصيل العاصمة وذكر لها اسم والده ومهنته وحدثها عن أمه المتوفاة في أواخر

الثمانينات. لم يبد على كلثوم أنها تعرفت على عائلة الشاب ووالدته لكنها ذكرت له أن اسم والده ليس بغريب عنها.
أتم الحبيبان إفطارهما فغادرا سويا نحو نزل "راديسون ليغزانتون هوتال نيويورك" وهناك أمضيا فترة بمقهى النزل مستمتعين بالمرافقة السعيدة وبعد ساعات أحسا بالجوع فوقع اختيارهما على مطعم "أس ديناستي" الصيني وجلسا بإحدى القاعات الخاصة المتصلة بالمطعم والمطلة على الطريق. طلبا طعاما صينيا وأخذا يحاولان تقليد الصينيين في طريقة أكلهما بالعصي فتناثر الأكل على الأطباق وضحكا بصوت عال يضج مرحا وسعادة وقال آدم وهو يحاول أن يتمالك نفسه:
ـ يبدو لي أن الصينيين لا يأكلون كثيرا لأنهم يستخدمون هذه العصي.
علقت سارة ضاحكة:
ـ لذلك تراهم صغار الحجم مقارنة بباقي سكان المعمورة.
ـ قد يكون لكنهم رغم ذلك صنعوا حضارة عظيمة.
ـ وإلى الآن لا تزال كلمتهم مسموعة.
ـ تقصدين حق الفيتو في مجلس الأمن؟ لا يجب أن أنسى أنك سفيرة الأمم المتحدة للسلام.
مطت سارة شفتيها وهي تبتلع حبات من الأرز وقالت:
ـ نعم .. ! أقصد إلى حد ما...
علق آدم وقد رمقها بأعين مستغربة كأنه يريد توضيحا:
ـ إلى حد ما؟ ؟ لست مقتنعة؟؟
تنهدت الفتاة ثم قالت:
ـ لست مولعة بالسياسة...لم أهتم أبدا بما يجري في تونس ولا في العالم العربي ولا بأمريكا أو العالم ومع ذلك فأنا أعرف أن تلك المنظمة تهتم بالدفاع عن الأمم المستضعفة وتتدخل لنصرة المغلوبين.
بدا أن كلام سارة لم يرق لآدم فقال:
ـ وبعد؟

أردفت:
ـ كنت كغيري أسمع من بعيد عن التجاوزات الحاصلة في العالم لكن مشاكلي الخاصة منعتني من الاهتمام والتحمس.
صمتت برهة ثم واصلت الحديث كأنما تذكرت شيئا:
ـ في الأصل أنا لم أكن أحب العالم العربي...ما كان يهمني من أمره شيئا لقد تعذبت...
ضيق آدم عينين مثبتتين على سارة وقال بصوت متأثر كأنما يمسك الجمر:
ـ أعرف أنك تعذبت كثيرا وهذا يؤلمني لكني أؤكد لك أن بحياة كل إنسان لحظات يكرهها وتعذبت فيها روحه بحال من الأحوال.
نظرت إليه سارة نظرات حزينة ثم أطرقت تفكر وبعد برهة قالت:
الأمم المتحدة منظمة واهية...أعرف ذلك ...أقصد استنتجته لكنها مع ذلك تقوم ببعض الأعمال الجيدة مثل التضامن مع الأسرى وضحايا الحروب والدعوة للسلام.
ـ أشاح آدم بوجهه إلى المناضد المجاورة وشبك يديه ثم نظر إليها وقد هم بالكلام لكنه أطرق.
فقالت سارة:
ـ ستضبط منظمة الأمم المتحدة برنامجا أسير وفقه في نطاق دوري كسفيرة للسلام.
قال آدم:
ـ هل تعرفين أن بالعراق الآن أكثر من مليوني طفل متضرر من الحرب ويواجهون أخطار سوء التغذية والفقر ولا يمكنهم الالتحاق بالمدارس .
وجهت له نظرات ذابلة كأن ما تخفيه عنه مرضٌ ألم بها يتعبها ويؤثر على إشراق وجهها. همت بالكلام لكنها صمتت.
مد يده المنى وأمسك بيدها اليسرى وأخذ يداعبها ثم قربها من فمه وقبلها بكل حنان ثم قال:

ـ أعرف بأني أزعجك بهذا الحديث. أُعذريني حبيبتي فمن الخطإ أن أتدخل في أمورك الخاصة. لك مطلق الحرية في أن تطبقي برنامج الأمم المتحدة كسفيرة للسلام. خوضي التجربة وكوّني آراءك وانطباعاتك الخاصة ستواكبين الأحداث والواقع عن كثب وسيكون بمقدورك الحكم من زاوية نظر شفافة.
ـ أفرح كثيرا لأني أجدك دائما عند حسن الظن...إنك رائع يا آدم فتفكيرك شديد الوضوح والعقلانية وبعيد كل البعد عن التسلط.
ـ أنا أحبك كثيرا لكن ليس ذلك ما يمنعني من التسلط بل لأني أقدر اختلاف الآراء وأقدر أن التجربة هي خير وسيلة لبناء الاستنتاجات.
ازدادت سارة يقينا بأنها تحب الرجل الجالس قبالتها و بأنها تعشقه حد الموت...إنه عقل راجح وقلب مفعم بالحب.
قالت:
ـ أريد أن أبقى معك لأطول وقت ممكن هذا اليوم.
ـ سنبقى حبيبتي معا دائما وإلى الأبد لن نفترق...
ـ لا أدري يا آدم أحس بخوف شديد.
ـ مما الخوف يا حبيبتي ونحن معا؟
كادت كلمات أن تنفلت من فيها فتخبره بأمر جهاز الاستخبارات لكنها كبحت جماح نفسها في آخر لحظة.
أضافت: ـ هناك أمور كثيرة تخيفني...هذا البلد صار يخيفني...لم أعرف الخوف قبلاً لكني الآن أحس بالخطر لوجودي فيه وفي نفس الوقت أنا مشدودة إليه، يشدني حبي للرسم والغناء أو ربما التعود.
ـ أنا أفكر جديا بالعودة النهائية إلى تونس.
تهللت أسارير الفتاة وصرخت على الفور:
ـ حقاً يا آدم؟
ـ نعم لأني غير مرتاح هنا. تعرضت لمضايقات شديدة سأخبرك بها لاحقا.

ـ رحيلك يعني انتهاء المتاعب لكنه يعني أيضا فراقنا !!
ـ لقد ظللت أفكر بهذه المشكلة منذ كنا في "ميامي"...أحبك حد الجنون ولا أستطيع الانفصال عنك لكني أرغب كثيرا في العودة...أحس بأن الغربة في هذا البلد تنخرني كالداء القاتل...تجتاح جسمي وكياني...
ـ هل يمكن لهذا القلب الرقيق أن يتحمل كل هذه المتاعب؟
ـ من أجلك أتحمل كل شيء... لا أحب أن أرحل دونك...وكأني أترك جزءا مني ليعاني وحشة الغربة كما عانيتُها...أريد أن نتزوج يا سارة ! يجب أن نتزوج وأن ننجب أولادا وأن نفرح بحياتنا. الحياة فيها جوانب جميلة كثيرة وتستحق أن نعيشها.
ترقرقت دمعتان من عيني سارة السوداوين وقد كانت ترنو إلى حبيبها بنظرات ناعمة وحزينة وقالت له:
ـ أن أتزوج هو آخر الأمور التي ترد على بالي...أتزوج وأنجب أولادا؟
رد آدم وقد وضع يده على خدها الأسمر وأخذ يمسح ما سال من العينين الحزينتين:
ـ لم لا؟ هل يعقل أن تظل أجمل امرأة في العالم دون زواج؟ هل تحرمين حبيبك من هذه الرقة وهذا الحنان؟ هل يعقل أن لا يطأ قلبك الريان جنة الحب بنعيمها القدسي؟
أمسكت سارة يده بكلتا يديها وأخذت تمررها على وجهها في حين أخذ قلبها يرقص نشوة بين جنبيها وسرى الدفء من يده إلى وجهها المبلل دمعا وسرت معه شحنة مسكرة من حنان روحه الشفافة واستحال المطعم الصيني من حولها إلى سراب واختفت عن ناظريها كل المقاعد والمناضد والرواد والأطر والجدران...وحده الوجه الأسمر المستدير ذو العينين العسليتين ملأ الصورة وحجب كل الرؤية.
تنبهت فجأة على رنين هاتفها الجوال ولم تعرف كيف بلغها الصوت وهي في عليائها. لم تكن رنة مارتا ولا رنة والدتها. سحبت يدها من يد آدم ثم بحثت بجانبها عن حقيبتها، تناولت

الجوال فرأت ذلك الرقم المزعج الذي رأته حين كانت بالغرفة في ميامي...إنها المخابرات...بعد ذلك بلحظات بلغتها رسالة من نفس الرقم. فتحت الرسالة مرتبكة. شعرت بالدم الحار يغزو وجهها وقرأت بسرعة ما كتب:

اسأليه إن كان له نشاط سياسي.

إن لم تفعلي سنرسل الآن "سي دي"

يتضمن الفلم إلى من يهمه الأمر.

أغلقت سارة المحمول بحركة عصبية ثم وجهت نظرة سريعة من وجه متشنج إلى مرافقها الذي لا حظ ارتباكها فسألها:

ـ ما الأمر يا سارة؟ ما بال سحنتك قد تغيرت؟

ـ لا شيء ! إنها مارتا. هي دوما مزعجة.

لم يتمادى آدم في السؤال خشية أن تتهمه سارة بالفضول وهو يعرف طبعها الحساس ويعرف أنها تكره الفضول وتعتبره صفة سيئة لدى الشرقيين.

أطرقت البنت قليلا ثم حاولت أن تتناول بعض الطعام لكنها عجزت فأخذت تتجول بنظرها عبر الموائد ثم فجأة التفتت إلى آدم وقالت له:

ـ هل تهتم كثيرا بالسياسة؟

حدق فيها باسما وقال:

ـ خائفة مني؟ تعتقدين أنني إرهابي كما يشاع عني.

ـ لا ولكن مجرد فضول.

ردد آدم الكلمة ضاحكا وقال:

ـ فضول !! ها أنك تعودين إلى أصلك الشرقي...

ـ الفضول سمة بشرية وإن بدت أكثر جلاء عند الشرقيين.

أمسك الشاب بيديها مجددا وأخذ يقبلهما ثم قال:

ـ حبيبتي سارة ! أنا لست إرهابيا ولن أكون...كل ذلك ليس سوى أقاويل واهية.

ـ أفهم أنك لا تمارس أي نشاط سياسي؟

عاد الجد ليرين على سحنة آدم وقال:

ـ الحقيقة أني أنشط ضمن منظمة صغيرة تدافع عن حقوق الطلبة المسلمين بأمريكا.
علا وجه الفتاة انفعال طفيف ونظرت إليه بعينين أوسعتهما الدهشة وقالت:
ـ إذن فما يحاك حولك من أقاويل غير مستغرب. أنت هنا بأمريكا وتدافع عن الإسلام والمسلمين أنت بلا شك إرهابي ! على الأقل بنظر الأمريكيين !
صمت آدم قليلا ليلتفت إلى اليمين كمن يبحث عن الكلام ثم نظر إليها وقال:
ـ هذا فهم خاطئ...إن الطلبة المسلمين بأمريكا يتعرضون لمضايقات كبيرة وشديدة، مضايقات تهدد حياتهم ومستقبلهم ومنظمتنا تدافع عن هؤلاء بأمور سلمية فلها منتديات على "الأنترنات" لتبادل الأفكار ووجهات النظر بين الطلبة المسلمين المقيمين هنا وتندد بتصرفات جهاز الأمن الأمريكي والمجتمع ضدهم. وبتلك المنديات تنشر بعض المقالات الفاضحة لسلوك الأمريكيين العنصري وتقرأ من قبل عدد كبير جدا من زوار الموقع، من عدة بلدان شرقية وغربية.
ـ هل كتبت مقالات ونشرتها؟
ـ الكثير.. !
ـ وآخر مقال كتبته؟
ـ آخر مقال بشقتي الآن ولم أنشره بعد بالموقع...
هل تحبين أن تطلعي عليه قبل أن أنشره؟ أم تفضلين أن تزوري الموقع بنفسك؟
ـ لم أتعود الإبحار على "الأنترنات"...كنت منشغلة دائما بالرسم والغناء.
ضحك آدم وقال:
ـ تقصدين أنك كنت هائمة عن الدنيا في برجك العاجي...
ضحكت الفتاة ضحكة مسموعة و قالت معقبة:

ـ والآن ظهر فارس تونسي أسمر وأراد أن ينتشلني عبر نافذة البرج...
أرجو أن لا نقع على الأرض فنتحطم سويا
ـ لا تخافي لن نقع بل سنحلق في سماء رحبة يملؤها غمام الحب الناعم.
ـ أريد أن أطلع على المقال !
ـ هل تعرفين تلك القصة المتكررة في المسلسلات والأفلام العربية، حين يطلب الشاب من الفتاة أن ترافقه إلى بيته حتى تتعرف إلى والدته وبنيته أن ينال منها.
ضحكت سارة وقالت :
ـ نعم أعرفها.
أردف الشاب:
ـ أما أنا فصريح للغاية. إن كنت تريدين مرافقتي إلى شقتي فعليك أن تعرفي أن الأمر لن يمر بسلام.
ضحكت سارة حتى بدت أسنانها البيضاء اللامعة وقالت:
ـ صراحتك مقبولة لكني سأفكر بالأمر...
نهض كلاهما وانصرفا إلى شقته حيث قضيا باقي اليوم الربيعي الطويل في تبادل النجوى وغرقا في لج من مشاعر الوجد النشوى.
مضت ساعات كانا فيها ثملين بسكرة الهوى وفقدا الإحساس بالزمن حتى غشيهما سواد الليل من النافذة لكنهما تجاهلاه وأنارا مصباحا ليليا صغيرا. وبعد فترة قال آدم:
ـ أشعر بالجوع...هيا نقصد مجددا أحد المطاعم.
شعرت سارة بان ذاكرتها تعود إليها فعدلت من جلستها فوق السرير وقالت:
ـ لا بل علي أن أغادر إلى البيت...لم أتعود المبيت خارجه زيادة على أن والدتي لا تزال مقيمة معي.
فنهض آدم وقال لها
ـ إذن سأرافقك إلى البيت...

ثم أضاف واضعا سبابته على فمه كمن تذكر شيئا:
ـ تعالي لتري المقال إنه مسجل بحاسوبي ...سأطلعك على كلمة العبور فنحن الآن شخص واحد.
انتقلت سارة إلى جواره قبالة مكتبه الذي يحمل حاسوبا متصلا بمطبعة خاصة ومجهزة بآلة ناسخة. أخذت تقرأ المقال الذي كتب باللغة الأنقليزية ويتحدث عن وقائع اعتداء من رجال الأمن الأمريكي ضد طلبة من العرب المسلمين بأمريكا وكان من بينهم طالب مغربي يدعى "وحيد عزاو" وآخر جزائري ويدعى " عماد بو وهدة" وطالب سعودي يدعى "محمد الراجحي" وتونسي يدعى " معز الشياحي". أورد آدم وقائع الاعتداء بالمقال برواية أصحابها الذين وقع إخلاء سبيلهم بعد أن تعرضوا للتعذيب أثناء التحقيق وتضمنت نهاية المقال تنديدا بالاعتقالات غير المبررة لهم وبطريقة معاملتهم السيئة أثناء التحقيق.
قال لها:
ـ هذا المقال بالأنقليزية وأحيانا أكتب بالعربية. هل تحبين أن تطلعي على مقال كتبته بالعربية وسأرسله إلى صحيفة عربية؟
صمت قليلا ثم قال بصوت خافت يرين عليه الجد:
ـ إنه يتناول المعاملة السيئة التي يتلقاها السجناء في "غوانتنامو".
نظرت إليه سارة باهتمام وقالت:
ـ ولكن من أين لك المعلومات عن ذلك المعتقل؟
أرسل الشاب نظره عبر النافذة القريبة التي بدت من خلفها أنوار المدينة وقال وهو يدير بؤبؤي عينيه كمن يفكر بأمر:
ـ لي طرقي الخاصة...
فقالت سارة:
ـ أين المقال؟
انحنى آدم حتى بدا كالجالس القرفصاء تحت مكتبه وأخذ يعبث بدرج سري يفتح بشفرة من الأرقام التي يحفظها عن ظهر قلب

وبعد برهة انتصب واقفا وقدم لها مجموعة من الأوراق المكتوبة باللغة العربية وقال لها:
ـ احتفظي به ريثما تقرئينه ثم سأستعيده لأرسله في القريب العاجل بطريقة سرية إلى صحيفة "العرب الأسبوعي" التي تصدر من لندن. لن أستخدم البريد ولا "الإمايلات"، سأرسله مع صديق مسافر هذه الأيام إلى لندن.
أخذت سارة الأوراق وهمت بطيها لتضعها بحقيبتها لكن آدم قال لها:
ـ انتظري !هات المقال سأنسخه فقد أحتاج إلى تعديله.
قام الشاب بنسخ المقال وقدم لسارة نسخة منه خبأتها في حقيبتها في حين احتفظ لنفسه بالأصل وخرجا سويا متجهين نحو بيت سارة.
ظلت سارة في ما تبقى من الليل تجتر حيرتها، ماذا ستفعل حين تلاقي جماعة المخابرات الذين يتعقبونها؟ هل تخبرهم بأنشطة الفتى المناضل؟ أم تتركهم يبثون ذلك الشريط اللعين على قناة إباحية بعد أن يسلموه نسخة منه؟ وهل يمكن لها أن تخون آدم خيانة أخرى لتفادي الفضيحة؟
ليس من النبل أن تتمادى في الغدر به. يجب أن تخبره بالحقيقة كاملة، منذ زارها الضابطان لإقناعها بالتعامل لفائدة الوكالة إلى أن تمكن بعضهم من تصويرها حين قضت معه تلك الليلة ب"ميامي" وحين طلبوا منها أن تستفهم منه عن أنشطته السياسية، لكن الأمر الأكيد هو أنه سيغضب كثيرا وسيتفاجأ بقدرتها على التكتم على أمور في مثل تلك الخطورة وستنعدم بينهما الثقة إلى الأبد...على الأقل من ناحيته وسيشاهد جمهور محبيها الشريط المصور وستسوء سمعتها للغاية خاصة حينما يعلن هذا الجهاز بطرقه الخاصة أنها لقيطة، فتاة سوداء تعتقد أنها ابنة لوالدين من البيض وذانك الوالدان ستصلهما أخبار الشريط... هذا الجهاز لن يدخر جهدا في تحطيمها وتحويلها إلى أشلاء... عليها أن تجد حلا وسطا. وما هو الحل الوسط؟

واهتدت إلى فكرة استشعرت فيها بعض الراحة: من الغد ستقابل آدم وتقنعه بالعودة إلى تونس وبأن ينتظرها هناك حتى تتمكن من إلغاء التزامها مع شركة إنتاج الأغاني التي وقعت معها عقد احتكار لمدة سنتين وبعد ذلك تلحق به ليتزوجا هناك بأرض الوطن وبذلك تبعده عن الخطر...
لكن سفر آدم إلى تونس لن يكون بتلك السرعة فماذا ستفعل؟ هل تقدم لهم المقال وتخلص نفسها من هذا المأزق؟
أفاقت عند الضحى فوجدت أمها ومارتا بانتظارها وأعلمتها الأخيرة أن مفوضا من "اليونيسيف" اتصل بها ودعاها للحضور إلى مكتبه. أخذت تستعد للذهاب لكن شعورا من القلق تسلل إليها وقد تواعدت مع آدم على اللقاء لكنه تأخر ولم يتصل ليوضح سبب تأخره. غادرت نحو مكتب اليونيسيف وهي تفكر ببرنامج عملها من أجل السلام والذي سيتم ضبطه استنادا إلى الأيام الشاغرة بجدول أعمالها ولم تغفل لحظة عن هاتفها المحمول الذي ظل صامتا كأنما يتحداها.
تقابلت مع مفوض اليونيسيف واتفقت معه على زيارات ستقوم بها إلى عدد من المعاهد الثانوية بأحياء نيويورك وسيكون عليها أن تلتقي بالطلبة وتحدثهم عن السلام.
ذكرت للمفوض أنها غير مهتمة بالسياسة ولا تملك أفكارا واضحة ومنظمة عن السلام بالعالم فاعلمها المفوض أن دورها سيكون تربويا ويهدف إلى غرس قيم السلام بالنشء وأكد لها أن المراهقين يصغون جيدا إلى نجومهم المحبوبة ولا يهتمون كثيرا بأحاديث ذويهم أو مدرسيهم.
عادت إلى البيت بعد أن ضبطت جدول الزيارات الذي يتلاءم مع وقت فراغها وحين ولجت البهو الأرضي وجدت جيمي بانتظارها فجلست حذوه وتحدثا حول عرض لوحاتها الجديدة الذي سيجري في غضون ذلك الأسبوع بإحدى قاعات العرض بنيويورك وقدم لها مقطوعات شعرية لأغان جديدة حتى تقرأها وليتم تسجيلها فور موافقتها عليها. أسرعت بإنهاء اللقاء

مع المندوب ثم فتشت عن مارتا وسألتها إن كان آدم قد اتصل أو حضر بغيابها لكنها أجابتها بالنفي.
استغربت البنت من انشغال آدم عنها وحاولت أن تتصل به على هاتفه المحمول لكنها تفاجأت بانقطاع خطه وظلت تكرر المحاولات دون أن تظفر بالرد.
تشنجت أطرافها إثر إحساس بالتوتر سيطر عليها فدخلت مرسمها وأخذت تلطخ الألوان على قطع "التوال" ولم يكن جنونها الذي يحركها هذه المرة ولكنه الغضب كانت تضرب الفضاء الناصع بريشتها في عصبية مفرطة واختار لا وعيها الغاضب ألوانا غامقة تحدث عن الطلاسم التي تهيم بفكرها وتختلط كما يختلط الأسود والبني والأحمر أمام ناظريها لتنسج نغمة غضب انفلتت من براثن الإدراك نحو مطلق الشرود.
عادت من جديد تفتش عن هاتفها الجوال وكررت الاتصال بآدم وكان خطه الخلوي لا يزال منقطعا أما بشقته فقد كان يرن دون رد. خرجت من المرسم وأثناء نزولها التقت بوالدتها التي لاحظت ارتباكها وسألتها عن سببه لكن البنت ما كانت بحالة تسمح لها بالرد عن أي استفسار.
في المساء غادرت البيت نحو شقة آدم فوجدتها موصدة وساكنة، خمنت أن يكون بمكتبه في شركة الإضاءة حتى تلك الساعة وتوجهت مسرعة إلى هناك حيث عرفت أنه لم يلتحق بعمله في ذلك اليوم وعادت إلى البيت حزينة ومتخوفة من اختفائه المفاجئ وأمضت ليلتها تلك كئيبة مهمومة ولم تقدر على محاورة أمها التي عرفت ببديهتها أن أمرا يجري بين ابنتها والشاب الذي تعرفت إليه.
استيقظت الفتاة باليوم الموالي باكرا وقادت سيارتها متجهة إلى شقة حبيبها المختفي كانت تريد أن تلقاه قبل أن يغادر نحو عمله لكنها كالعادة فوجئت بالشقة صامتة ساكنة فانتظرت حتى حلت الساعة الثامنة وقصدت شركته لكنها لم تجده بمكتبه

وأوصت زميلا له بأن يتصل بها في حال ظهوره بعد ان أمدته برقم هاتفها الخلوي.
ظلت سارة على تلك الحال عدة أيام واشتد بها الحزن والقلق وأخذت تصرف وقت فراغها في الزيارات المقررة من قبل اليونيسيف إلى المعاهد الثانوية فزارت مدرسة "ترومن" الثانوية ب"برونس" ب"منهاتن" وهناك التقت بجمع من الطلبة كان أغلبهم ينتمي إلى الطبقة الفقيرة وقد فرح الجمع بلقائها ثم بادرت بالتحاور معهم فحدثوها عن أوضاعهم الاجتماعية والأسرية وعن صعوبة الدراسة الجامعية التي تتطلب مالا كثيرا تعجز عائلاتهم عن توفيره وحدثوها عن أمور خفية كانت تجهلها منها أنه هناك من يزورهم من المجندين الأمريكيين لإقناعهم بالانضمام لصفوف الجيش الأمريكي ويغرونهم بالحصول على مكافآت مالية كبيرة في حال وافقوا ويعدونهم بالتكفل بمصاريف دراستهم الجامعية بعد انتهاء مرحلة التجنيد.
كان الطلاب يحدثون فنانتهم المحبوبة بكل حماس عما يجول بخاطرهم. قال أحدهم:
- لا أريد أن أمنح حياتي لأمريكا.
وقال آخر:
- أرفض أن أموت، أريد أن ألتحق بالجامعة وأعيش بسلام.
وقال لها آخر يدعى ديفيد:
- العراق ليس جماعة "ابن لادن". ما فائدة حرب العراق؟
وقالت طالبة:
- إنهم يستغلون فقرنا وعنصرنا الأسود.
وحدثوها عن دروس التدريب العسكري التي وافق عليها مدير مدرستهم ضمن برنامج "غروتيسي" ويتلقى الطلبة الموافقون على التجنيد ساعة تدريب شبه عسكري يوميا على يد قائد متقاعد من القوات الجوية الأمريكية ويرتدون زيا عسكريا موحدا ويتعلمون الانضباط والولاء والنظام والانتماء فيما

يتولى الجيش منح المدرسة مكافآت مالية نظير تقبلها لهذا البرنامج.
بعد أسبوع من زيارة مدرسة "ترومن" قامت الفنانة الشابة بزيارة مدرسة ثانوية أخرى بحي " هارلام" الفقير ذلك الذي يقطنه السود أمثالها فاستقبلها المدير ويسر لها لقاء مع الطلبة وحين سألته عن برنامج التدريب العسكري أعلمها أنه يرفض زيارة المجندين إلى المدرسة لأن أصدقاءه ذهبوا إلى العراق ولم يعودوا وأنه يدعم بشكل مستمر حق الطلبة في رفض إعطاء بياناتهم الشخصية لأولئك المجندين المرسلين لإغرائهم بالانضمام إلى الجيش. أكبرت سارة في المدير حرصه على سلامة طلبته ورفض المساعدة المشروطة التي يقدمها الجيش وفي لقائها بالطلبة تحاورت معهم عن السلام وسألوها عن العالم العربي فوجدت نفسها ودون وعي منها تطنب في الحديث عن تونس وعن اعتدال طقسها و جمال شواطئها وحدثتهم عن عظمة "قرطاج" التي سيطرت ذات يوم على حوض البحر الأبيض المتوسط و التجارة العالمية وحدثتهم عن دول المغرب العربي وشمال إفريقيا وأخبرتهم أن الناس هناك مسالمين ولا يمسكون بنادق ورشاشات ليقتلوا بها الأجانب.
وحين سألها طالب عن تنظيم القاعدة لم تحر جوابا لكنها بعد عودتها إلى البيت بحثت عن معلومات عن التنظيم عبر "الأنترنات" لتتمكن من إفادة الطلبة بمعلومات صحيحة وغير معتمة وفي رحلة بحثها اطلعت على عديد من الخفايا والحقائق عن البلد الذي آواها وفتح لها أحضانه واكتشفت أن تاريخ أمريكا لم يكن أبيض نقيا بل أنه ملطخ بالدنس والعار. ها أنها تتعرف إلى النشأة الأولى لخلية "القاعدة" وهاهي تعرف أطوار حرب أفغانستان وتقرأ عن الدمار الذي ألحقته أمريكا ببلد فقير وعن الضرر الذي خلفته بشعب أعزل تستخدم ضده أسلحة فتاكة ومحرمة دوليا وهاهي تقرأ عن حرب العراق وترى الفوضى التي لحقته بعد الاحتلال الأمريكي وتقرأ عن

المشردين واللاجئين والقتلى والأرامل والأيتام والأحياء المدمرة والنفط المنهوب والتراث المسلوب والانقسام الطائفي والتطاحن الأهلي.

هالها أن تكتشف كل تلك الحقائق وقد كانت تظن أن أمريكا هي دولة الديمقراطية والحرية والعدل والسلام وعادت من جديد تلتقي بالطلبة الفقراء في "هارلام" و"برونس" وقدمت إعانة مادية للمدرسة التي رفض مديرها برنامج التدريب العسكري ووجدت متعة كبرى في لقائها بالطلبة الشبان ألهتها بعض الشيء عن اللوعة التي خلفتها في قلبها اختفاء آدم الفجائي عنها. وتعرفت إلى طالبة جامعية سوداء تدعى "ماكيبيلا" عرّفها بها أحد الطلبة في مدرسة "ترومن" فقصت لها قصة تجنيدها وكيف طلب منها جندي أن توقع أوراقا بين يديه حين زارها في المدرسة الثانوية ولما وقّعت تَبَيّن لها أن هناك بند ينُصُّ على إرسال الشخص الموقع إلى العراق حال توقيعه وتمّ إرسالها إلى هناك حيث كادت أن تفقد حياتها عدة مرات وتعرضت إلى التحرش الجنسي من قبل رؤسائها الأمريكيين ورأت بعينيها الوحشية التي يكرسها جنود الاحتلال في بغداد والعراق، يقتلون المدنيين العزل برشاشاتهم ويقتحمون البيوت ويغتصبون النساء وبعد عودتها من العراق انضمت إلى جامعة نيويورك ولم يتكفل الجيش بدفع المستحقات المالية كما وعد.

تطلعت سارة إلى البلد الذي أواها مجددا بعينين مجردتين من كل تعتيم و تزوير أو تزويق وتنميق، إنها تراه الآن في أبشع منظر ...إنها الدولة التي قامت على دماء الهنود ولا تزال إلى حد اللحظة متعطشة إلى الدماء وإلى نهب الثروات والدوس على الأبرياء.

أحست في تلك الأيام من شهر ماي لسنة 2006 بكره شديد للحياة بأمريكا خاصة أن آدم قد اختفى دون سابق إعلام وقد عادت أمها إلى تونس بعد فترة قصيرة لتلتحق هناك بتوفيق. وذات يوم من أواخر ذلك الشهر نهضت عند الضحى وفي

عزمها أن تقوم بجولتها الاعتيادية على المدارس الثانوية بالأحياء الفقيرة وقبل أن تغادر رن جرس الباب ففتحت مارتا. كان بالباب رجلان ولوحا في وجه المرأة ببطاقات تفيد أنهما من رجال الأمن فأدخلتهما ولما لمحتهما سارة عرفتهما من الوهلة الأولى، إنهما ضابطا المخابرات.

ظلت واقفة بالبهو الأرضي كأنما تريد طردهما فقال الرجل الأشقر ذو الملامح الخشنة:

ـ جئنا لنعرفك بمكان آدم.

صرخت الفتاة على الفور:

ـ آدم !! إذن هو محتجز لديكم؟

واصلت الكلام متلهفة: ـ هو سجين عندكم أليس كذلك؟

فقال الرجل الثاني ذو الصوت البارد:

ـ إنه ليس سجينا بل هو حر طليق !

رددت سارة:

ـ حرٌّ طليق !! أين هو ولم اختفى؟

قال الرجل الأول:

ـ لقد سافر إلى فرنسا رفقة صديقته السابقة الفرنسية. هل رأيت أنك مخطئة في حبه؟ قضى معك وقتا ممتعا ثم عاد لصديقته الأولى.

وأضاف الرجل الثاني وهو يبتسم ساخرا كما الأول:

ـ عاد لصديقته الأولى "ناتالي" الجميلة، إنها شقراء ذات عينين زرقاوين.أما أنت فقد هزأ بك ومنك.

وعاد الأول ليقول وقد اختفت ابتسامة السخرية من على وجهه:

ـ هل تعرفين سبب هزئه منك؟ فعل ذلك لأنه عربي ومسلم ولأن العرب يقدسون العادات البالية والتقاليد المهترئة... خشي أن يتزوجك وأن يمنحك اسمه وأنت زنجية ووالداك من البيض. ماذا سيقول لأهله المتزمتين؟ تزوجت زنجية لقيطة؟

انهارت سارة وأحست بدوار يكاد يذهب وعيها فتهالكت على الأريكة فيما ظل الرجلان يمطرانها بوابل من الكلام المدمر ويكشفان لها حقائق قاتلة. قال الأول:

ـ وحدها أمريكا احترمتك واعتبرتك إنسانا أما الآخرون مواطنوك التونسيون بل كل العرب، حتى من اعتبرته حبيبا لك، كلهم هزؤوا بك.

أطرقت الفتاة وأخفت وجهها بين يديها، كانت تبكي بحرقة وألم وما عادت تسمع كلام الرجلين البغيضين...أحست بثقل يجثم على كتفيها وودت لو تنشق الأرض وتبتلعها. لقد ظلت طويلا تتهرب من الحب خشية بلوغ هذه النهاية المحبطة لكنها ابتلعت الطعم بكل سمومه. صمتت لحظة ثم مسحت دموعها ورفعت رأسها موجهة نظرها للرجلين وقالت:

ـ ولمَ علي أن أصدقكما؟ قد يكون آدم سجينا عندكم فمن السهل جدا أن تزجوا به في السجن طالما هو عربي ومسلم !

ـ اذهبي للتو إلى مقر عمله واسألي هناك عن علاقته التي يعرفها الجميع بـ"ناتالي لوي دافيد". لقد كان مكتبها مجاورا لمكتبه بالشركة وخارج العمل كانت تعاشره معاشرة الأزواج لكنها الآن غير موجودة سيخبرونك أنها سافرت إلى فرنسا.

قال الثاني:

ـ اسألي عنهما في مطار "جورج كينيدي" سيمدونك برقم رحلتهما وساعتها نحو فرنسا.

عقب الأول على كلام صاحبه:

ـ كل هذا ليس مهما...يجب أن تهتمي بنفسك وبفنك وببلادك "أمريكا". أليست بلادك؟

قال الثاني مؤكدا:

ـ نعم بلادك وهي التي مدّت لك يدين مرحبتين واحتوتك. إنها تحتاج لك كثيرا...تستطيعين أن تقدمي لنا خدمات جليلة.

ظلت سارة تنظر إلى الرجلين بعينين متورمتين من أثر البكاء وقد ارتخى جسمها على الأريكة وبدت كالعليلة...ثم نهضت واقفة وتوجهت لهما بكلام في لهجة تقطر سخرية:

ـ تفضلا الآن بالخروج وشكرا لكما ولن أنسى فضل بلدي الذي أواني واحتواني.

عند ذلك قال الأول :

ـ سنتركك ترتاحين وتتمالكي حتى تتمكني من التثبت في أمر "آدم" بعد ذلك سنمنحك وقتا تلتئم فيه جراحك ثم سنعود إليك بخصوص أمور هامة لا تنسي...

وقال الثاني بصوته البارد ولهجته الساخرة:

ـ لا تنسي الشريط...أنت مواطنة شريفة ولا يجب أن تلحقي بنفسك العار.

خرج الاثنان بينما أحست المرأة الشابة أنها غير قادرة على الوقوف على قدميها فتهالكت من جديد على المقعد وظلت ذاهلة عما حولها عاجزة على تمثل الحقائق التي سمعتها. أ يصدر كل ذلك عن آدم؟

تمالكت نفسها وتناولت مفاتيح سيارتها واستقلتها نحو مقر عمل الشاب وهناك عرفت أنه كان على صلة وطيدة بـ "ناتالي لوي دافيد"وأنها قد رحلت إلى بلادها منذ أكثر من شهر وقررت أن تتأكد نهائيا من أقوال الرجلين فتوجهت إلى مطار "جورج كينيدي" حيث اتصلت بمكتب الاستعلامات وأكد لها الموظفون أن المدعوين "آدم عياشي" و"ناتالي لوي دافيد" قد سافرا في نهاية شهر أفريل نحو باريس على متن نفس الطائرة. شعرت بالإحباط لكنها لم تبك ورأت أنه كان كاذبا ومدع ولا يستحق البكاء عليه وعادت إلى بيتها بمنهاتن بقلب جريح لكنه مع ذلك يحمل بداخله شعلة حب تحرقها كلما تذكرت لحظات الهيام بينهما و ظلت تتحملها في جلد وأحيانا تتجاهلها وهي تردد أنه خائن ولا يستحق أن تذكره بداخلها أو أن تتحسر عليه.

مرت أيام شديدة على سارة وهي تحاول ترميم الجرح الذي انفتح بداخلها ذلك الجرح الذي كشف لها قبح الناس وقبح من أحبت وذكرها بالهوة السحيقة التي حفرت بداخلها حين عرفت أنها بنت سوداء لأبوين من البيض لكن من غريب أنها ظلت بأعماقها تكن حبا شديدا لآدم وأخذت تقنع نفسها في حالات اهتياج مشاعرها بلحظات مخطوفة من الوعي الجريح بخيانته ولؤمه مستندة إلى الدلائل الواقعية أو في الحقيقة على واقع مرير محبط وكانت بأحيان كثيرة تستيقظ بالليل متعطشة لحضنه، إنه رجلها الأول وسيكون الوحيد وهو الذي أشعرها أنها أنثى...لن تقدر على نسيانه فقد حرك بأعماقها بركة راكدة وجعلها تغلي وتفور وتهبها لحظات خالدة...آدم سيظل منقوشا بذاكرتها بل هو أحاسيس حقيقية وحب ثمل لن يمحي مع الأيام.

ستعود الآن إلى جنونها وسترقص وتصخب وترسم ستحيى وقد عشقت أنوثتها حينما عشقت الرجولة بمن أحبت وإن يكن عاد لصديقته ناتالي، حبه الأول أما هي فحبها الأول هو فارسها الحبيب الذي لن تنساه ما عاشت، ما عاشت ستتذكر همساته تخترق أذنيها فتسري بجسدها صعقة الحب، ستتذكر قبلاته فتغيب في سحر اللحظات، ستتذكر لمساته فتحلق في عالم النشوة الأخاذ. لن تنسى أنها ولدت امرأة يوم التحامها به في أول لقاء ولن تنسى أنها بلغت الكمال حين توحدت منهما الروحان في روح واحدة وإن غاب الآن أو سافر إلى أبعد نقطة في هذا العالم فهو بإحساسها قابع بوجدانها لا يغادره يؤنسه ويشجيه ويهديه نشوة مزاجها حب لا ينتهي. وانطلقت في جنون من نوع آخر يدفعها إلى الإبداع وينقلها إلى سماء مرصعة بكواكب مضيئة بنور الجمال تنتشي فيها الروح وتثمل بخمرة ممزوجة بجمال الفن وروعة العشق يحلق بها في أثير المشاعر الخالصة ويعلمها أن تعشق ذاتها وأن تعشق كل ذات بشرية قادرة على الحب وأن ترى عالم الحب عالم الذات الإلهية المكتملة من منافذ الجمال التي أوجدتها تلك الذات

العالية في كل ذاتٍ. الآن يعن لها أن تغني وأن ترسم وأن تشطح شطحاتها الأثيرة لديها مدفوعة بسحر الحب وبروعة العشق، حبها لذاتها من خلال ذاته وحبها لكل ذات آدمية وحبها للذات المطلقة التي خلقت الكمال.

لم يخلد ببالها أبدا أن تبلغ في عشقها درجة التصوف ويا له من تصوف هذا الذي يرفع الإنسان عبر درجات العشق ويغرقه في لج الفن المتلاطم فيثمل بمُدام الجمال ويذوب في محبوبه ويتحد معه ويرتقي العتبات حتى يبلغ العتبة القصوى، عتبة الكمال فأن تعرف الله هو أن تخلص في عشق المحبوب متمسكا بعنان الفن والعطاء براق الكمال ينقلك من معشوقك الآدمي نحو معشوقك الأبدي.

أهملت سارة الزيارات التي كانت تقوم بها نحو المعاهد الثانوية وعادت من جديد إلى محراب فنها تمارس ابتهالاتها وتؤدي طقوسها وقد رسمت لنفسها طريقا جديدا يقود إلى الله وعبرت في أغانيها عن هذا المنحى التصوفي الذي تتصاعد فيه أشواقها من حب أرضي إلى حب سماوي مجرد ومطلق...وسئلت ذات يوم إن كانت بذلك تؤيد الدعاة المتطرفين للإسلام الذين ينتشرون بالعالم الغربي لكنها أجابت أن الله في كل مكان وهو رب العالم ورب الحكمة والعدل وهو إله كل الناس يعرفه من آمن بالذات، ذات الإنسان الساعية إلى الله حتى تلاقيه وتتحد معه ولم يقدر أحد على تحليل المنحى التصوفي الذي اتخذته في فنها وفي حياتها بعد اختفاء آدم لأنها لم تسع لإعلانه ولم تتح لأحد الفرصة للخوض معها في غمار فكرها ومذهبها التصوفي المتفرد الذي تشبعت به وامتلأت قناعة بترجمته إلى سلوك حياتي فالفن بنظرها بات غير كاف ليعبر عن عشق الذات الإنسانية ومنها عشق الذات الإلهية فعادت من جديد تزور أصدقاءها الطلبة وتقنعهم بالمحبة الخالصة ونظمت لقاءات كثيرة مع أولياء أمورهم ومع أناس من مختلف الفئات والأجناس تحدثهم عن السلام ومحبة الإنسان ورصدت عائدات

العديد من حفلاتها لفائدة اللاجئين وضحايا الحروب في مختلف أنحاء العالم وأرسلت مبالغ هامة لمخيمات اللاجئين بسوريا ولبنان والأردن.
وحل شهر جويلية من تلك السنة فاندلعت الحرب الإسرائيلية المفتوحة ضد لبنان وكانت برا وبحرا وجوا وأخذت الطائرات الإسرائيلية تكثف من غاراتها الجوية لتقصف شرقه وجنوبه مخلفة دمارا هائلا طال المنازل والمؤسسات التجارية المدنية والطرق وباتت مدن الجنوب تعيش حصارا محكما ولقي مئات من اللبنانيين مصرعهم وجرح عدد هائل منهم تجاوز الألف وألحق العدوان أضرارا جسيمة بالمناطق السكنية والبنى التحتية المدنية بالإضافة إلى التدمير المدبر لمئات الجسور و شبكات الطرق في نفس منطقة الجنوب مما أدى إلى تقطع السبل أمام سكانه وإلى إعاقة عمليات الإغاثة وبعد أسبوعين من النزاع أسفرت حصيلة المتضررين على قرابة المليون لبناني، فر أكثر من نصفهم من ديارهم والتجأ أكثر من مائة ألف شخص للعيش بالمدارس والمؤسسات العامة وعبر أكثر من مائة ألف شخص الحدود نحو سوريا وعاش الجنوب والشرق أياما سوداء تحت وابل من القصف الإسرائيلي بواسطة طائرات تقذف الآلاف من القنابل العنقودية و تقذف كل واحدة منها بدورها عددا كبيرا من القنابل الصغيرة فتُحدث انفجارات متتالية بعد وقت قصير من إطلاقها وازداد الوضع تعقدا في الجنوب وأضحى الوصول إلى الجرحى والنازحين شديد الصعوبة بسبب الأعمال العدوانية المتواصلة.
تابعت سارة الأحداث باهتمام شديد ولم تصم آذانها هذه المرة عن الأخبار كما حصل في حرب العراق وحين شرعت الأمم المتحدة في إرسال وفود الإغاثة وقوافل الإعانات الغذائية والطبية قررت أن تسافر مع إحداها فحلت بلبنان عقب أسبوعين من بدإ أحداث الحرب وتطوعت لمساعدة المتضررين وكانت مرافقة دائمة لوفد الأمم المتحدة المساهم

في أعمال الإغاثة وساعدت منظمة الصليب الأحمر بهبات مالية وعملت بالمدارس والمؤسسات التي تُؤوي اللاجئين والمهجرين وأطعمت الأطفال وقامت بتمريض الجرحى والمرضى والمسنين وكانت تقصد مواقع القصف للمساعدة في انتشال الجثث من تحت الأنقاض وإخلاء الجرحى وعرضت نفسها في مرات عديدة للموت وقد كانت مرة ضمن طاقم سيارة إسعاف متجهة نحو "قانا" لإخلاء الأطفال الجرحى حين تعرضت السيارة لقصف إسرائيلي مات على إثره السائق ومن جاوره وجرح ثلاثة كانوا بصندوقها الخلفي وكانت من بينهم سارة التي أصابت شظية كتفها الأيمن وتم إسعافها مع ضحايا القصف وبعد فترة قصيرة عادت تسلك طرقا وعرة للوصول إلى المهجرين ومساعدتهم وكانت في أثناء ذلك تستمد القوة والعزيمة من مذهبها التصوفي الذي دفعها إلى فعل الخير وإلى نكران ذاتها وتجاهل جرحها كما حركها جنونها في السابق نحو الانغماس في ذاتها ونكران الآخرين...

ويوما بعد يوم كانت شخصيتها تزداد قوة وصلابة واندفاعا للخير وصارت عنصرا فعالا يتحلى بذكر حسن لدى فرق الإنقاذ والأهالي وحتى لدى جنود المقاومة الذين عرفتهم أثناء تواجدها في قلب الأحداث وذات يوم فوجئت بأحدهم يبلغها شكر القائد "حسن نصر الله" وتمنت في نفسها أن تتمكن من رؤية الرجل عن قرب لكن ذلك كان أمرا صعب المنال خاصة وأن المخابرات الأمريكية كانت تتعقبها باستمرار ولم ذلك ليخفى على الجميع بما في ذلك جماعة "حزب الله" وقد عرفت أن الرجل وجنده يتحلون بعزيمة فولاذية وبحنكة وبطش أربكت الإسرائيليين وإلى ذلك فقد عرفت أن الرجل يتمتع بحس مرهف وأخلاق عالية أبعدته عن التعصب والتطرف مما جعله يبارك ما أتته رغم أنها مغنية تعيش بأمريكا منذ قرابة الثماني سنوات وطلب منها عميل لفائدة المخابرات الأمريكية أن تتقصى أخبار حزب الله لتنقلها إليهم لكنها هزأت منه ولما

هددها ببث الشريط أعلمته بأن ذلك ما عاد يخيفها لأن الحب هو ما جعلها تدرك ذاتها وتحبها وتهب حياتها لخدمة الفن والإنسانية وأخبرته أن أحداث الشريط هي لحظات مجد ورفعة بحياتها وأنها يوم التحمت بذلك الرجل أدركت إنسانيتها وطالبت منه أن يُبَثَ الشريط حتى يعرف الناس أن سارة إنسان يُحب و يمارس إنسانيته الساعية إلى الله.

أخذ جرحها يتماثل للشفاء أثناء إقامتها بلبنان لكن جروح قلبها كانت لا تزال تنزفا ألما وحرقة وهي تشاهد ما أحدثته إسرائيل من مجازر وجرائم بشعة ضد الإنسان فقد ألقت ما يزيد عن الألفين وأربع مائة قنبلة عنقودية و أحدثت دمارا هائلا ومدبرا للطرق والجسور بقصد تصعيب عمليات الإنقاذ والإمعان في التنكيل بالشعب اللبناني.

وصارت تعلم أن أمريكا تساند إسرائيل ضمن مخطط مرسوم ومدبر لرسم خريطة الطريق في الشرق الأوسط أو بالأحرى لإنشاء شرق أوسط جديد منقاد وطيع فازداد استياؤها من الدولة "الأخطبوط" وخمنت أن تعود إلى هناك وأن تحاربها في عقر دارها متعقبة خطى حبيبها آدم الذي كان يحاربها بمقالاته التي تفضح سلوك الأمن الأمريكي ضد العرب والمسلمين أما هي فستشهر فنها سلاحا ضد أمريكا: الغناء والرسم والرقص ستكون رسائل موجهة لكل الشعوب حتى تعرف قذارة أمريكا ووحشيتها،ستوظف فنها لنصرة السود والعرب والمسلمين وكل المستضعفين الذين تسعى أمريكا لدحرهم وتهميشهم وفي جيل الأطفال والشبان الذين ينبتون بتلك الأرض ستحاول أن تزرع بذور الخير وحب الإنسان والله أما آدم سيظل حيا بداخلها وقد غفرت خيانته ولا شك أنه أين ما كان أو حل سيغفر تعاملها القديم مع المخابرات الأمريكية إن عرف به.

كانت سارة لا تزال مقيمة بلبنان حين أصدر مجلس الأمن يوم 14 أوت من تلك الصائفة قراره الذي يطالب بوقف إطلاق

النار ويفوض بنشر قوى دولية لحفظ السلام في الجنوب اللبناني و زار وزير الخارجية الإيطالي" ماسيمور داليما" الجنوب اللبناني الذي تعرض لقصف مكثف وأعلن استعداد بلاده للإسهام في القوة الدولية التي ستحفظ الأمن بلبنان بما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف جندي وأنها ستتولى قيادة القوات الدولية في لبنان.

قررت الفتاة العودة إلى أمريكا بعد انقضاء فترة تزيد عن شهر ونصف لم تدخر خلالها أية جهد للمساهمة في أعمال الإنقاذ والاهتمام باللاجئين وكانت المخابرات الأمريكية تتعقبها حيث ما حلت تريد أن تنتزع منها كل المعلومات التي تبلغها عن جيش "حزب الله" ومخابئه ومخازن الأسلحة ورغم أن ما تعرفه كان محدودا وبسيطا ولم يبلغ حد معرفة مخابئ الجنود أو ذخائرهم فإنها ظلت قوية ورفضت أن تدلي بأية إفادات مهما كانت بساطتها ورفضت أن تفرط في كرامتها وأن تدنسها بعار العمالة.

وكان بنفسها هوى ينازعها إلى العودة إلى تونس وقد أخذها حنين جارف إليها غير أنها قاومته

وأقنعت نفسها أن الطريق إلى الله يبدأ من أمريكا فلتوصل صوتها قويا صادحا إلى كل من يحب السلام ويدافع عنه ولتكتب رسالتها النبيلة بريشتها الحرة ولتعد إلى أولئك الفتيان والفتيات ـ تلك البراعم التي تنشأ بريئة لكن أمريكا تغسل أدمغتها وتحشوها بحقد لا مبرر له على العرب والمسلمين وتجندهم لتستخدمهم في حروبها القذرة في مقابل وعود كاذبة ـ فلتبدأ عملها معهم وتوضح أمام أعينهم ما تعتمه السياسة الغربية.

حطت طائرتها بمطار "جورج كينيدي" على الساعة الرابعة فجرا في اليوم الثاني من شهر سبتمبر. لم يكن أحدا بانتظارها لأنها لم تعلم أحدا بقدومها فاستقلت سيارة تاكسي مضت بها إلى بيتها الغريب في منهاتن. أحس "أنطون" و"مارتا" بحركة

في البيت فاستفاقا مذعورين لكنهما هللا حين وجدا العزيزة سارة تقف قبالتهما، كانت نحيفة للغاية وشاحبة الوجه لكنها بدت مرتاحة وأشعت نظرات الرضا من عينيها الجميلتين، خفّا إليها وحضناها بحب وشوق حقيقيين وحمل عنها "أنطون" الحقيبة الصغيرة التي تضم أغراضها الشخصية وصعدت مارتا معها إلى غرفتها الشرقية وحضرت لها حماما دافئا فقد بدأت تهب على نيويورك نسمات خريف باردة.
استلقت سارة على فراشها طلبا للراحة وراودها إحساس بأن "أنطون" و"مارتا" هَما بالحديث معها في أمر قد يكون هاما لكنهما تراجعا وأتاحا لها الفرصة لترتاح فانتابها خوف أن يكون بأس أصاب والدها أو والدتها فاتصلت بهما على الفور وكم كانت سعادتهما عظيمة بعودتها السالمة من أرض لبنان التي تشهد أوضاعا مأساوية ولمست من والدتها رغبة في الحضور للاطمئنان عليها. أنهت المكالمة وقد هدأت خواطرها لكنها ظلت تفكر بأمر الزوجين المقيمين ببيتها وما قد يخفيانه عنها. في الأخير خمنت بأن الأمر يتعلق بضباط المخابرات الذين لا شك ينتظرون عودتها لاستجوابها والتحقيق معها. أرخت رأسها على الوسادة وهي تزم شفتيها استياء لكنها لم ترهب ولم تجزع فقد قررت أن تخوض حربها ضد هؤلاء وضد الامبريالية الأمريكية بطريقتها و ستحتاج إلى قوة وصمود باسلين.
أفاقت عند الضحى فنزلت إلى الطابق الثاني وكالعادة وجدت مارتا متأهبة لتجهيز الفطور وما هي إلا لحظات حتى كانت الفنانة العائدة جالسة إلى السفرة ترشف قهوتها وتتحدث إلى أنطون ومارتا اللذان جلسا قريبا منها عن العدوان الفظيع الذي شنته اسرائيل ضد لبنان وعن العدد الهائل من القنابل العنقودية الملقاة بالجنوب المتضرر والتي بقي عدد كبير منها منتشرا هناك على شكل ألغام قادرة على إلحاق مزيد من الأضرار باللبنانيين. صمتت سارة لحظات تفكر بمصير المهجرين

والمشردين هناك وقد أحست بعجز عن مواصلة الأكل فقالت مارتا بصوت مشوق وخافت:
ـ هناك شخص ينتظر وصولك إلى أمريكا بفارغ الصبر.
تأملت سارة المرأة بذهول وقد لمع بذهنها خاطر فأردفت مارتا:
ـ إنه آدم... وهو ينتظرك منذ قرابة الشهرين ويسأل عنك يوميا.
لم تصدق سارة ما بلغ أسماعها أو ربما صدقت لكن الفرحة أذهلتها، قالت:
ـ هل عاد من فرنسا؟
ردت مارتا على الفور:
ـ لم يسافر إطلاقا إلى فرنسا.
قالت ذلك ثم هرعت إلى المكتب القريب وأحضرت هاتفا محمولا وضغطت بعض الأزرار وقالت لسارة: ـ خابريه على هذا الرقم !
أخذت سارة تنظر ذاهلة إلى مارتا وإلى الهاتف بين يديها فضغطت الأخيرة زرا وأخذت تنتظر الرد وبعد لحظات نطقت قائلة:
ـ صباح الخير سيد "آدم" ! لقد وصلت سارة هذا الصباح وستخاطبك الآن.
تناولت سارة الهاتف من مارتا وتأهبت للاستماع إلى الصوت الحبيب إلى قلبها.
قال:
ـ سارة حبيبتي ! أخيرا !
فقالت بلهجة عتاب خفيف:
ـ نعم سارة يا آدم !
ـ اشتقت لك كثيرا، غيابك كان فوق احتمالي. هل لي أن أراك؟
لا بل سأحضر حالا.
ـ هل عدت من فرنسا؟
ـ لم أسافر إلى فرنسا.

ـ أين كنت إذن؟
ـ كنت مسجونا سأحضر حالا لأحكي لك تفاصيل ما حدث لي.
فتحت مارتا الباب فاندفع الشاب كالسهم إلى الداخل وحين لمح سارة فتح ذراعيه واحتضنها بكل قوته وأخذ يربت على ظهرها وكتفيها ويتحسس شعرها ووجهها بيديه كأنما ليتأكد من وجودها بين يديه وأبدت الفتاة تجاوبا مذهلا معه فدست رأسها بصدره وراحت تتنعم بدفئه وتمسح دموعها في صداره. كانت لحظة غابت فيها الحسابات والظنون والشكوك واللوم وحضر فيها الشوق كنار متأججة بقلب الحبيبين سعى كلاهما إلى إطفائها بالعناق والتحبب. نظرت البنت إلى حبيبها فخفق قلبها المتيم وسرى بجسدها تيار شديد العتو جعلها تخفي رأسها مجددا بصدره. لم تصدق أنها أخيرا بهذا الحضن الدافئ وأمسكها آدم من كتفيها وراح يلثم وجهها وشعرها وجبينها بينما كانت دموع ساخنة تترقرق من عينيه العسليتين فتزيدهما صفاء ونورا وزاد الوجد من إشراق وجهه رغم ما علاه من شحوب ورغم الهزال الذي بدا عليه.
توقفا أخيرا عن العناق فتهالكا على أريكة الخيزران بالبهو السفلي ذاهلين عن الوجود من حولهما ونسيا كل شيء...التحمت به سارة كصغير يبحث عن الدفء بصدر أمه وطوقها بذراعه الأيمن وأخذ يقبلها من رأسها وهو يتمتم بعبارات الحب والشوق فيما لم تتوقف هي عن ذكر اسمه كأنما لتقنع عقلها بحصول هذا اللقاء.
بعد دقائق استجمعت قوى وعيها الثمل لتسأله في غنج ودلال:
ـ كيف هُنت عليك؟ كيف رحلت وتركتني لوحدتي؟
فقال بصوت تسلل إلى قلبها كشعاع من ضوء القمر الفضي:
ـ حبيبتي سارة ! لم أتخلى عنك...الأوغاد هم السبب لقد اعتقلوني.
انتفضت سارة وهي تبعد رأسها عن صدره وسألت:
ـ من هم الأوغاد؟ هل تقصد المخابرات؟

أذهلت آدم المفاجأة فقال وقد اعترته ما يشبه الصحوة:
ـ كيف عرفتِ أنهم المخابرات؟
فقالت له وقد اعتدلت في جلستها:
ـ قص علي ما جرى معك وسأقص عليك ما أعرفه وما جرى معي.
قال:
ـ لا شك أنك تذكرين لقاءنا الأخير. كنا في ذلك المطعم الصيني نتحدث ونأكل و لم ندر بأننا كنا مراقبين، كانت المخابرات تجسس علينا بواسطة كاميرا مثبتة بركن من أركان القاعة. في ذلك الحين حدثتك عن المنتديات التي أنشر بها مقالاتي وأخبرتك أن لي مقال جديد هو بشقتي...
صمت برهة ثم واصل الكلام:
ـ لقد سبقونا إلى شقتي وفتشوا بها رغم أنهم كانوا يفتشونها باستمرار لكني كنت أخفي وثائق الهامة بذلك الصندوق الصغير الموضوع بدرج سري بمكتبي وقد رأيت أنه مشفر وكنت في كل مرة أتوقع أن يصلوا إليه لأنهم في مرات سابقة دخلوا شقتي واستولوا على وثائق تدافع عن المسلمين بأمريكا وقد عانيت من متاعب كثيرة وفي ذلك اليوم شرعوا يفتشون الشقة لكننا وصلنا قبل أن يعثروا على مرادهم فاختبؤوا بشقة مجاورة بعد أن ثبتوا جهاز تنصت وربما أيضا كاميرا وبعد خروجنا دخلوا مجددا وأخذوا الصندوق وبه ذلك المقال الذي يكشف طرق معاملة الأسرى بالقاعدة البحرية ووجدوا به وثائق أخرى فاعتقلوني واتهموني بعرض خدماتي على تنظيم القاعدة وحققوا معي وعذبوني ولم تكن المرة الأولى التي يحدث لي فيها ذلك لكن في المرة الأولى وقع احتجازي في سجن عسكري ثم أفرجوا عني لعدم ثبوت أية تهمة علي وفي هذه المرة فقد اتهمت بالتآمر لشن هجوم بقنبلة قذرة وتندرج هذه التهمة ضمن تهمة أخرى هي عرض خدماتي على تنظيم القاعدة وقادوني مع آخرين من المسلمين القاطنين بأمريكا

لحضور جلسات بمحكمة نيويورك بعد فترة من الاعتقال والتعذيب. كانت الجلسة الواحدة تستمر عدة أيام وكان من السهل جدا أن تفضي النتيجة إلى سجن طويل قد يدوم لعقود من السنين أو ربما يكون على مدى الحياة.

كانت سارة تستمع إلى حبيبها وقد انفطر قلبها تأثرا وخوفا عليه وسالت من عينيها الجميلتين دموع غزيرة وأخذت تداعب بيدها شعره الأسود الناعم.

واصل آدم ما بدأه من سرد للأحداث المؤلمة التي مرت به:

ـ طلب ممثلو الادعاء من قاضية المحكمة الجزائية الأمريكية توقيع أقصى عقوبات السجن علينا بموجب بند "تغليظ عقوبة الإرهاب" لكن المحكمة العليا الأمريكية طعنت بقرار سجن شخص دون توجيه اتهام واضح إليه. إثر ذلك وجهت الحكومة الأمريكية لنا اتهاما بدعم الإرهاب في نيويورك وتم اتهام بعض المعتقلين معي بالتآمر في عمليات تفجير وقد ورطهم شخصان يشتبه بأنهما من تنظيم القاعدة وهما محتجزان في "غوانتانامو" أما بخصوص محاكمتي فقد طلب المحامون من الادعاء توفير الأدلة الدامغة على إدانتي في تهمة دعم الإرهاب في نيويورك وبعد جلسات كثيرة أفرجوا عني بكفالة وفرها أصدقاء لي من تونس والمغرب العربي مقيمين هنا بنيويورك.

ما إن نطق آدم بالعبارة الأخيرة حتى وجد سارة تأخذه بحضنها وهي تردد:

ـ حبيبي ! كم قاسيت من أهوال وكدت تفقد حريتك كل ذلك دون أن أعرف ودون أن أقدم لك المساعدة ! الأوغاد لقد أوشكوا أن يدمروا حياتنا إنهم هم الإرهابيون هل تعرف ما فعلوا بي؟

ـ تقصدين ضباط المخابرات؟ هل اتصلوا بك؟

ـ نعم اتصلوا بي منذ فترة طويلة قبل أن يتم تعارفنا في ميامي. زاروني هنا بعد أيام من ظهورنا معا في الصورة التي جمعتنا وطلبوا مني أن أربط معك علاقة لأتجسس عليك.

جحظت عينا آدم من أثر الدهشة وقال:
ـ أ حصل هذا حقا؟ لم أخفيته عني؟
ـ انتظر قليلا حتى تسمع الحكاية كلها ولا تتعجل فلقد تعاملت مع الضابطين ببرود و أبديت تبرما مما يطلبانه مني لكن تلك الوكالة كانت لي بالمرصاد وتعقبتني في ميامي وتمكنت من تسجيل فلما يضم ما حدث بيننا في تلك الليلة واستخدماه في تهديدي عندما عدنا إلى نيويورك. هل تذكر الرسالة التي تلقيتها عندما كنت بالمطعم لقد كانت منهم وطلبوا مني أن أسألك عن نشاطك السياسي وأذعنت وكان هذا خطئي الشنيع في حقك والذي وشكت أن تفقد حريتك إلى الأبد بسببه.
قالت ذلك ثم انخرطت في البكاء فضمها آدم ومسح دموعها بيديه وقال:
ـ لم يكن الذنب ذنبك يا سارة. إنهم يتعقبونني منذ مدة أضيفي إلى أنك كنت تحت التهديد.
انتظر قليلا حتى ركنت للهدوء مجددا ثم قال:
ـ الأوغاد هل يجرؤون على هتك أعراض الناس؟ لا غرابة أن تلجأ المخابرات الأمريكية إلى هذه الأساليب الرخيصة فهي تنتمي إلى دولة بارعة في صنع الأكاذيب وتلفيق التهم ليس للأفراد فقط ولكن للشعوب أيضا وللدول.
قال مجددا فيما كانت البنت صامتة وقد أحست بكبر غلطتها:
ـ لا تحملي نفسك أكثر من طاقتها يا سارة فما حصل لي كان واقعا حتى إن لم تسأليني ذلك السؤال.
قالت سارة بصوت منخفض كسير لقد هددوني ببيع الفلم لقناة إباحية وهددوني بأن يعلنوا أني لقيطة لأني سوداء بخلاف والدَي.
ـ انسي الأمر يا سارة الآن وتذكري أننا معا ولن نفترق أبدا وتذكري أيضا أنهم برغم كل ما فعلوا لم ينجحوا في تفريقنا عن بعضنا البعض فأنت قدري وأنا قدرك.

أخلد الاثنان لبرهة من الصمت وبدأت سارة تشعر بالارتياح إثر ما أبداه آدم من تسامح إزاء ما بدر منها في ذلك اليوم بالمطعم الصيني.
سألها ليخرجها من حالة التأثر التي كانت بها: ـ خبريني عن رحلتك إلى لبنان؟ هل كانت ضمن برنامج الأمم المتحدة للسلام؟
ـ لا لم تكن كذلك إنها مبادرة شخصية فبعد اختفائك بدأت أقوم بزيارات للمعاهد الثانوية الواقعة بأحياء فقيرة واتصلت بالطلبة واكتشفت عدة حقائق مثيرة عن أمريكا، كان ذلك بواسطة التحاور مع الطلبة وأيضا عن طريق البحث فقد تحرك الفضول بداخلي لمعرفة هذا البلد الذي أواني على حد عبارة أحد رجال المخابرات بعد ذلك زارني الضابطان هنا في منزلي وأخبروني أنك سافرت مع ناتالي لوي دافييد إلى فرنسا وتفوها بكلام جارح منه أنني لقيطة وأن زواجك مني أمر لا يشرفك ومنه أنك اخترت الفتاة الجميلة الشقراء وتسليت بي وطبعا جعلاني بطرقهما أصدق كل ادعاءاتهما. لا أنكر أني غضبت في البداية لكن ذلك لم يؤثر على حبي الشديد لك فسامحتك بداخلي وصغت لنفسي نهجا جديدا يتمثل في المحبة الخالصة وكنت أسميه أيضا الطريق إلى الله وشرعت أعمل على تطبيق هذا النهج ولم أسع لشرحه لأحد من الناس أو الصحافيين وانخرطت في مجموعة من الأعمال منها كانت المساهمة في عمليات الإنقاذ بلبنان وعدت من هناك عاقدة العزم على المضي فيما بدأته أنت وهو محاربة أمريكا.
أخذ آدم يضم سارة إليه وهو يقول:
ـ كنت أعلم أن بداخلك ملاك جميل ومحب لكل البشر أنت شفافة يا سارة ومضيئة جدا. النور الذي يشع من داخلك يكاد يبهر الأبصار. هل عرفت الآن أنك أجمل امرأة بالعالم؟ هل عرفت أن جوهرك مشرق كنور الصبح؟
انفرج ثغر سارة عن ابتسامة كبيرة وقالت:

ـ أ هكذا يكون الغزل من رجل مختص في فن الإضاءة !
قضى آدم وسارة عدة أيام بنيويورك، كانا فيها يتنفسان العشق نسيما جذلان. وخرجا سويا إلى عدة أماكن خاصة وعامة ومنتزهات، وارتادا عدة مطاعم غربية وأخرى شرقية و استقبلت الفتاة الحياة بقلب ريان راقص على همسات حبيبها الأول والوحيد وظهرت في الأماكن العامة والنزُل وتوهج الحب في قلبها وأوقد شعلة متوقدة حياة وشبابا وانطلاقا فارتدت الفساتين الأنيقة وتجملت وتعطرت ورقصت مع حبيبها ونفضت عنها آخر ذرّات البؤس العالقة بنفسها. وتحولت مشاعرها إلى ترانيم تشدو بها كلما اضطرم الحب بقلبها، فبعث لحن آخر للوجود، لحن ارتجلته مرة بحضرة آدم فطلب منها وقد أعجبه أن تحوله إلى أغنية:

حين أكون معك
ينتشر في كل مكان
الربيع
وينأى الشتاء عن المطر
و عن الصقيع
وتتعطر الأرض بعبق الأحلام
وتغتسل اللحظات
في شذى الزهر
حين أكون معك
يرقص القلب فرحا
وتشرق أيامي
وتجف من مآقيّ العبَر
حين أكون معك
يشتعل الحب في ليالي السهر
وتضيء بقلبي الأشواق
نظما من الدرر

حين أكون معك
أجزم أنك
أنت القدر !

أخذت الصحافة في تلك الأثناء تكتب عنها وعن العلاقة القديمة التي ستتكلل بالزواج لكن ذلك لم يزعجها فقد كانت بدورها مقتنعة أن ما جمعها به ذات يوم في ميامي لم يكن وليد لحظته فحبه مخزن بقلبها منذ وقت طويل وربما منذ مجيئها إلى هذا الوجود وقد يكون محفورا بنواه خلاياها الحية منذ لحظة خلقها كما حُفرت بها خصائصها الوراثية المتضمنة للونها الداكن، نعم هو ذاك، حبها له الذي خُلق بداخلها منذ البدء وستظل ما حيت محبة له وعاشقة، وستظل متيمة به ما لازمها لونها الغامق.
وفي غمرة فرحها رفضت السفر إلى أوروبا لإحياء حفل ب"ستوكهولم" وكادت شركة الإنتاج تقدمها للقضاء لولا أنها اتفقت معها وديا على إلغاء العقد الاحتكاري وقدمت لها تعويضا ماليا كبيرا بعد أن باعت منزلها الغريب في منهاتن وقد قررت أن تتزوج من آدم وتعود أدراجها إلى أرض الوطن وكانت في الماضي قد أحجمت عن العودة إلى تونس وها أن الحتمية الطبيعية تزَيّن لها أخيرا تلك العودة بل تدعوها لإقامة أسرة ولتشكل نقطة ترابط بين جيلين هما جيلها والجيل الذي سيتفصد منها وبين عائلتين هما عائلتها وعائلة زوجها.
شيء ما كالسحر جعلها تسلم أخيرا بمشيئة الحتمية الطبيعية أو أنه قد جعلها تستسلم لها راضية بل سعيدة، راضية بارتباط اسمها باسم آدم عياشي، هذا الارتباط الذي جعلها تحمل رسالة وتلزم نفسها بها. إنها رسالة الامتداد الطبيعي، إذ هي ستتشكل امتدادا له ولنسله وبالتالي لتاريخه، وهي رسالة تلزمها بالتواجد في وطنها لا كبنت منبوذة وحيدة بل إنها ستتواجد هذه المرة كسيدة لها وجود قائم الذات وكعنصر مكمل لذلك الوطن لأن

أبناءها سيكونون ضمن عناصر عماره و سيساهمون في صنع مستقبله.
ظل أنطون ومارتا مقيمين بالشقة التي تسوغتها سارة أثناء فترة دراستها بنيويورك بينما استقل الزوجان السعيدان والأم الهانئة من مطار "كينيدي أنترناشيونال" طائرة محلقة نحو فرنسا التي منها سيطيرون إلى تونس.
أحست البنت التي ودعت ديار الغربة بخفقان شديد في قلبها وبسعادة لا توصف وهي تعود أخيرا إلى وطنها الذي تحققت أنها في بعدها عنه كانت تائهة بلا جذور ولا أصل ولا قرار ولا تاريخ وها هي الآن ستطأ بقدميها أرضه الدافئة والمرحبة وترى الخطأ في جفائها له، إنه الأم الرؤوم المستعدة دوما للصفح والعفو ولتقديم الحنان والحب حتى ولو كان ذلك في مقابل الهجران والنفور.
لم تكن سفرتها إلى تونس في إطار جولة فنية وهي التي هجرتها من سنين كما رفضت أن تقيم حفلات بها ومع ذلك فقد زادت أفواج المستقبلين لها والمرحبين بها في مطار "تونس - قرطاج" عن الحد المعقول ورأت أنها أكثر بكثير مما تستحق وقد حاولت ذات يوم فصل نفسها عن هذا الوطن الحبيب وها هو رغم ذلك يطوقها بذراعين مرحبين ويحيطها بدفق من الحب والحنان. مؤكد أن ما تحسه الآن هو تأثيرات تلك العلاقة الجدلية التي تقوم بين المرء ووطنه و بين الأم و ولدها وبين الأرض والنبات وبين الكل والجزء، فالجزء ناقص وفقير ومعوز في معزل عن الكل والكل يحتاج إلى جميع أجزائه ليكتمل.
إنها ترى الآن أن الحياة بكل أبعادها جميلة وتستحق أن نحياها بكل تفاصيلها فما أجمل الحب ! وما أجمل الحنين إلى الأوطان ! وما أروع علاقة الوالدين بالأبناء ! أما آدم ! فقد تيقنت من المكانة الجليلة التي يتبوؤها بحياتها فهو الذي أيقظ أنوثتها و وطنيتها وظلل علاقتها بوالديها بظلال من الحنان

وأعادها إليهما بعد سنوات من الغربة والتيه بل هو الذي أوحى لها بمبادئ فلسفتها الوجودية بأن الإنسان سائر في طريقه إلى الله. كم تحب هذا الرجل ! هذا الرجل القوي برقة حنانه، الشامخ بحبه لوطنه. أحست في مرات كثيرة أن حبه لها يندمج مع حبه لوطنه وأصله وقد ذكر أمامها في مناسبات عديدة أنه يعشق سحر الشرق بعينيها وتعدى شعوره إليها فهو الآن حبيبها ووطنها وهويتها وكل حياتها إنه أسطورة حياتها وما مضى من تاريخها وما سيأتي .

خيَّر آدم عدم إخبار والده بأمر زواجه وقرر أن يفاجئه بذلك ليسعده بأمرين حاصلين، هما زواجه وعودته النهائية لأرض الوطن. أما رمسيس فقد سرَّه النبأ كثيرا لكنه بحكم تربيته الشرقية تمنى لو تمت أحداث الزفاف بتونس ولو تحققت بها المراسم التقليدية من تعارف للعائلتين المتصاهرين وخطبة وحفل زفاف بيد أنه تقبل الوضع وقد عودته ابنته بتصرفاتها الشاذة وتمنى في سره أن يشكل ارتباطها بالشاب نقطة تحول بحياتها حتى تعود لممارسة المألوف من الأعمال وتبتعد عن الشاذ والغريب منها.

التقى الرجل ابنته وصهره وزوجته بمطار "تونس قرطاج" أين كان يترقبهم. أحس بالحرج وهو يضع يده بيد آدم مسلما عليه بصفة المصاهرة، كان سلام بين صهرين يجهلان بعضهما البعض. ارتبك الرجلان وانتابت توفيق كآبة مفاجئة لمحتها كلثوم فحاولت أن تسعف الموقف نحو الانفراج. أخذت تتحدث محاولة أن تولّد حوارا بين الرجلين، وقد نجحت في ذلك إذ لم تمض غير دقائق حتى صار آدم يتحدث إلى توفيق بلباقة جعلت الأخير يرتاح إليه وحاول الشاب بدوره أن يتفادى الحرج فقال:

ـ أرى أن ترافقي والديك يا سارة وأن تقضي معهما بعض الوقت وبعد ذلك سنحدد الخطوات القادمة.

وأضاف موجها القول إلى توفيق:

ـ وإذا كان "سي توفيق" يرى ضرورة في إقامة حفل زفاف بأحد النزل أو القاعات أو ببيته فله ذلك وسنتفق على الإجراءات اللازمة.

عند ذلك تدخلت سارة قائلة بجرأة أذهلت الجميع:

ـ ولكن لمَ نزيف الحقائق؟ ألسنا الآن زوج وزوجة؟ سأرافقك الساعة إلى بيتك وبعد ذلك سيكون لي شأن في زيارة أهلي.

وكان لسارة ما أرادت فأوصلها أبوها مع زوجها إلى بيت والده الذي وجدته كما قد وصفه لها آدم فيلا كبيرة متكونة من طابقين

تتوسط حديقة جميلة ويقع على شارع رئيسي بضاحية المرسى. دخلا البيت وقد كان الوقت عصرا فوجداه ساكنا صامتا عند ذلك توجه آدم إلى غرفة مكتب والده فسلم عليه ومكث إلى جانبه يحادثه بينما تخلفت سارة بالصالون تنتظر ملاقاة حماها الذي لم تره بحياتها، كانت متلهفة لرؤيته وقد حدثها آدم عن خفة روحه وتفكيره المتحرر.

جلس آدم على كرسي خشبي قبالة والده وشرع يحدثه عن المرأة التي أحبها وأحس أن حياته بدونها ستكون قفرا.

قال:

ـ إنها سارة، ألم تسمع عنها؟ شهرتها بأمريكا واسعة وقد تناهت أصداؤها إلى هنا منذ زمن وهي من عائلة "المقدم" العريقة، إنها ابنة "توفيق المقدم" ابن"عبد المجيد القدم" .

سمع حافظ اسم الرجل يلفظه ابنه فتقلصت عضلات وجهه الصغير وأرسل نظرة صلبة حادة إلى وحيده الذي عجز عن فهم معناها.

أطرق الكهل للحظات من الصمت نظر خلالها إلى أوراق متناثرة على مكتبه ثم قال:

ـ لماذا لم تخبرني بما عزمت عليه؟ ألم يكن من الأفضل أن تتريث قليلا؟ كيف تعجل في مثل هذه الأمور؟

ردَّ آدم وقد احمرّ وجهه واعتراه بعض الارتباك:

ـ لم أحسب أن الأمر سيزعجك بل على العكس ظننت زواجي يسعدك خاصة أنه ترافق مع عودتي النهائية من أمريكا.

قال توفيق وقد حرّك حاجبيه معبرا عن استيائه:

ـ المصاهرة تقتضي دوما بعض التفكير.

فقال آدم:

ـ لكن والدها رجل معروف وهو رجل طيب وأمها كذلك امرأة من أصل طيب وقد تلقى والدها مفاجأة بزواجها مثلك تماما والاختلاف الوحيد هو أنه علم بالأمر منذ مدة من زوجته "كلثوم بن زكري" التي كانت تزور ابنتها في فترة زواجنا.

سكت حافظ ومطّ شفتيه وأرسل نظرات ساهمة وضجرة إلى فضاء المكتب.
خاطبه آدم بلهجة مازحة وراجية في ذات الوقت:
ـ دكتور حافظ ! هيا لتستقبل كنتك وستكتشف بنفسك لطفها وستعرف أنها فنانة رقيقة وشفافة الوجدان.
صمت للحظة ثم أضاف:
ـ تصوّر أبي أنها عاشت لمدة تقارب العشر سنوات بمفردها في أمريكا دون أن تقيم أية علاقة مع أي أحد من الرجال كما لو لم تفارق يوما حضن والديها بل إنها تحلت بعفة تفتقدها الكثيرات ممن لم يفارقن بيوت أهاليهن زيادة على أنها قامت بأعمال جليلة تحسب لها، لقد شاركت في عمليات الإنقاذ في لبنان.
استسلم توفيق على مضض لرغبة ابنه وقام لاستقبال المرأة المنتظرة وحاول أن يرسم البسمة على شفاهه لكن فكره الرّافض للوضع غلبه فكان استقباله لها فاترا لا ينم عن أي فرح بمقدمها وصعدت الأخيرة مع زوجها إلى غرفته بالطابق الأول طلبا للراحة من عناء السفر وقد حاول آدم أن يمسح الأثر السيئ الذي خلفه استقبال والده الفاتر بنفسها فأخبرها أن المفاجأة قد أذهلت والده لكنه سرعان ما سيأنس إليها وسيظهر لها مرحه وطيبة قلبه خاصة أنه رجل عملي و عقلاني.

تأهبت سارة لخوض حياة جديدة يطغى عليها الطابع الاجتماعي وودعت نهائيا أيام الوحدة والحرية المطلقة. إنها الآن برفقة زوجها التونسي ، تتشاور معه في كل القرارات وتحيى معه كل لحظات حياته، وله أب يشاركه المسكن وعليها أن تتواصل معه وأن تحافظ على علاقة من الاحترام بينها وبينه. لم تكن هذه المهام سهلة على امرأة قضت سنينا بالغربة وشكلت حياتها على هواها غير عابئة بالروابط الاجتماعية، لكن آدم استطاع أن يهون الأمر عليها بحبه الكبير الذي غمرها به والذي انصب عليها حنانا فياضا استطاع من خلاله أن يتفهم وضعها الخاص وأنها قد أنكرت في ما مضى من حياتها كل الروابط التقليدية التي تأسر الناس وأنه عليه أن يعيدها شيئا فشيئا إلى الحياة الاجتماعية بأن يكون لها بمثابة المؤطر، يدرّبها على الحياة الأسرية التي ابتعدت عنها لفترة حتى يتمكنا من بناء أسرة مترابطة ومتلاحمة و كانت الخطوة الأولى المتبعة لتيسير ذلك هي محاذاة الرقة واللين معها فتقبلت منه أمورا كثيرة كانت قد تشددت في رفضها في ما مضى فطلب منها بعد يومين من عودتها من أمريكا أن تبادر بزيارة أهلها وأقنعها أن ذلك من شأنه أن يدخل السعادة على قلبي والديها كما على قلبها فأذعنت لرغبته التي ما كانت في الحقيقة سوى رغبتها الدفينة بأعماقها وقد كشفها لأنه الوحيد الذي أمكن له الولوج إلى أغوار نفسها واستجلاء خباياها.

أوصلها في اليوم الثالث إلى بيت والدها وهناك كان لقاء حميم واستنشقت رائحة طفولتها في ذلك البيت الكبير بحي النصر وتجولت في حديقته التي ضمت أمانيها الصغيرة وأحلامها الوردية في سنين نشأتها واستلقت على سريرها بأحضان غرفتها واستعادت ذكريات ترانيمها ورقصات طفولتها وتفرست في رسومها التي تركتها بذلك المرسم الواقع بأعلى المنزل وعاودها حنين إلى أيام خلت من البراءة والصفاء وأحست بنشوة جميلة تنتابها وهي تتجول بذلك البيت الذي شهد

قرابة العقدين من عمرها وتيقنت أنها كانت شديدة الظمإ إلى الاغتراف من دفق الحنين في مملكة طفولتها، الحنين إلى وجه أمها الصافي المشرق وقد ازداد إشراقا بعد عودة الغائبة، الحنين إلى أب طيب لم يعارض يوما رغباتها ولم يحل أبدا بينها وبين مبتغاها، الحنين إلى كل شبر في ذلك البيت. وكم ظلمت نفسها حين ظنت طفولتها مرحلة عاتمة من حياتها ومغموسة بالسواد وأن الحنين إليها ليس سوى ضرب من ضروب تعذيب النفس ! إنها تعود الآن إلى مرتع صباها وتهزأ بكل آلامها السابقة بل أنها نسيت آلامها، الفرح الذي ولد بداخلها اليوم حجب عنها كل آلامها وأشجانها الماضية. و كان لهذه الزيارة فائدة أخرى تمثلت في توطد علاقة "توفيق المقدم" بصهره الشاب الذي أظهر حكمة بالغة ولباقة متميزة ومستوى ثقافيا عاليا ولم يعادل شيء سعادة الكهل بهذا الصهر المتميز سوى سعادة زوجته "كلثوم بن زكري" التي تألق البشر نورا على وجهها وقد بالغت في الحفاوة بالرجل الذي أعاد إليها البنت الشاردة.

قضت سارة يوما ببيت والديها ثم عادت برفقة زوجها إلى بيته وقد بدأت طباع المرأة الشرقية تكتسحها شيئا فشيئا فأولت زوجها اهتمامها الكامل وحاولت التقرب من حماها وقد أوعزت صمته المستمر ونظراته الزائغة إلى نزعته العقلية التي اشتهر بها وإلى نظرته الفلسفية المتفردة للحياة.

أما فيما يخص حياتها الفنية فما كادت تمضي بضعة أيام بتونس حتى انهالت عليها العروض من المتعهدين لإحياء حفلات واتصلت بها وزارة الثقافة لتدرجها بأعلى قائمة المطربين الذين سيقومون بحفلات رسمية لفائدة تظاهرات رياضية وثقافية واتصلت بها أيضا عدة محطات تلفزية وإذاعية تونسية و"مغاربية" وعربية لتستضيفها ضمن برامج مباشرة. لكن سارة وافقت على إحياء حفل بقبة المنزه بالعاصمة التونسية ورفضت باقي العروض وتشددت في

رفض الدعوات من قبل وسائل الإعلام إذ كرهت الجلوس بمحل مساءلة كما لو كانت بحضرة محقق وقد خمنت أن يتطرق مضيفوها إلى سبب ابتعادها كل السنين المنقضية عن موطنها وإلى سبب عودتها إليه المفاجئة وتوقعت أن يؤدي ذلك إلى الحديث عن زواجها وقد رأت أن الخلط بين حياة الفنان الخاصة ومسيرته الفنية ضرب من ضروب التجني على الفن الذي ينبع من النفس والذي يعبر بذاته في معزل عن كل الأحداث وحتى إن تأثر الفنان بظرف شخصي معين فليس من حق أحد أن يتدخل بحياته إنما الحق الوحيد الذي يملكه هو ذلك العمل المقدم، يملكه كمستمع أو كمشاهد فحسب. ولعلها كرهت أن تصطدم حال عودتها بفضول الشرقيين الذي كرهته كما كرهت أن تسأل عن خطواتها السابقة كعملها التطوعي في لبنان والذي تعتبره خطوة مقدسة نحو الله وترفض أن تتحول إلى محل جدل ونقاش أو أن يوظفها البعض لمدحها أو اعتبارها منطلقا لهجاء غيرها من الفنانين فهي أشد الناس إيمانا بأن خطوات البشر المتبعة تمليها نبضات الوجدان، فكيفما عزف الوجدان والفكر كيفما كان السلوك.

أما آدم فقد انضم لشركة "نورأفريكا" للإنتاج الإعلامي ليعمل في فن الإضاءة الذي أحبه وعشقه. استلم عمله بمقر الشركة الكائنة بـ"أريانة" فكان يقصدها صباحا على الساعة الثامنة ثم يعود على الساعة الثانية عشر بعد الزوال إلى البيت ليستعيد العمل مجددا على الساعة الثالثة بعد الزوال وكان في الأيام الاستثنائية التي ينشغل بها مع فريقه في تجهيز الإنارة اللازمة لبعض النزل والفضاءات الإعلامية يتأخر مساء خارج البيت أما في بقية الأيام فهو يعود مبكرا من شغله وأحيانا يعفى من إحدى الحصتين إذا كانت الشركة خالية من الالتزامات.

كان لآدم نظرة استثنائية للوجود وللأشياء من حوله، نظرة شفافة لفنان يعشق الجمال ويرى بعينيه ما لا يراه الآخرون وقد أثرت هذه الميزة على حياته الشخصية فتمخضت عن حبه

لسارة، هذه الفتاة الغامقة البشرة التي أمضت جانبا كبيرا من حياتها في أحضان الغرب، لقد رأى فيها جمالا استشفه بعيني مبدع يرى الأشياء من زاوية خاصة و وجد في لونها البرونزي قيمة ضوئية مكثفة عكست تضادّا مع نور الشمس ومع نور الصباح كما مع الأنوار العالية المسلطة عليها في "كليباتها" المصورة أو خلال حفلاتها، فعشقها وأحبها وسهّل له هذا العشق الظاهري الولوج إلى داخلها الشفاف فكان الإعجاب بالظاهر طريقا إلى الإعجاب بالجوهر. وجذبه الوجه الأسمر ذو العينين السّوداوين المضيئين بنور الرّوح المكتملة الجمال السامية نحو العلو إلى الغرق في لجة العشق والهوى، واعتبر زواجه من هذه المرأة الأسطورية الأعماق ـ التي عكست روحها الآسرة توهجا على مظهرها الاستثنائي المفعم بسحر الشرق ـ اعتبره معجزة حياته التي سيسعد بها طول العمر.

اختارت سارة أبسط الحلول للاستعداد لحفلها الذي ستقيمه في "قبة المنزه" وسط العاصمة التونسية وهو أن تتزين بالبيت فقد رأت دوما أن الجمال يكتمل عندما تسعد الرّوح وتنتشي، ففردت شعرها بحيث انسدل على جانبي وجهها وكتفيها بلونه البني المتميز وأرسلت قصة غطت جبينها، ثم زينت وجهها ببعض الألوان الحارة التي تحبذها وارتدت فستانا من الفساتين التي لبستها ذات ليلة أثناء خروجها مع آدم في نيويورك للسهر فقد شكلت تلك الفساتين رموزا غالية عليها لفرحها الوليد.
اختارت فستانا بسيطا أصفر اللون كشف ذراعيها ورقبتها وجزءا من صدرها كما من ظهرها وقد كانت تقاطيعه السفلية على شكل مثلثات تنطلق من وسطه الضّيق وهي ذات طبقات عديدة متهدلة كشفت أجزاء من سيقانها الجميلة السمراء وانتعلت حذاء جلديا اصفر اللون ذا كعب عال. ورغم أنها لم تستعمل حليا فقد بدت جميلة وزاد إشراق الفرح على وجهها من جمالها المتفرد.
أوصلها آدم إلى المسرح فولجت الكواليس وظلت تنتظر ساعة الإطلال على الناس، ولم تحس بأية رهبة لكونها ستغني لأول مرة أمام تونسيين وعلى العكس تماما فقد أحست بفرح غامر وباستعداد كامل لذلك اللقاء، وتعقبها صحافيون كثر في لحظات الانتظار وسألوها عن شعورها قبل بدء الحفل الذي شكل حدثا إعلاميا كبيرا وتناقلت أخباره عدة محطات فضائية وعدة صحف ومجلات محلية وعربية وأجنبية بل إنه مثّل أكبر حدث ثقافي تونسي في ذلك الأسبوع وأطلق بعضهم عليه اسم "حفل العودة". غنت سارة أمام جموع غفيرة من التونسيين ومن "المغاربة" ولم تخل القاعة من فرنسيين وألمان وسياح من أجناس مختلفة جاؤوا لمتابعة حفل الفنانة العالمية التي طربت نفسها فسرى طربها ونجواها من روحها النشوانة إلى أرواح كل الحاضرين وهللت الجموع لها وعبّر المراهقون والشبان والشابات عن فرحهم وإعجابهم بصرخات متتالية

يسمع خلالها اسمها، وتفاعلوا مع الألحان فتمايلوا بأجسادهم شابكي الأيادي وأشعلت سارة الركح المقام بوسط "قبة المنزه" رقصا وحركات جميلة متناسقة مع الأنغام وأدّت جل أغانيها كأجمل ما يكون الأداء وانطلقت تشدو بصوت صادح قوي متناقض مع صوتها الهادئ حين تتكلم ورأت نفسها في غمرة الطرب والنشوة تسير في طريق مضاء بنور الجمال نحو الله وذكّرها حضور المراهقين بحفلها بأولئك الشبان الذين كانت تزورهم بالمعاهد الثانوية بأحياء نيويورك الفقيرة فعاودها حنين إلى تلك الأيام أيقظ فيها مشاعر متداخلة من الحب، حب آدم وحب الله وحب الفن وحب الناس وحب النشء الذين تتجلى بوجدانهم بذور الخير واستبد بها الشعور حتى خالت نفسها تحلق بأجواء السرمد وغابت عن الوجود الواعي واستسلمت للحظات تصوف أشرقت معها روحها التي ما عادت تدرك العناصر التي تشغل الركح والقاعة بما فيها الفرقة الراقصة التي رافقتها و الكشافات الضوئية التي شطحت مع الألحان الصاخبة و الجذاذات والأشرطة اللمّاعة التي تناثرت هنا وهناك فزادت من سحر العرض والشاشة العملاقة التي ما فتئت تضيء عارضة صورا ومشاهد تلائم مع سحر الألحان تؤجج حرارة الأجواء.

سعد الجمهور الحاضر وكانت ليلة لا تنسى من إبداع مزج بين سحر الشرق وثورة الغرب وغادرت سارة بعد أن أدّت أغنيتها الجديدة "أنت القدر"، وتركت المسرح متقدا هتافا وصراخا ثم توجهت مع زوجها إلى بيت والده مفعمة بنشوة المجد وقد أشرقت روحها و توهج وجهها وصدرها بحرارة الانعتاق التي تولدت عن إفراغ شحنة مخزنة من رحيق النفس المتفرّدة. كانت منتشية وسعيدة بالمصالحة التي تمت على خير ما يرام بينها وبين مواطنيها.

وصل الزوجان إلى البيت في وقت متأخر، ولما اجتازا البهو الرئيسي لمحا ضوءا خافتا صادرا من غرفة مكتب "الدكتور

حافظ العياشي"، التحق آدم بوالده ليحدثه عن الحفل الذي لم يرغب بحضوره فألفاه غارقا في هدوئه المعتاد و قد ركز نظره على شاشة حاسوبه المحمول، تنحنح الشاب كما لو كان يعلن وجوده بينما ظلت سارة واقفة بالبهو تتابع المشهد الغريب وقد أذهلها الصمت المطبق الذي يجابهها به هذا الرجل كلما لاقاها.

شرع آدم يسرد على مسامع والده أطوار الحفل و يصف له حسن تنظيمه وحسن أداء سارة لكن الأخير أبدى لا مبالاة غريبة بل أنه تجاهله تجاهلا تاما فنهض آدم من محله وقد تيقن من أن والده لا يريد سماع شيء عن الزوجة الغير مرغوب بها.

صعد آدم إلى غرفته ملتحقا بسارة التي بادرته قائلة وقد استبدّ بها الاستغراب:

- لمَ يعاملني والدك بجفاء رهيب؟

- هو كذلك يا سارة وهو سعيد بزواجي منك لكنه هذه الأيام مشغول الفكر بكتاب قام بنشره قبل مجيئنا من أمريكا بأيام ويبدو أنه قد لقي معارضة من الأوساط العلمية في مجال عمله فلا تنزعجي حينما ترينه صامتا فقد تكون ردة الفعل المناهضة أثرت به.

تفهمت سارة الأمر وحاولت أن تتناسى ذلك الجفاء من أجل سعادة آدم.

اهتمت وسائل الإعلام التونسية في الأسبوع الذي تلا عودة سارة بثلاثة أحداث هامة، كان الحدث الأول سياسيا ويخص الانفجار الذي هزّ أحد النزل السياحية بجزيرة جربة والذي أودى بحياة العديد من الأشخاص وكان بينهم شخصيات سياسية أجنبية معروفة على الصعيد العالمي و بعض السيّاح الأوروبيين وعملة تونسيون.

وقد أثار الحدث الجلل ردود فعل مستنكرة وقد رافقت إذاعة الخبر مشاهد تبرز الانهيارات الحاصلة بمبنى النزل وعمليات الإنقاذ الجارية وكان أحد المراسلين الصحفيين واقفا بجوار المبنى الذي تهدم جزء كبير منه و علق على الحادث ثم سأل بعض الأشخاص الذين كانوا حاضرين عن التفاصيل وأفادت رواياتهم أن شخصا كان يقود سيارة "ميسو بيتشي" فخمة بسرعة جنونية ثم اخترق الحاجز الحديدي للبوابة الرئيسية فارتطمت بالبناء الداخلي للنزل وأحدثت انفجارا هائلا خلف نيرانا متأججة ودخانا أسود كثيفا وقد كان السائق ملثم الرأس فلم يتمكن أحد من ذكر أوصافه وقد تحول جسده بعد الحادث إلى أشلاء محترقة.

أفادت الشكوك الأولية للمحققين أن الانفجار من تدبير أحد التنظيمات الأصولية التي تنشط في الخفاء.

أما الحدث الثاني فقد كان ثقافيا وتمثل في الحفل الكبير الذي أحيته سارة، "حفل العودة" كما عبرت عنه بعض الصحف وقد كان حفلا ناجحا من مختلف الجوانب، فالأداء كان متميزا وعكس المستوى الراقي الذي تتمتع به حنجرة الفنانة السمراء وقد تجلى نجاح الحفل أيضا في تمام الاستعداد التقني وجمال البهرج الركحي الموظَّف وروعة الحركات الراقصة التي أدّتها فرقة الباليه التي رافقت سارة أثناء أدائها لبعض أغانيها وزاد من جمال الحفل حسنُ اختيار المشاهد المعروضة على شاشة المسرح العملاقة إذ أُقتبس أغلبها من فيديو أغانيها المصورة بأمريكا. كان من الطبيعي أن تكتب كل الأقلام عن ذلك الحفل

وأن تمتدحه، فدُرَّتُه المضيئة بل أميرته المُتَوَّجة فنانة عالمية واسعة الشهرة، أثبتت قدراتها الفنية خارج بلدها وفرضت وجودها بالساحة العالمية وصارت نجمة الملايين.
وكان الحدث الثالث الذي تناولته بعض المجلات العلمية بالنقد والدراسة الأقل إشعاعا بين الثلاثة وقد اهتمت به الأوساط العلمية و شغل تحديدا الوسط الطبي وتَلَخَّص في صدور كتاب علمي أحدث ضجة إذ أطلق صاحبه فيه العنان لأفكاره الشاذة وأسَّسَ فيه لسلوك طبي جديد اعتبره البعض ثوريا.

مضت الحياة هانئة جميلة باكتمال مشهد الحب والنجاح بين شابين مبدعين. وكان يوم جديد استقبل فيه آدم الصبح بنشاط متقد بعد أن تمَلَّى من ضوئه الفاتن الإلهي. انطلق بسيارته "البولو" مغادرا بيته بالمرسى نحو مقر عمله بـ "أريانة" وبالطريق خطر له أن يعرج على إحدى المكتبات الكبيرة لابتياع الكتاب الذي ألفه والده و كان بنفسه الهانئة بعض الحزن من موقف الأخير من سارة حتى أنه تناسى أن يقدم له نسخة من الكتاب كأنما ليشعره باستيائه من زواجه المفاجئ.

اقتنى الشاب الكتاب ورأى فيه هدية جميلة وقيمة لزوجته التي تقدس الفن والإبداع وهو ما قد يسهل عليها الإطلاع عن كثب على شخصية والده ذات النزعة العقلية والنظرة العملية للأمور ولمجمل ميادين الحياة. قرأ العنوان، فاندهش للوهلة الأولى أن يقع اختيار والده عليه لأنه يوحي بمحتوى شعري ثم ما لبث أن زال استغرابه إذ عهد فيه نظرة متفردة للأمور وإذ تأكد من خلال معرفته به من وجود صلة وثيقة بين ذلك العنوان الغريب وبين مضمون الكتاب وازداد إذَّاك رغبة في قراءته وأعجبته صورة الغلاف التي تضمنت وجها طفوليا جميلا متطلعا نحو أفق مضيء بنور ساطع.

ترك الكتاب بالسيارة و ترجل منها قاصدا مبنى شركته. أتم الحصة الصباحية فقفل راجعا إلى البيت يحدوه شوقه المعتاد لملاقاة سارة. وجدها تساعد الخادمة في إعداد السفرة، راقه المشهد وقد علم أنها كانت تعتمد اعتمادا كليا على مارتا وأنطون في شِؤون البيت. حياها بابتسامة شعت من عينيه واضعا مابين يديه على منضدة ببهو البيت فسارعت الأخيرة تنقل الأشياء إلى غرفة مكتبه الواقعة بالطابق الأول. تألقت ضحكة جميلة على وجهها وهي تقول:

ـ الفنان هو من يقدر جمال الكون و لا يفسده بتشويش نظامه.

بدت النجمة العائدة في غاية السعادة والهدوء، هدوء ناعم خيم على سحنتها وألهمها رقة بالغة في التعامل مع من حولها،

وكيف لا تسعد وقد ألفت نفسها أخيرا في جنة النعيم و الحب الظليل مع هذا الحبيب المتفرّد؟ واندمجت في الحياة الاجتماعية وقد تكللت سعادتها بأمر آخر سيضفي البهجة والسرور على قلبها كما على قلب آدم وحتى على قلب "الدكتور حافظ" الذي لن يطول جفاؤه لها إذ يعلم الخبر وهو خبر تنتظره كل امرأة تحلم بالتوحد النهائي مع حبيبها، فلقد تكلل حبها لآدم بثمرة جميلة زكية تستنشق أريجها المنتشر حولها نسيما من الأمل والجمال والإشراق، إنه الحمل ! تأكدت من ذلك عن طريق التحليل الذي أجرته صبحا بالمخبر. وكم كانت فرحة والدتها عظيمة حينما عرّجت عليها تزفها الخبر فرأت دموعها الغزيرة تغلبها ورأتها تستسلم في دعة لبكاء الفرح وشهقاته. وعادت بعد لحظات من الفرح العارم أمضتها معها إلى المنزل تنتظر آدم حتى تزف له الخبر.

أمسكت الكتاب ورفعته لتتأمله فلمحها زوجها فاقترب منها باسما وطوقها بذراعه ثم قال:

ـ إنه الكتاب الذي حدثتك عنه، إنه بإمضاء الدكتور "حافظ العياشي" !

ابتسمت سارة ومطت شفتيها قائلة:

ـ غريب هذا العنوان ! "صوت الحب" ! ألا ترى ذلك؟ هل هو ديوان شعر؟

ضحكت فضحك، ثم أردفت:

ـ أعجبني العنوان وأغراني بقراءة الكتيب، سأقرؤه اليوم.

علق آدم على قولها وهو يضغط على كتفيها بحركة لطيفة مُحبة:

ـ سأقرؤه حين تفرغين منه و إن شئت نطّلع عليه سويا.

حملت سارة الكتاب إلى غرفتها بالطابق العلوي بينما سأل آدم الخادمة عن والده فأخبرته أنه خرج لقضاء شأن عند ذلك جلس إلى المائدة بانتظار سارة التي لم تتأخر ثم تناولا غداءهما هانئين وفي الأثناء أخبرته بما طرأ عليها فتهلل بشرا ورجاها

أن تهتم بنفسها وبصحتها حتى يثبت الحمل. بعد ذلك صعد الاثنان غرفتهما للقيلولة ثم أخذا يتسليان بقراءة الكتاب وفيما هما كذلك غلب آدم النعاس فأخلد لبرهة من النوم ثم استيقظ على عجل فاغتسل ثم غادر مجددا إلى عمله.
ظلت سارة مستلقية على السرير تطالع الكتاب الذي شدها إذ احتوى على أحداث واقعية كما كشف لها عن جوانب خفية من شخصية حماها كقلبه الذي اختزن كتلة كبيرة من الرأفة والرحمة. وذكرها ذلك بما أخبرها به آدم عنه من كونه رجل طيب وحساس ووجدت تشابها كبيرا بين مبادئ فلسفتها الذاتية "الطريق إلى الله" وبين نزعة هذا الرجل الهادفة نحو الخير ونحو تمجيد الإنسان كما عرفت بعض الجوانب من شخصية حماتها "الدكتورة هندة بالعابد" وأعجبت بها وازدادت اقتناعا بنبل آدم الذي ينحدر من والدين آمنا بالعلم وقدساه كسبيل من سبل إفادة الإنسانية.
تشوق وجدان المرأة الشابة قبل فكرها لمعرفة المشروع الإنساني الذي طبقه " حافظ العياشي" لفائدة أولئك المحرومين من وجهة نظره واسترعى اهتمامها أن جل الأحداث التي ذكرها وقعت في الفترة التي تسبق ميلادها بسنتين أو ثلاث فتعلقت نفسها بتسلسل السرد في هذا الكتاب الفريد إذ يهتم الإنسان عادة مع المجريات التي تتزامن مع فترة ميلاده فهي تؤثث الإطار الذي انبعث فيه للوجود.
واصلت استقراء الواقع من خلال بنية سردية تتشابك فيها روح العلم مع ذاتية الأدب:
"بعد أن أعددت التخطيط وكل ما يلزمني لم يبق أمامي سوى أن أقوم بالتنفيذ. قصدت صبيحة أحد أيام الشتاء منذ ما يقارب الثمانية والعشرين سنة إلى مخبري بقسم علم الوراثة بمستشفى "سان أنطوان" الكائن بباريس، دلفت إلى غرفة تخزين الأمشاج الذكرية التي كانت تحفظ بأنابيب وتوضع بثلاجات خاصة وقد دون على كل عينة منها اسم صاحبها. توجهت نحو

الثلاجة رقم واحد والتي تضم أمشاجا ذكرية منشطة ومعدة لغرض الحقن بالإبر ذلك الذي يتم برحم المرأة ولا يتطلب استئصال بويضاتها إذ تكون عادة الأمشاج الذكرية في مثل هذه الحالات سليمة نسبيا ولا تشكو سوى بعض النقص الطفيف في سرعتها يتم التغلب عليه بواسطة التنشيط وهي لا تشكو تشوها في الشكل وتتمتع بمدة حياة عادية. أخذت أنبوبا من هذه الأنابيب فبدا لي اسم صاحبه: "وان أبابو" قد يكون اسما لرجل إفريقي، فهذا المركز يقصده الكثير من الأفارقة، فكرت أن أغير الأنبوب لكني عدلت عن الفكرة وقررت أن آخذ معه أنبوبين آخرين ففعلت، وعرفت من خلال الأسماء أن صاحبيهما فرنسيان. أخذت الأنابيب الثلاثة واحتفظت بها في ثلاجة صغيرة في مخبري معدة للحالات الخاصة. وكنت قبل ذلك الوقت قد جهزت البويضات المستأصلة من أرحام النساء الثلاثة: السيدة"ألف" زوجة السيد "ميم" والسيدة"هاء" زوجة السيد"عين" والسيدة "كاف" زوجة السيد "تاء"."

أحست سارة بخفقة غريبة تهز قلبها وبقشعريرة تعتريها ثم واصلت القراءة:

"أخذت البويضات الجاهزة المستأصلة من رحم السيدة "ألف" وجامعت بينها وبين أمشاج أحد الرجلين الفرنسيين،انتظرت ما سيؤول إليه الأمر، لقد تلقحت البويضات وصارت أجنة جاهزة، عبأتها بوعاء وكتبت عليه خاص بالسيد "ميم باء" و زوجته السيدة "ألف" ثم وضعتها بالثلاجة وعدت مجددا لمباشرة تلقيح بويضات السيدة "هاء" فقاربت ما بينها وبين الأمشاج الذكرية المنشطة للرجل الفرنسي الثاني وانتظرت بضع لحظات حتى صارت أجنة في أول مراحل الحياة فحفظتها بقنينة ودونت عليها خاص بالسيد "عين فاء " وزوجته "هاء".

بقي أمامي إذّاك أن أقوم بمقاربة بويضات السيدة "كاف" بأمشاج أحد الرجلين الفرنسيين وفيما كنت أستعد لذلك دخل

علي خلوتي الدكتور "فيليب مارسيي" وقد بدا عليه الانزعاج وأخبرني أن أنبوبين قد فقدا من الثلاجة رقم واحد بغرفة حفظ الأمشاج الذكرية وأن زوجتَيْ الرجلين منتظرتين بغرفتي العمليات حتى تجرى لهن عمليات التلقيح بواسطة الإبر فأخبرته مضطرا أنني قد أخذتهما لألاحظ مدى استجابة أمشاج الرجلين لعمليات التنشيط المسلطة عليها وقدمت له الأنبوبين.

وجه لي الرجل نظرة استياء واستغراب ثم انصرف وبقيت في حيرة من أمري. ماذا سأفعل مع بويضات السيدة "كاف" والتي ستلتحق اليوم بالمستشفى مع السيدتين الأخريين لتجرى لثلاثتهن عمليات زرع الأجنة الملقحة بأرحامهن والتي تكون عادة قد جهزت منذ يومين لكن بما أني قد طمحت إلى غاية لمست رفعتها وطابعها الإنساني فقد أخّرْتُ الأمر حتى تمكنت من الحصول على هذه الأمشاج الذكرية الأقوى خصوبة من أمشاج أزواجهن الذين حلت بهم علة العقم الكامل وكان في الحسبان أن نتّبع معهم طريقة معقدة تتمثل في استئصال حيوان منوي كامل النضج من الخصية يتم تنشيطه واستعماله في تلقيح بويضة المرأة لكنها ـ كما قلت ـ عملية معقدة لا تسفر أغلب الأحيان عن نجاح مؤمل. وفكرت في ذلك الحين أن أستعين بأمشاج الرجل الإفريقي "وان أبابو" لتلقيح بويضات السيدة "كاف" وقدّرت أن أولى المحاولات من هذا القبيل تمنى غالبا بالفشل فلن تنجب السيدة "كاف" زوجة السيد "تاء" طفلا أسود من أب إفريقي.

أخذت البويضات وجامعت بينها وبين أمشاج الإفريقي فتم التلقيح بنجاح وتحولت البويضات إلى أجنة صالحة للزرع فحفظتها بقنينة ودونت عليها "خاص ب"تاء ميم" و زوجته "كاف" وفي المساء حضرت النساء الثلاث بالمستشفى فأجريت لهن عمليات زرع الأجنة. "

شعرت سارة كما لو أن أحدا قد طعنها بخنجر مسموم وانتابها دوار عنيف أحست على إثره بثقل في رأسها وقد هالها ما قرأت وأخذت تتلفظ بكلمات متقطعة بصوت مرتفع:

" بويضات السيدة التونسية "كاف" مع أمشاج الإفريقي ...طفل أسود ! ...منذ ثمانية وعشرون سنة ! التونسية "كاف" زوجة التونسي "تاء" ! ... التونسي "تاء ميم" !

إنه أبي ! ...نعم إنه أبي و"كاف" هي أمي ! يا لَ الفظاعة لقد فعل الرجل بأمي هذا الجرم !... وأنا الطفل!...الطفل الإفريقي الأب ! ...لا أصدق ...هل يمكن؟

والد آدم الشخص الوحيد الذي أحببته والذي أدمجني بهذه الحياة، والده هو الذي فعل بي وبأمي وبأبي كل ذلك ! وأبي...ليس أبي !

إنه من جعلني أدفع ثمن جرم لم أقترفه وأهرب من حياتي ومن نفسي ! "

أخذت المرأة تصرخ، واشتد صراخها وهي تقول كأنما تولول:

ـ هذا كرب ...هذا بلاء... يجب أن أموت... يجب أن أختفي من كل الدنيا. يجب ان تنشق الأرض وتبتلعني .. أنا طفل أسود !...أمي !...لا بل والدي إفريقي ولست بنتا لأبي... وأمي التي ظننت يوما أنها خدعت والدي...لا... لا... لا"

وفجأة توقفت عن الصراخ كما لو أن صعقة أصابتها فانتفضت وتحركت داخل الغرفة بعصبية ثم فتحت خزانة ملابسها وتناولت حقيبة صغيرة أخرجت منها محفظة جلدية ونزلت السلم بأقصى سرعتها وفتحت باب المنزل وركضت في الحديقة نحو الباب الخارجي كأن شياطين تلاحقها ثمّ فتحته وانطلقت هاربة بعيدا.

اتخذ المنشط الشاب لبرنامج "قابل للنقاش" الذي يبث على القناة الفرنسية الثانية"فرانس دي" مكانه أمام منضدة كبيرة مستديرة و توجه بتحية رقيقة نحو الجمهور الحاضر وجمهور المشاهدين وأعلن عن موضوع النقاش وهو الأخطاء الطبية بعد ذلك انطلق بث "الجنيريك" وحين عودة البث المباشر شرع الشاب الفرنسي يقدم ضيوفه:

" يحل بيننا في حلقة اليوم ضيف تونسي وهو الدّكتور "عبد الوهاب بن سلامة" وهو مختص في معالجة العقم و يعمل بمستشفى "سان أنطون" هنا في باريس في اختصاص علم النهوض بالإنجاب ويحل بيننا أطباء فرنسيون يعملون الآن بنفس المستشفى وفي نفس الاختصاص وهم الدكتور "باتريك سانتيي" و "جاك فرنندار" وهو أيضا عضو في هيئة نقابة الأطبّاء و يحضر بيننا إضافة لهؤلاء الدكتور "اريك لو مون" طبيب علم نفس مباشر بقسم العلاج النفسي بنفس المستشفى."

بعد ذاك صمت قليلا ثم أردف :

"دعَونا هذا الجمع الكريم اليوم لنناقش قضية علمية طرحت مؤخرا في الوسط الطبي وتتمثل في صدور كتاب جديد بإمضاء دكتور تونسي متقاعد وقد جمعت الزمالة بينه وبين ضيوفنا بمستشفى "سان أنطون" و قد تخلف عن جمعنا هذا المساء ـ و كان بودنا أن يحضر ـ لكنه امتنع عن ذلك."

صمت لحظة ثم تناول كتابا صغيرا لا تربو صفحاته عن الستين و وجهه للكاميرا التي التقطت صورة الغلاف بعد ذلك واصل كلامه قائلا:ـ هذا كتاب صادر بدار نشر تونسية وقد كتب باللغة العربية."

أخذ كتابا آخر يضاهيه في عدد الصفحات والحجم لكن عنوانه كان مكتوبا باللاتينية وقال:

"لقد تمت ترجمة الكتاب من اللغة العربية إلى الفرنسية، قام بذلك الكاتب الفرنسي "أولفيي كازوني" وهو طبيب أيضا.

"ـ سأقرأ الصفحتين الأوليين من الكتاب وقرأ جهرا قراءة متمهلة:
" ها أنا ذا متعب النفس مذبذب الهوى ملتاع الخواطر، قد قررت أن أصغي إلى صوت نفسي، صوت صادح بداخلي، قادم من قرار يرتج بصليل الأسرار، ينذر بالانفجار في شوق مجهد إلى البوح"
واصل المقدم القراءة حتى أتم الصفحتين ثم التفت إلى الدكتور "اريك لو مون" قائلا:
ـ ماذا نفهم من هذه المقدمة؟
نطق الدكتور "اريك لو مون" ليقول:
ـ من الممكن أن يكون الكاتب يمهد للبوح بشيء كتمه أو أنه يجاهد نفسه ليخرج ما خبأه بصدره من سنين.
سكت الضيف قليلا ثم مضى يقول:
ـ هناك كتلة كبيرة من الألم المخزّن بوجدان الكاتب وكأنه يتوق إلى إلقاء هذا الحمل النفسي عن كاهله..نحن نلمس صراعا يحدث بين"لا وعي" الكاتب و"الأنا" الأعلى، هذا الصراع الخفي أو هو في الحقيقة صراع واع جعل "الأنا الأعلى" يضغط على"الأنا" ليقر كتابيا بما فعل حتى يسامحه أو أنه في الحقيقة سعى إلى إرضاء هذا "الأنا الأعلى" الممثل في سلطة المجتمع والعادات والمسموح حتى يحقق التوازن النفسي الذي فقده. وإن أردنا أن نوضح أكثر للمشاهدين نقول أنه كان متذبذبا بين قوتين متصارعتين داخل النفس: قوتين متضاربتين هما الأنا الأعلى و الـ"هو" أو "اللاوعي" ولأنه قد استسلم في تلك الوقائع لرغبة دفينة بنفسه وغير مشروعة ـ أي أنه استجاب للاوعيه فقد ظل الأنا الأعلى يعذبه...
قبل أن يتوقف الطبيب النفسي عن الكلام تدخل المقدم قائلا:
ـ هذه المقدمة ستفضي إلى الحديث عن عمليات تلقيح اصطناعي تمت في الثمانينات وقبل أن نتحدث عنها كوقائع

نود أن نعرف العملية من الجانب العلمي والطبي. التفت إلى الدكتور" جاك فرنانداز" الذي قال:
ـ التلقيح الاصطناعي أو ما يسمى ب"طفل الأنبوب" هو تلقيح لبويضات مستأصلة من رحم المرأة بأمشاج ذكرية منشطة وتنقسم العملية إلى نوعين، نوع يحدث عفويا فتتحول البويضة المستأصلة إلى جنين حال التقائها بأمشاج ذكرية منشطة وتستخدم هذه الطريقة في علاج حالات العقم الناتج عن انسداد قناتي "فالوب" اللتان تربطان رحم المرأة بالمبيضين وينتج هذا الانسداد عادة عن التهابات بالحوض أو التصاقات خلقية أو عن حدوث حمل خارج الرحم وكذلك وجود أكياس دموية بالحوض أو تكيس بالمبيضين، أما الطريقة الثانية فهي طريقة الحقن المجهري وتستخدم لعلاج العقم الناتج عن نقص في عدد الحيوانات المنوية أو ضعف حركاتها أو ارتفاع نسبة التشوه بها أو انعدامها بالسائل المنوي بسبب التهابات أو التصاقات حاصلة إثر عملية جراحية وأدت إلى انسداد الحبل المنوي أو لوجود عيوب خلقية. في هذه الحالات يتم الحصول على حيوان منوي ناضج من نسيج الخصية وحقنه داخل البويضة باستخدام جهاز الحقن المجهري.
حين أتم الدكتور"جاك فرنانداز" كلامه طلب المقدم من الدكتور التونسي " عبد الوهاب بن سلامة" أن يحدد شروط الاستفادة من هذه الطرق العلاجية. ملأ وجه الدكتور الشاشة وقد شرع يرد على تساؤل المقدم:
ـ في العادة هي طرق لتسهيل الإنجاب لكن في العالم الإسلامي يسمح باتخاذ هذه الطرق العلاجية عندما يكون الرجل والمرأة المعنيين مرتبطان بعقد زواج قانوني ويتم التأكد من ذلك عن طريق تقديم الوثائق.
ما إن أتم الدكتور" عبد الوهاب" جملته حتى عاجله المقدم قائلا:

ـ لكن ما لمسناه بهذا الكتاب لا ينطبق مع ما ذكرت يا دكتور فقد قرأنا إقرارا من قبل هذا الطبيب بأنه قد قام بتلقيح بويضات بعض النساء بأمشاج ذكرية لأشخاص أجانب عنهن، فهل سيخضع لتتبع قانوني في بلادكم ؟ أم أن العملية لا تعد خرقا للقانون؟

قال الدكتور "عبد الوهاب" وقد ظهر القلق على ملامحه:

ـ نعلم جميعا أن الأطباء بأي مكان من العالم محلفون وملزمون بإتباع الميثاق الطبي الذي ينصّ في كل بنوده على احترام شرف المهنة واحترام الذات البشرية وقد قام هذا الطبيب بمخالفة هذا الميثاق وألقى بيمينه عرض الحائط وخان العهد الذي قطعه على نفسه في المحافظة على الأمانة واحترام الملكية الخاصة للأشخاص كهذه الأجنة التي يتم الاحتفاظ بها مع التنصيص الدائم على نسبتها لأصحابها حتى لا يقع اللبس الذي من شأنه أن يجرّ اختلاط الأنساب، وإذا كان هذا الطبيب قد أقر بفعله المشين وذكر أنه قد اقترفه بحرية ووعي وبعد تخطيط مسبق فإن كل الجهات في هذه الحالة حتى النقابية منها ترفع يدها عن مساندته إذ لا يسعها أن تدافع عن من ارتكب خطأ فظيعا في حق أبرياء عن اختيار و طواعية ولا يجب أن ننسى أن القوانين ببلد عربي ودينه الإسلام مثل تونس أكثر تشددا من القوانين واللوائح في غيرها من الدول الغربية وأعتقد أن القانون التونسي لن ينظر بعين الرحمة لما اقترفه الدكتور "حافظ العياشي" حتى إن كان اقترف بعضه بأرض فرنسية لأن المشكلة متمثلة في الاعتداء على أملاك مقدسة عند المسلمين.

قال المقدم تعليقا على كلام ضيوفه:

ـ هذه القضية تذكرنا بقضية طبية أخرى مشابهة وهي قضية القتل الرحيم.

صمت المقدم لحظة ثم أضاف:

ـ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو هل من العدل أن نحرم أناسا من حق الحياة؟ وهل من العدالة أن نمنح حق الامتداد لأناس حرمتهم الطبيعة أو المشيئة الإلهية من ذلك الامتداد وعلى حساب ضحايا آخرين هم في الغالب هؤلاء الأبناء المجهولي النسب؟

تدخل الدكتور "باتريك سانتيني" ليقول:

ـ قد تكون الرحمة التي قصد إليها الدكتور التونسي سيفا مسلطا على رقاب هؤلاء الناس إذ تعرضوا للخداع والتّغرير فما من رجل ـ وإن كان من غير المسلمين أو العرب ـ يقبل بأن تستقرّ بأحشاء زوجته نطفة رجل آخر.

عادت الكلمة للمنشط فأمسك بالكتاب وقرأ منه بعض السطور لينهي حصته:

"ألا يحق لهذه الذات أن تصنع يوما تاريخها بملء إرادتها بأن تتشارك مع الذات العليا في رغبة الخلق؟

ألا أيتها الذات المتحكمة في مصائر البشر هل يمكن يوما أن نشاركك في الإيذان بالخلق؟ "

" هؤلاء الذين يستسلمون لحسم القدر هل يحق لهم يوما أن يحيدوا عن مساره وجبروته المستتر؟"

توقف عن القراءة ثم وجه عينين مشعتين نحو الكاميرا وقال:

ـ أعتقد أن صاحب الكتاب قد فتح على نفسه بابا سيحمل له وابلا من الانتقادات فقد يعتبر البعض في كلامه هذا وفي الفعل الذي أقرّ به تطاولا على الذات الإلهية.

البحر يتلاطم، خضمٌّ من الأفكار يعتصر الفكر، موج هادر يضرب ألواح المركب الصغير. الأرض، أرض النار والصليل تلوح من بعيد كقبس، تحمل الوجع برحم ماضيها وحاضرها. شتات من صيب الآلام يبعثر الصواب، خليط من الألم والندم يستبدُّ بالروح التّائهة، الندم على ما لم يكن أو على ما كان ...هل يجب أن يكون؟ هل يجب أن أكون؟... منذ متى والأرض تُنْبِتُ النار بفروعها لتحرق ذاتها؟ منذ متى والشرر يتصاعد من كائناتها؟...هل كتب عليَّ أن أهوِيَ من الذروة مرتين؟ هل كتب علي أن أموت كلّما ولدت؟ هل يكون وجودي زلة، هفوة كتبت على جبين الدهر بمداد العار؟ هل استحال عليَّ الوجود؟... بل إني استحلت عليه وفي دمي خطأ بشع صوَّره نزق ذات مبتورة، هل تُراني أعود يا أنا أم أكون؟...أكون !!! بمَ؟ وممّا؟ من الألم أم من العار أم من الخطإ أم من الثبور؟
الوجدان جروح نازفة حرقة كهذه اللجة الثائرة...هل أموت؟ هل لموتي الآن معنى؟ هل أقدر على الموت؟ إن حاولت سأهوي إلى القاع ولن أقدر عليه فعذابي أقوى من الموت وأشد وأعتى ، سيصمد الوجع بقراري وإن كنت بأعماق هذا اليم الحي... هو ذا اليمّ حي يرزق، يستشفُّ وجوده من ثورته، من قوته، من موقعه، من سلطته، لكن بألمي وشقائي منتهى الضعف، منتهى الويل...كنت بيد القدر دمية يلهو بها ويسرحها كما يسرح الموج هذا المركب التائه بعرض البحر...
كنت دخانا انبعث من احتراق الآثام، تصاعد في الهواء وخال الوجود يتحقق...كنت ظلاما عاتما وظن الكون قد أضاء له

يوما...كنت مزحة في مدَوّنة ستنسى بإحدى المرات بعد أن تنشر في الجوّ عفنا كريها ...

كنت ! لا ما كنت وما كان لي وجود، امتصّتني أكاذيب النفس حين تغرر بصاحبها فتعكس على مرآة الظن صورته المشوهة...كنت توهانا في سِفر الوجود...كنت رمحا منغرزا بقلب صاحبه...

كنت ذات يوم... لا ما كنت وما كان لحياتي مدلول ولا الفعل أخرج الروح من تابوتها...

كنت خطيئة لم تزل تتهاوى إلى ذروة الاستنكار، خطيئة تحمل خطيئة وتذكّر بخطيئة وبماض مسلول كسيف من الحمم على ضحايا النقص والضعف...

الفجيعة تستنكرني ، الأرض ما عادت تطيق وطأتي على ظهرها...السماء وجه من السخط والغضب يأمرني بالأفول...الكون بؤس تجلى، أرعدَ وأربدَ وبات كسوط عذاب لن تحييني جلداته...

جلس الرجل ذو الطاقية البيضاء واللحية الكثة على مقعده الخشبي المزخرف داخل القاعة الفسيحة وجلس قبالته أعضاء منظمته على حشايا مبسوطة على الأرض. نظر إلى الجماعة فشعت من عينيه نظرات ثاقبة قوية عبرت عن زهو صاحبها وفخره.

أمسك بالمصدح الصغير وشرع يخاطب الجماعة:

" بسم الله الرحمان الرحيم، "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا به من قبل وأُتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون" صدق الله العظيم الذي صدق وعده ونصر عبده. أيها الإخوان، نعقد اليوم هذه الجلسة لنبارك نصرنا المبين ولنهنئ أنفسنا بما حققناه من انتصار على أعداء الله، فلقد نكّلنا بهم ولقد استحقوا مصيرهم، وقد قال الله في سورة الطلاق من كتابه المجيد "وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربها ورسلها فحاسبناها حسابا شديدا وعذّبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا"

صدق الله العظيم الذي يمهل ولا يهمل وطوبى لأخيكم رشدي الذي حقق الشهادة وغنم الفوز العظيم "

سكت برهة وهو يحدق بالجمع ثم أضاف:

" "إن أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فاتقوا الله ما استطعتم وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوقّ شح نفسه فأولئك هم المفلحون" صدق الله خالق النجدين، نجد الصلاح والفلاح ونجد الخسران والوبال.

أيها الإخوان، لقد تبوّء أخوكم رشدي مكانه بين المفلحين وصعدت روحه هانئة إلى عليين وأنفق خيرا ليوم عظيم، فاجعلوا منه أيها الإخوان مثلا لكم ولتحاولوا أن تكونوا في زمرة الشهداء الأبرار مثلما كان.

أيها الإخوان كلكم يعلم أن أخاكم رشدي لم يمت بل هو حي عند ربه يرزق،

بسم الله الرحمان الرحيم " ولا تقولوا لمن يقاتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون" صدق الله العلي القدير. "
أخلد لبرهة من الصمت نظر فيها إلى أوراق أمامه ثم واصل قائلا:
" أيها الإخوان رغم كل جهودنا في مقاومة الشر والفساد، الفساد في الهزء بالقيم الإسلامية من قبل البعض، يتهاونون في تطبيقها غير آبهين بما سيجره ذلك على الأمة من خراب ـ قلت أيها الإخوان رغم جهودنا ـ فإن النفوس الدنيئة مازالت تزين لأصحابها ارتكاب المحرمات والكبائر جهرة بل أكثر من ذلك يزين لهم شيطانهم أن يفخروا بها ويجاهروا داعين غيرهم لارتكابها دون خشية من الله ودون خوف على الأمة وعلى مصيرها خاصة إذا كان هؤلاء من أهل العلم والمعرفة ولهم صيت في المجتمع وهم للأسف قد استغلوا علمهم أسوأ استغلال وزينوا الخطأ للناس، وأقصد بقولي هذا أيها الإخوان طبيبا مختصا في علاج العقم إذ أتى فعلا منكرا وجاهر بأفكاره الإلحادية، هل تعرفون أيها الإخوان من الرجل؟ وماذا اقترفت يداه؟ وبماذا نطق لسانه؟ "
صمت لحظة يستردّ أنفاسه ثم وجه نظرة أخرى إلى ورقة أمامه وقال:
"الرجل يدعى "حافظ العياشي" ولقد أتى فعلا منكرا ودنس عفة ثلاث نساء غافلات ما كان لهن ذنب سوى أنهن توجهن إلى ذلك المستشفى الفرنسي الذي عمل به هذا الشيطان والذي استبيحت به حرمة نساء مسلمات ولقد تلقفهن هذا الفاجر وقام بمجامعة بين نطفهن وبين نطف رجال أجانب عنهن وحدث حملهن بهذه المصحة الغربية وأنجبن أطفالا نسبوا خطأ إلى أزواجهن وواصل أعماله الشيطانية حين عاد إلى تونس بمصحة "الشفاء" ولم يكتف هذا الإبليس بتلك الجرم بل أنه ذكرها في كتابه كما يذكر البطل بطولاته وأمجاده أو كما يعدد المجاهد انتصاراته ومعاركه الرابحة، ولم يكفه كل ذلك بل

تعدّاه إلى ما هو أشنع بكثير فلقد تطاول هذا الآبق على الذات الإلهية وأراد أن يشاركها قرار الخلق. "
تناول الرجل كتيبا موضوعا أمامه ثم واصل خطابه قائلا:
"أيها الإخوان هذا هو الكتاب الذي ألفه ذلك المفسد ولقد امتلأت صفحاته بالدنس والفجور والكفر والإلحاد ولقد تضمنت الصفحة الثالثة كلاما يندى له الجبين وتتأذى منه الأذان إنه أيها الإخوان يزعم أن للإنسان قدرة على تحديد موعد الخلق وقد عبر عن ذلك بأسلوبه الدنس، لقد كفر هذا الرجل بالقضاء والقدر وأراد أن يجر معه الناس في ذلك التيار وادعى أن للذات الإنسانية قدرة على صنع مصيرها أو تاريخها كما زعم بأسلوبه المتحذلق الفاسد وأنها قادرة على الهزء بإرادة القدر، هو أيها الإخوان قد حلل الزنا الذي حرّمه الله على عباده حين بث نطفا أجنبية بأرحام نسوة متزوجات غير مبال بشريعة الله ولقد حق القول عليه وسننفذ فيه وفي المجموعة التي ساعدته بتغافلها حكم الله وشرعه ولقد اخترنا لنيل هذا الشرف أخاكم عدنان الذي لا شك مشتاق للحاق بأخيه رشدي في جنة الخلد. "
أنهى الرجل خطابه ثم توجه إلى عدنان وقدّم له مفاتيح سيارة ليستعملها في تنفيذ العملية وقد كانت رابضة قرب المبنى وتضمنت بداخلها كمية من المتفجرات بعد ذلك قبّله مهنئا إياه بالشهادة وسمح لبقية الأفراد بمعانقته وتهنئته وانفض الجمع واستبقى الزعيم الشاب ليزوده بالمعلومات اللازمة والدقيقة لتنفيذ العملية ولمده بالزمن المضبوط لها.
انطلق عدنان يقود تلك السيارة مبتعدا عن المدينة حتى بلغ منزلا مهجورا كان على ذمة المنظمة وجُعل ليختبأ به العضو المقبل على تنفيذ مهمة في الفترة التي تسبق حلول الموعد.
دخل البيت واستلقى على أحد الأسِرّة القديمة به وشرع فكره الذاهل يسترجع كلام الزعيم وقد عرف أن الشخصية الرئيسية في المعنيين بالقتل هي جاره السيد "حافظ العياشي" والد آدم صديق طفولته وقد حدد له الزعيم المراحل التي سيتبعها

لإتمام العملية وتتمثل في إخطار "حافظ" بالهاتف أنهم يطلبونه بـ"مصحة الشفاء" لأمر هام يتمثل في استشارة علمية ثم يقفل الخط ويقوم بمراقبة بيته وحالما يبصره قد غادر البيت نحو المركز يلحق به مستخدما السيارة المفخخة حتى إذا رآه يلج البناية التي تضم المخبر وقسم الوراثة يقوم باجتياز البوابة ويداهم البناية بسرعة قصوى تسبب الانفجار الذي سيخلص الناس من إثم هذا الرجل وجماعته.

شعر عدنان بوخز في قلبه إثر تصور العملية بذهنه، إنه يريد الشهادة لكنه يأبى أن يخلف حزنا دمويا بقلب صديقه الذي عاد أخيرا من غربته وبه أمل في حياة سعيدة وهانئة وهذا الرجل الذي سيقتل كان بمثابة والده في ما انقضى من طفولته وشبابه الأول وقد قضى فترات طويلة من عمره ببيته يلعب مع ابنه وقد حباه بحنان فياض وشعر هو بدوره نحوه بمحبة وتقدير والآن ها أن منظمته تطلب منه دونا عن سواه أن يقتل الرجل، فكيف سيقتله وبأي قلب سيسكت أنفاسه؟ ألا يمكن أن يكون ظن الزعيم به خاطئا ويكون "عم حافظ" غير قاصد في كتابه إلى تلك المعاني السيئة والأفكار الإلحادية؟ ألا يمكن أن يكون الأمر مجرد مغالاة؟

فكر لحظتها أن يتحقق من إدانة الرجل قبل أن يقتله وإذا ثبتت إدانته فإنه سيقتله غير آسف أما إن اتضح أن ذلك افتراء من الزعيم في حق الرجل فإنه سيسلم نفسه إلى الشرطة لترى ما تفعل بشأنه.

خيم الظلام على المنطقة المهجورة فتسلل من المنزل وركب السيارة الحاوية للمتفجرات وقصد مدينة "تونس" مسرعا. ولما وصل قصد مكتبة بحي قليل الحركة فاقتنى نسخة من الكتاب الذي لمحه بيد الزعيم وعاد مسرعا إلى المنزل المنعزل، دلف بإحدى الغرف واستلقى على أريكة كبيرة أغرته باستعمالها لمظهرها النظيف مقارنة بالسرير الذي استعمله منذ برهة.

شرع يطالع الكتيب، وجف قلبه وهو يطلع على الحقائق الرهيبة التي تضمنها. مضت فترة قصيرة وهو منشغل بالمطالعة ثم شعر بقلق فخرج من المبنى ليتفقد السيارة القابعة بالمستودع، وجدها كما تركها ورأى المنطقة خالية لا يسمع بها غير نباح الكلاب فعاد إلى البيت وقرر أن يسارع بمطالعة الكتاب حتى يخلد لآخر سبات بحياته، قال في نفسه إن الحياة جميلة لكن الشهادة أجمل منها بكثير، إنها الفوز العظيم والراحة الأبدية.

فتح الكتاب الذي شده رغم فظاعة محتواه فلقد لمس بوالد صديقه جانبا إنسانيا تجلى في الرحمة التي ينظر بها لمرضاه.

بلغ في قراءته الجزء الأخير من الكتاب:

" في المساء حضرت السيدات الثلاث بالمستشفى فأجريت لهن عمليات زرع الأجنة وقد توقع الإطار الطبي المشرف على عملية الزرع الفشل لإحداهن وهي السيدة "ألف" زوجة السيد "ميم" الذي نشأت بيني وبينه صداقة منذ ذلك اليوم الذي التقينا فيه بالمخبر. كان الفشل أمرا منتظرا بحال السيدة ألف لأن رحمها كان يشكو ضعفا من حيث الاستعداد الطبيعي للحمل وعادت السيدات الثلاث للمستشفى بعد أسبوعين وأجرين التحاليل الخاصة لمعرفة ثبوت الحمل من عدمه. ثبت حمل السيدة "كاف" التي ـ للأسف ـ ستنجب طفلا أسود كما ثبت حمل السيدة "هاء" وصدقت توقعات الأطباء في فشل عملية السيدة "ألف" فاستمرت في المتابعة الطبية وواصلت بدوري مشروعي الإنساني فداومت على مقاربة بويضاتها المستأصلة بأمشاج ذكرية أختارها ذات خصوبة عالية من الثلاجة رقم واحد، وظلت عملياتها تمنى بالفشل فقد كانت من الحالات التي تتطلب أمًّا حاضنة نظرا لاختلال الرحم ولكن كيف لي أن أقنعها وأقنع زوجها السيد "ميم" وأن أقنع إطارا طبيا كاملا بضرورة اعتماد ذلك الحل؟ كيف لي ذلك مع مرضى ينتمون لمجتمع تكبله قيود صارمة من الممنوعات والمحرمات؟ ومن

حسن الحظ أن المرأة لم تيأس رغم تجاوزها لسن الأربعين، كما واصل الإطار الطبي زرع الأجنة التي يتمخض عنها مشروعي الإنساني برحمها.
وذات مساء وصلت إلى المستشفى فأبصرت سيارة "ميم" رابضة بساحته وقد كنت أعرفها ر فقد دأبت على رؤيتها بحديقة المستشفى، ترجلت من سيارتي والتحقت بقسم الوراثةو توقعت أن أجده هناك وكم كانت فرحتي عظيمة عندما علمت أنه تلقى أخيرا أخبارا إيجابية تنبئه بثبات الحمل. هنأت الرجل وزوجته وسعدت أيما سعادة وقد تحقق الحلم المنتظر بالبنين ورافقتهما إلى الشقة التي يؤجرانها بفرنسا واحتفلنا بالطفل المرتقب الذي اتضح بعد مدة أنه من جنس الذكور ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى هلّ " عين" على الدنيا فاكتملت الفرحة بقلب الزوجين كما بقلبي لأني حققت بعض غايات مشروعي الإنساني وقد كان أهمها رسم البسمة على الوجوه المكفهرة. وكان من بين الذين سعدوا بمقدم المولود شخص صغير السن ما كان له إخوة إذ توفيت أمه بعد سنتين من ميلاده، إنه ابني آدم الذي اتخذ من المولود أخا له بعد عودتي واستقراري بتونس.
تسارعت دقات قلب عدنان واقشعرّ جلده حين استوعب عقله الأمر وأيّ أمر؟ الدكتور "حافظ" لم يقصد أحدا بالسيدة "ألف" غير أمه "آسيا" فهو لم يأت إلى الوجود إلا بعد انتظار طويل من والديه. قال يحدث نفسه:
"ألف" هي "آسيا" و"ميم" هو محمود و"عين" هو عدنان !أية لعبة مارس هذا الخبيث؟ وأي جرم؟ أمي حملت بأحشائها مرارا نطفا لرجال أغراب عنها وفي الأخير تحقق حملها بجنين مجهول النسب، هلّ إلى الوجود ظانّا أنه وحيد والديه ويحسب رجلا مخدوعا أبا له وهو ليس سوى لقيط ، أنا اللقيط وأمي زانية وزوجها رجل مخدوع، عدنان صار ضحية بعد أن ظن نفسه جلادا وأنه سيرتكب حماقة في حق رجل مسكين فإذا

بهذا الرجل يكون القاتل الفعلي، قتله منذ زمن، قتل وجوده وبتره عن أصله وطمس هويته، ألقاه بهذا الوجود هفوة لا تنمحي إلا بالموت، الموت فقط هو الحل لا الحياة ولا الشهادة، عدنان لا يستحق أن يحيا وليس له مكان بهذه الحياة ولا يستحق أيضا أن يرتقي لمرتبة الشهيد فهو أحقر من أن ينال ذلك الشرف .

عاد آدم مساء إلى البيت. بحث عن سارة فلم يجدها صعد إلى الطابق الأول ودخل غرفته فشاهد كتاب "صوت الحب" ملقى على الأرض وألفى خزانة الثياب مفتوحة. نزل مسرعا وبحث

عن الخادمة التي أخبرته أنها لم ترها، دخل مكتب والده وسأله عن سارة فأخبره أنه لم يلتق بها في ذلك اليوم. خرج محتارا وتوجه بسيارته إلى منزل صهره "توفيق".

أوقف السيارة وقد خيم الليل ودلف إلى داخل البيت حيث وجد صهريه وسألهما عن سارة لكن الرجل والمرأة أبديا اندهاشا كبيرا وقد اعتقدا أنها ببيتها.

أصاب الهلع آدم إذ لم تُعَوده سارة بمثل هذا الغياب المفاجئ لكن كلثوم حاولت طمأنته رغم هلعها وذكرته بأنها حامل وأنها قد تكون خرجت لاقتناء بعض الأغراض فتأخرت بالخارج.

وما هي إلا لحظات حتى كان توفيق وآدم خارج البيت وقد قاد كل منهما سيارته باحثا عنها، اتجه توفيق نحو المواقع التجارية الواقعة وسط العاصمة: "البلماريوم" ..."اللاك" ومحلات "شارل ديغول" في حين توجه آدم إلى "كاريفور" و"جيان" وبحثا عنها طويلا لكنهما لم يجداها وكان آدم يتصل من حين لآخر بوالده ليعرف إن كانت قد عادت وكان توفيق يتصل هو الآخر بكلثوم لرصد عودتها واستمر تفتيشهما عن المرأة وجابا شوارع العاصمة وأحوازها القريبة طولا وعرضا وسألا عنها في الكثير من محلات التجميل والحلاقة وسألا عنها في المراكز الصحية الخاصة والعامة التي تهتم بصحة الأم والطفل واتصلا بالعيادات النسائية الخاصة وبمحلات التمريض التي كانت مفتوحة في تلك الساعة كما اتصلا بالأقرباء الذين تعرفهم سارة منذ طفولتها لكن دون جدوى فلا أثر لها كأن الأرض انشقت وابتلعتها.

رجع توفيق إلى بيته والقلق يكاد يفتك بسريرته وأمضت كلثوم بقية الليل باكية حزينة أما آدم فقد ظل الليل بأكمله يبحث عنها لكن جهوده ذهبت سدى.

كانت عقارب الساعة الحائطية ببهو منزل توفيق تشير إلى الخامسة صباحا وقد تهالكت كلثوم على أريكة شاحبة الوجه محمرة العينين من أثر السهاد الذي أصابها على إثر اختفاء

وحيدتها وغير بعيد عنها جلس توفيق صامتا مطرقا يتلهى بسيجارة يدخنها من حين لآخر مفكرا بما قد حل بالبنت.
نطقت كلثوم أخيرا لتقول:
ـ ماذا لو تتصل مجددا بآدم؟ ربما عثر عليها.
أخذ توفيق جواله من جيبه واتصل بصهره وبعد لحظات من الانتظار وضع الجوال على مقربة منه ثم قال:
ـ لم يجب ربما كان نائما.
ـ نائمٌ !كيف ينام وسارة مختفية؟
ـ ربما قد عادت.
ـ لكن جوالها متوقف عن العمل؟
صمت توفيق وقد كان يعلم أن سارة لم تظهر بعد لكنه أراد أن يطمئن زوجته فلو ظهرت لأخبره آدم أما وقد انشغل عنه فذلك يؤكد أن بالأمر خطب وقرر أن يغادر مجددا للبحث عنها فغادر البيت متجها إلى منزل صهره حتى يستجليَ حقيقة ما يجري قبل أن يكرر البحث عنها بأحياء "تونس"، كانت الساعة لم تبلغ السادسة بعد ومنزل "حافظ" صامت لا حركة به، دلف إلى الحديقة فقد وجد الباب الحديدي مفتوحا ولما وصل إلى "الفيراندا" طرق الباب ففتح له حافظ بعد برهة من الانتظار وأدخله إلى غرفة مكتبه، كان وجهه مكفهرا ولاحظ توفيق ذلك فقال:
ـ لم تظهر بعد، أليس كذلك؟
فقال حافظ:
ـ تقصد ابنتك؟
فعلق توفيق باستغراب قائلا:
ـ كأنك تجهل الأمر.
فأطرق "حافظ" وأمسك رأسه بيده ثم قال:
ـ بل إني أعرف أكثر مما تتصور.
استسلم للحظة من الصمت ثم نظر لتوفيق بعينين هلعتين وقلقتين ثم أردف:

ـ لقد حاولت تقديم يد العون لبعض الأشخاص وظننت أنني أزرع بذور خير، لكن الأيام كشفت لي أن ما صنعته كان دمارا طال حياتي وحياة هؤلاء.
فسأله توفيق باستغراب:
ـ ماذا تقصد؟
فرد عليه الرجل وقد أمسك رأسه بين يديه مشيرا إلى آلام تعتصره وقال:
ـ سأشرح لك الأمر لاحقا يا "سي توفيق" أما الآن فالصداع سيفجر دماغي وأفضل أن أركن لبعض الراحة.
غادر توفيق منزل صهره مندهشا مما رأى وسمع ثم قام بجولة جديدة في أنحاء العاصمة واتصل بآدم الذي أخبره أنه بصدد السؤال عنها في المستشفيات ومراكز الشرطة وأن كل محاولاته إلى حد الآن لم تسفر عن نتيجة. ودّ توفيق لو سأل آدم عما حصل بين سارة وحافظ لكنه لم يقدر على ذلك خشية أن يبدوَ أمام صهره بصورة المتطفل الذي يحشر نفسه في ما بين الفتاة وعائلة زوجها وخير أن ينتظر جلاء الأمور.
أخذ توفيق يتنقل من نزل لآخر سائلا عن سارة وقد توقع أن تكون على خلاف مع عائلة زوجها وأن تكون كعادتها اختارت حلا شاذا للمسألة ولما طال به البحث ولم يعثر عليها خطر بباله أن يتصل بأنطون في نيويورك فقد تكون سافرت إلى هناك تحت تأثير غضبها لكن الأخير ذهل مما سمع وأكد له أنها لم تظهر هناك كما لم تتصل ولم تعلم أحدا بقدومها. ولما علم توفيق بذلك خطر له خاطر آخر وهو أن يسأل عنها بالمطار فقد تكون سافرت نحو أي بلد آخر فقد عوّدتهم بنزعاتها الغريبة وكانت النتيجة أن اسمها لم يظهر مع أسماء المغادرين لا الأمس ولا اليوم فعرف حينها أنها لم تغادر البلد لكن خوفه ازداد فقد فتش مع صهره أماكن عديدة دون أن يظهر لها أثرٌ.

عاد على الساعة الثانية بعد الزوال مطرقا ومهموما. ترك السيارة أمام البيت ودلف إلى الحديقة وفيما هو يسير نحو مبنى البيت يجرّ أذيال الخيبة ويفكر بالعبارات التي سيهدّئ بها من روع زوجته إذ سمع طرقا خفيفا على الباب الحديدي انخلع له قلبه وأشعره أن اللحظات القادمة تنبئ بسوء إذ لم يتعود بمثل هذا الطرق على باب منزله فجل الزائرين كانوا يستعملون الجرس المجهز ب "الأنترفون"

توجه إلى مصدر الطرق ليرى الأمر، فتح الباب ليجد أمامه عون شرطة، تجمد الدم بعروقه وتذكر سارة.

ماذا جرى لها؟ ما الأمر؟ أكيد أن الأخبار لا تسرّ.

توقفت الأسئلة بذهنه حين استمع إلى عون الشرطة يقول له:

- "سي توفيق المقدم" !أنت مدعوٌّ لمركز شرطةِ المرسى للتحقيق معك بمقتل صهرك الدكتور"حافظ العياشي".

ارتبك الرجل وارتخت عضلات أرجله وأحس أنه سيتهاوى على الأرض.

إذن فلقد قتلته !لا شك أن أمرا رهيبا حصل بينها وبين الرجل جعلها تفرّ من البيت ثمّ تعود لقتله.

توقف عن التفكير ثمّ نظر إلى الرجل وهمّ بأن يسأله عن ساعة الحادث ثم تراجع بعد أن شعر بشكة تصيب قلبه وقال متلعثما:

- سأحضر ..سأحضر حالا.

غادر العون في حين توجه توفيق إلى سيارته مخيرا إخفاء الأمر عن كلثوم حتى يهيئها عند عودته لتقبل الخبر.

انطلق بسرعة جنونية نحو ضاحية المرسى، كان يريد أن يرى ابنته وأن يفهم الحكاية وعليه بعد ذلك أن يفوّض نخبة من المحامين للدفاع عن صاحبة الحظ العاثر.

دخل مبنى المركز فقادوه إلى مكتب الضابط المحقق في قضية مقتل "حافظ". فتش بعينيه عن سارة فما وجدها.

أُذن له بالدخول فأمره الضابط بالجلوس وشرع يطرح عليه سلسلة من الأسئلة عن آخر مرة رأى بها الضحية وعن نوعية

العلاقة التي كانت تربط بين ابنته وبينه. أخذ توفيق يجيب عن الأسئلة بقلب وجل ونفَس ضعيف يكاد ينقطع.
وبعد برهة قال المحقق وقد لاحظ الجزع الذي أصاب الكهل:
ـ لا تخف يا سي توفيق إن الأمر لا يخص ابنتك وإن كان في الحقيقة يخصها من بعض الجوانب فالمقتول هو والد زوجها. لقد قتل الدكتور حافظ العياشي بيد شاب يدعى عدنان بوراوي ولقد سلم نفسه ضحى هذا اليوم بعد أن ارتكب الجريمة وقد قتله طعنا بالسكين. ومثل لنا الشاب خيطا موصلا إلى بعض أفراد عصابة متطرفة قامت بتفجير النزل بجزيرة جربة وقد ذكر لنا الشاب أنه قتل الرجل لأنه نشر بكتابه أشياء رهيبة منها أنه صير أمه زانية حين حمّلها نطفة رجل غريب عنها وجعلها تنجب منه طفلا لقيطا مجهول الأب وقد كان هو ذلك الولد، وقال أيضا أنه ارتكب نفس الإثم في حق ضحايا آخرين ذكرهم بمؤَلَّفه منهم طفل هلّ على الدنيا بلون زنجي رغم أن أمه والرجل الذي يظن نفسه والدا له من ذوي البشرة الفاتحة.
خفق قلب توفيق عند سماع القول الأخير للمحقق وأُلقي في روعه وقد أحس أن الأمر يمت له بصلة وقال بصوت كالحشرجة:
ـ وأين الكتاب؟ أريد أن ألقي نظرة على محتواه.
تناول المحقق الكتاب من أمامه وفتحه على الصفحات المتضمنة للوقائع ثمّ قدمه لتوفيق الذي شرع يطالع محتوى الصفحات وكان وجهه في أثناء ذلك يتلون من الامتقاع إلى الإصفرار فلقد وجد به وصفا لشخصه.
" السيد "تاء" رجل أعمال ...السيدة"كاف" زوجته...السيدة"كاف" ستنجب طفلا أسود ...منذ ما يزيد عن الثمانية والعشرين سنة..."
احتقن وجه الرجل وشعر بالاختناق فأخذ يحل ربطة عنقه. تنبه المحقق للأزمة التي انتابته فعاجله بكوب من الماء ليشرب

وطلب من أحد كتبته أن يفتح النافذة حتى يتسرب هواء نقي إلى فضاء الغرفة.
تمكن توفيق من التقاط أنفاسه حين استنشق هواء متجددا وقال دون أن يفكر أو يحسب لقوله حسابا:
ـ الحقير !لقد ارتكب الجرم ذاته معي ومع زوجتي !
ولم يتعجب المحقق مما سمع فلقد أخبره آدم أثناء التحقيق معه بأن زوجته سارة اختفت عقب قراءتها لكتاب "صوت الحب" وبتصفحه للكتاب عرف أنها كانت معنية بأحد فصوله.
انتابت الكهل الضحية نوبات من الغضب ترجمها إلى صراخ هستيري وكلام متقطع. أشفق المحقق على الرجل فأخذ يهدئ من روعه محاولا إقناعه أن الغضب أو الحزن لن يجدي نفعا بعد مرور كل هذه السنين على تلك الأحداث وأن الرجل قد صار ضمن الأموات وقد قتله عمله.
نجح المحقق في التخفيف من غضب توفيق بعد أن داعب أوتار أبوته للبنت التي كان لها نِعم الأب ونجح في تربيتها فكانت فنانة متميزة.
عاود الرجل بعض الهدوء فشرع يجيب المحقق عن أسئلة متعلقة بطفولة سارة وشبابها.

أفاق آدم العياشي من حلمه الجميل. وقف ونظر حوله وقد أثمله الحلم ونسمات الفجر المسكرة، فجر نشر ضوءا خجولا على الشرفة والحديقة وأظهر الشارع والمنازل والعمارات ولوّن

السماء بلون بنفسجي أخاذ، إنها إضاءة ربانية للكون تجلى فيها الإعجاز وقد رأى فيها۔ وهو الفنان ۔ إقرارا بعجز الإنسان وضعفه عن مماثلة الذات الإلهية مهما حاول تقليدها ومهما استعذب إبداعه ففعله ناقص مقارنة بهذا الصنع المكتمل لذات عبقرية، ذات خلقت الكائنات والوجود وفي أبسط مخلوقاتها بثت جمالا غير متناه، جمال الاكتمال، جمال الكائنات في سعيها الدؤوب في دروب الحياة، جمال الانتظام في تعاقب الليل والنهار والفصول وفي سير دورة الحياة الطبيعية عند الأحياء، جمال البحر يلف اليابسة ولا يغرقها، جمال الكون في اتساعه وانتظامه وفي عدد كواكبه الغير محدود وثباتها وفي رحابة مجرّاته، جمال الإنسان في سعيه إلى الكمال وإلى الله.

دلف إلى الداخل وتوجه إلى الحمّام فاستحم وارتدى كعادته في أيام راحته الأسبوعية ملابس "رياضية" وقد قام بإحضارها من المغسلة البارحة حين أنهى حصة عمله المسائية بعد أن آلت إليه كل الأمور في هذا البيت الكبير وكان ذلك إثر وفاة والده ورحيل زوجته منذ سنين، رحلت وقد حملت معها ثمرة الحب المفقود جنينا في أحشائها، ولم تترك وراءها خيطا يقود إليها. هي في مكان ما من هذا العالم تبادله الحب الذي لا زال يكنه لها والذي سيظل أثره بقلبه ما عاش وكان له نفَس بهذه الحياة... كم يسعد ويحزن بذات الوقت حين يذكر أن له ابنا أو بنتا منها !ترى ما عساها تخبره أو تخبرها عنه وعن الجدّ حافظ وعن الجد توفيق وعن كل تلك المأساة؟

مسح الكهل دموعا ترقرقت بعينيه ثم غادر الغرفة ونزل السلم متوجها إلى المطبخ حيث أعد قهوة في الإبريق الكهربائي تناول البعض منها مع بضع قطع من البسكويت وخرج إلى الحديقة متوجها إلى المستودع وفي الأثناء رن هاتفه الجوال بجيبه قام بالرد ثم أعاد الجهاز إلى جيبه لقد كانت دعوة من "اتحاد نقابة المهندسين" لحضور جلسة طارئة يتولى فيها الأعضاء والمنخرطون التطرق للأوضاع الراهنة على

الساحة السياسية العربية في ظل تعرض مخيمات فلسطينية للقصف الإسرائيلي وستفتح حسابا بنكيا جاريا للتبرع لفائدة ضحايا الاعتداء.

وقع توفيق على صحيفة أمريكية بمساء أحد الأيام من أواخر شتاء قاحل بحياته. أخذ يتصفحها وقد هاج بوجدانه الحنين وذكرته بالأيام الخوالي حين كان يطالع صحفا أمريكية يرسلها له أنطون ليقرأ ما يكتب عن سارة. والآن ولّى ذلك الزمن

وانتهت سطوره بمأساة أشد مرارة من الأولى وخلفته لوحدته بعد أن دكت الحقيقة المفزعة أسوار حياته وبعد المرض العصبي الذي ألم بزوجته وجعلها عاجزة عن الحركة والكلام وجعل وجودها كعدمه فهي الصمت المطبق والحزن الأسود الذي قتلها وهي حية والذي أوهنه وصدع رأسه بيد أنه كان أكثر منها جَلَدا ولعل مَرَد ذلك الاختلاف الطبيعي بين المرأة والرجل وبين الأفراد عامة في القدرة على احتمال الهزات والصدمات.

كان يجلس على كرسي هزاز وهو يقرأ الصحيفة، كان يدخن و ينفث من أنفه وفمه دخانا كثيفا كأنما ينفث نقمة وحرقة أو كأنما ينفث بقايا مشتتة من كيانه المهدود. وبعد لحظات من القراءة والتصفح استرعى انتباهه مقال جعل قلبه يخفق فقد ذكّره بالمقالات التي كان يقرؤها عن سارة. لكن هيهات...فهذا مقال يتحدث عن شاعرة في حين كانت ابنته بذلك الزمن الجميل مغنية بارعة ورسامة موهوبة.

طالع توفيق المقال بفكر شارد وحواس مضطربة :

" ضمت صحيفة مكسيكية إعلانا عن ديوان شعر جديد أصدرته دار نشر مكسيكية وقد عرّف المقال بصاحبة الديوان وهي سوداء من أصل أمريكي واسمها "جوناتا راينر" ، كانت قد هاجرت منذ سنوات من الولايات المتحدة لتستقر في المكسيك والديوان هو أول إصداراتها الأدبية و تحدث المقال أيضا عن الشعر الجميل الذي يحويه الكتاب ونحن نشاطر صاحبه رأيه إذ يمكن للباحث عن إحساس الحب الحقيقي والرومانسية الجميلة أن يجد فيه ما يلهب مشاعره وقد نشرت الصحيفة القصيدة الأولى منه لتُرَغّب القراء في الإطلاع عليه ورأينا أن نطلعكم على تلك القصيدة وأن نردفها بالجزء الأخير من القصيدة الأخيرة:

القصيدة الأولى:

حين تهرب الكلمات من أفكاري
سأستمع إليك
أيها الصوت القادم
من أغوار نفسي
وسأفكّ قيود الزمن
الحالم بمجد الآفلين
وحين تدكُّ أحصنة الحقيقة معابد الغش
سأعود للبحث عنك
يا حبي المستتر
يا نبعا من النشوة
التي بها مزقت كل آهاتي
ثم منها خرجت
إلى اللا عودة بملء قراري
صوتك يا حبي
يناديني
يكلمني
يبعثرني
يلملمني
لكنَّ
جدار الصمت المثقوب
يسترني عنك
جدار الصمت المثقوب
يحميني من زلة حبك
كيف أسمع صدى روحك؟
وأنا ممزقة بلا روح
كيف أسمع آهات عشقك
وأنا هنا بلا تاريخ؟
التاريخ قد رفضني

فمن المضحك أن تقبلني
كيف تقبلني؟
كيف تؤويني عندك يا صوت
حُبّي ؟
هل أندسُّ فيك أحجية
بلا معنى؟
أحجية بلا معنى قد تدمرك
حين تظن أنك بدأت
وحين تظن أنك تسافر مع الحياة
وحين تظن أنك موجود
فهل أخنق وجودك
بعدمي؟
صوتك يا حبي البعيد
شيء أتنفسه
شيء أستعيده
شيء يعايش الفراغ بداخلي
شيء يعايش زيف تاريخي
ويتغلغل بأعماقي
ويفيض
يغشاني
كصحراء عطشى
عطشى إليك
فمن المحال أن تنتهي
من زمني الضائع
زمن وهبته لذكرياتك
أستمع لشدو آهاتك
المخزّنة
وألثم عمري
حين أذكر طعم قبلاتك

حين أذكر هزة الشوق بأحداقك
وحين أتجرع عذاباتي
لفراقك
فدم لي صوتا حبيبا أذكره
فيملؤني
ويحييني
ويصنع لي تاريخا آتيا
تاريخا عابقا بأزهار الرياحين
نائما في أكداس أحلامي
يشوش رغبة الموت بداخلي
صوتك يا حبي يعيدني
حين أبلغ النهاية
فأبدأ مع البادئين
أبدأ كغصن مشتعل
يحمل اللبس والشك
فيراه من يراه مشعلا وحياة
ويراه آخرون أفولا ودخانا
صوتك يا حبي هو المعنى
حين يقصر الكلام
وحين تهرب الفرضيات
فكيف يكون المعنى في سِجِلّ
الغابرين..؟
معنى رجوع وحياة؟
أم معنى للاندثار والعدم؟
وإذا سمعت صوت وجع بداخلي
يرتدُّ ويتمادى
فكيف أقصي الحب من وجداني
وأوغل في حبس نفسي
في حاضرها الميت

كيف أوصد الباب عن ماضٍ قريب
ارتوت لحظاته من نبع حنانكَ
وغفت أحلامه على همس أحلامك
ماض جميل كالنسيم
هادئ كعبق ياسمين
ماض لم يمض
ولكنه الآن
وكل وقت
ماض هو لي حاضر
أحيا به وأموت
ماض هو لي مزمار
بالأنغام يسبح
وهو آهاتي الثملة من سحرك
وهو أطياف ترفل مع الورود
والزنابق
ماض هو بستان أخضر
قد نبت بقلبي
لست لأقول
خذني أيها الصوت
ولكن سأقول إليَّ ، إليَّ
فحياتي كل حياتي
معك ولك وبك

الجزء الأخير من القصيدة الأخيرة:

صوت الحب يزرع اسمه
الضارب في التاريخ !
القديم قِدَم الإنسانية
على جسدي
أنوارا ومفاتيح
مفاتيح لجنات الهوى
التي أقفلتها
فأنا أنثى مزيفة
يرعبها أن تدنس
جنة الحب بزيفها
أنثى خرجت من جنتها
بملء إرادتها وحيدة
بلا علة وجودها
بلا صانع العشق بوجدانها
بلا وردة قلبها
بلا رفيف روحها
بلا آدم...
فصلت نفسها عنه
كسرت أواصر الالتحام به
وأغلقت سِجِلَّ الحضور
بين روحين عاشقين
وتركته ليكمل القصيدة
بنفَس واحد
تركته فربما يصنع تاريخه
في جنة يحسبها بنو البشر كمالا
وما هي إلا عذاب لروح الكائنات الناقصة "

أغمض توفيق عينيه وتراءت له صور من الحكاية، حكاية سارة في صراعها مع الحياة ومع الوجود. اصطدمت الصور بمخيلته وألهمه جمال القصيدة حنينا إلى الماضي فأحس بها قريبة منه، تحيا من جديد ورأى حياته وحياتها كتابا مفتوحا، تصفحه وقرأ كل سطوره الحزينة بقلب مفطور وهاجت انفعالات بوجدانه فانخرط في بكاء مرير.

كان شاب أسمر البشرة يدعى "آدم راينر" مستلقيا على كرسي استرخاء على ظهر سفينة مبحرة من سواحل الأطلسي بالمكسيك نحو الشرق وقد كانت نشأته بالمكسيك غير أن المحيطين به اعتقدوا بأنه أمريكي الأصل أو هم في الحقيقة قد جهلوا أصله الحقيقي. كان يحمل معه كل ما ورثه عن أمه أغان للوجود في كتاب هو عنده أشبه بالكتاب المقدس.

استسلم الشاب اليافع لنعاس جميل بعد أن هدهدته نسائم البحر الربيعية الجذلة، فتح بعد ذلك عينين ناعستين تضيئان بشعاع غريب، فأغراه منظر الماء الأزرق وقد عانق الأفق بالإبحار في لجة الحياة بل بالاندماج مع صيحاتها وأصواتها المنادية، إنها تناديه من عمق الشرق ليذوب فيها بنشوة وكبرياء باحثا عن ذاته وعن هوية ظنها ضاعت إلى الأبد، إنها تدعوه إلى ذلك الشرق ليكتشف جذعه الذي منه انبثق وليمتص شذى الحياة الحقيقي، تدعوه ليزرع حبه بأرض معطاء وليغسل اسمه من الدنس الذي ركبه. هو ذاهب إلى هناك ليصحح اتجاه الأناشيد والطيور. لن يضيع الحلم مرة أخرى بثنايا الغرب ولن يعيد الخطأ نفسه من جديد فقد صارت الزلة السابقة خرقة من الماضي.

كم يحتاج إلى سحر الشرق ليبلل أوداجه المتعطشة إلى ينابيع الأمل وليعثر على أصله الذي تاه في روضة حب أقفرت قبل الأوان. وكم هو مشوّق إلى رحلة هي رحلة العمر ورحلة العودة إلى موطن الحقيقة الكاملة، رحلة التحام الجزء بالكل، رحلة تقطعها القطرة إلى نبعها العذب الثمل، رحلة هي تصحيح للكينونة المنفية عن ذات مغتربة. إنها رحلة طويلة وشاقة لإعادة الأنا المعتز الواثق بكماله وامتداده، هي رحلة

متعبة لكنه عازم عليها تدفعه هزة الشوق وتحدوه رفعة المبتغى لمعانقة الحياة وإشراق الأزل.